أهمية أن نتثقف يا ناس

يوسف إدريس



أهمية أن نتثقف يا ناس

تأليف
يوسف إدريس



أهمية أن نتثقف يا ناس

يوسف إدريس

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٠١٣ ٠

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٤.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠.

المحتويات

تقديم ٧
أهمية أن نتثقف يا ناس ١١
الرأس والحل والنظام ١٩
مولد الكتابة في مصر ٢٥
ومولد الكاتبين أيضًا ٣٧
ليس — وحياتك — أي كلام ٤٣
حياتنا والتليفزيون ٤٧
التثقيف اللاسلكي ٥٥
هل وجودنا المصري محاصر؟! ٦٣
في قلب الشباب ٦٩
أسئلة حائرة ٧٥
حرية التعبير في الظلام ٨٥
من أجل نصف قدم ٨٩
من أجل حفنة نساء ٩١
من أجل افتعال بعض الضحك ٩٥
واحد قانون ٩٧
الحل المصري لمشكلة القوة ١٠١
حين نطق الشعب ١٠٣
امتحان ١٠٥
الديناصور ١٠٩

الفنان ١١١
مجرد ملاحظات ١١٣
كاتبة جديدة حقًّا ١١٧
العيب ليس فينا ١١٩
صحوة الإسكندرية ١٢٣
من سِفر الحياة والموت ١٢٥
اسمحوا لي أن أسأل ١٢٩
التثقيف اللاسلكي أيضًا ١٣١
عزف وهَّابي منفرد ١٣٥
السؤال إجباري ١٣٩
شكرًا يا دكتور ولكن … ١٤٧
أقوى من الأسود ١٥٣
الأزمات بالطول أم بالعرض؟ ١٥٧
ماذا نفعل بياميت؟ ١٥٩
الضجيج الداخلي والخارجي وحالة التولة ١٦١
خطاب لرئيس الوزراء ١٦٧
إلى نزار قباني! ١٧٣
غطاء فانوس النور ١٧٩
رد على الشيخ الشعراوي ١٨٥
عن الزمن والزمان ٢٠٥

تقديم

آثرت أن أُسمي هذا الكتاب باسم أشهر مقالة كتبتها في باب المفكِّرة التي أكتبها في الأهرام «أهمية أن نتثقف يا ناس» تلك التي كُتب لها أن يرد عليها وزير الثقافة ورئيس المجلس الأعلى للثقافة ذلك الرد الذي هبَّت الحركة الثقافية كلها وحتى القرَّاء العاديون يرفضونه ويشجبونه ويجعلون من مقالة «أهمية أن نتثقف يا ناس» وما دار بشأنها وحولها ربما أشهر مقالة واحدة في تاريخ الكتابة العربية. وهو في الواقع شيء لم أكن أبدًا أحلم به، ولكني أصلًا لم أكن أريده؛ فالمقالة نفسها قد تستحق أو لا تستحق هذه الضجة الكبرى، ولكنها في رأيي كانت فاتحة كتاب أودُّ أن — على مصراعيه — أفتحه؛ ذلك أني أعتقد أن الوجود المصري الحالي يمر بأعنف أزمة وجود من غزو سليم الأول لمصر في العصور القديمة، ذلك الغزو الذي كان بدايةً لعشرات ومئات السنين المتلاحقة من إضعاف إثر إضعاف للوجود المصري حتى تحولت مصر من قاهرة للصليبيين والتتار إلى مجرد ضيعة تركية شعبها امتُصَّ إلى آخر قطرة من دمه وقمحه وصناعته وتجارته، ومشايخها (مثقفو ذلك العصر وقياداته الفكرية) قد تحولوا إلى العقم الفكري، وبدأت تنتشر بين الشعب الخزعبلات وتؤدي إلى ردة فكرية إسلامية أبعدته تمامًا عن روح الإسلام إلى التمسك بشكلياته.

ومع اختلاف الزمن، واختلاف الغزو، فإن الحقبة السبعينية من هذا القرن قد أسقطتنا — في رأيي — إلى هوة من الصعب الآن أن نتخيَّل كُنه أبعادها. وإذا كان البعض — وهم كثيرون — لم يدركوا مدى الضربة التي حاقت بنا، وأبعاد التدهور الذي وصلنا إليه فما ذلك إلا لأن هناك مخدرات فكرية وثقافية — أو بالأصح تُشاع في الجو باسم الفكر والثقافة والسينما والتليفزيون والمسرح — تُغيِّب منا الأبصار وتكاد تُعمي العيون. نفس المخدرات التي أصبحت تشيع باسم الدين، والدين منها بريء، ولا يختلف الداعية للخزعبلات الدينية عن ممثل قطاع المسرح الخاص حين يخرج على النص، ويُحيل المسرح،

ذلك المكان المقدس المقام لتقال فيه كلمة الحق، إلى مكان كالكباريه يخلخل القِيم ويُشكك في الوجود، بل ويفكك عُرى الشعب، بحيث يتحول الإنسان المصري إلى جزءٍ لا كُلٍّ له، إلى فُتات مجتمع، إلى كافر بحماية أهله ووطنه له، بحيث تصبح مسألة ابتلاعه في تطلُّعات طبقية، ومغريات استهلاكية مسألة وقت محدود، تنتهي فيها مقاومته، ويضرب صفحًا عن قيمه، ويستسلم، ويبيع نفسه، سواء داخل مصر أو خارجها.

ومن العجيب أن هذا كله يحدث بينما الصحف الرسمية وأجهزة الإعلام تُردد كلامًا أجوف حول الانتماء، ومصريتنا التي لا بدَّ أن يحميها الله، وكأنهم ليسوا هم الذين يُفتِّتون هذا الانتماء، ويطمسون معالم المصرية الحقيقية لتغيب عن الشباب ويفقد الاتجاه والقدوة، ويئوب وعيه إلى ظلام. حتى إذا حاول الشاب أن يفلت بجلده ويولي وجهه الناحية الأخرى، ناحية الإسلام الحق وعبادة الرحمن، لم يجد إلا أناسًا آلوا على أنفسهم أن يمسخوا الإسلام ويحوِّلوه إلى «آداب دخول المرحاض» بدلًا من الحديث عن رسالة الإسلام الكبرى في إنهاض عزيمة المسلمين ودَحْر أعدائهم والجهاد في سبيل حقوق أمم الإسلام وشعوبه.

إذن هناك مؤامرة، متَّفق عليها أم غير متفق، ليس هذا هو المهم. المهم أن شيئًا خطيرًا جدًّا يحدث للعقل المصري والعربي بفعل فاعل، وتلك المؤامرة على العقل المصري والعربي ضاربة الأطناب في كل بلد عربي على حدة، آخذة هذا الشكل أو ذاك، بل آخذة أحيانًا ثوب ما يُسمى بحكم الشريعة نفسه.

لهذا فنحن حين نتحدث هنا عن الثقافة وأهميتها لا نتحدث كما يعتقد البعض عن الثقافة الرفيعة وعن المسرح الرفيع والكتاب الرفيع والتليفزيون والسينما الرفيعة، وإنما في حقيقة الأمر وواقعه نتحدث عن الوعي المثقف المزوَّد بالقدرة على التمييز والإدراك، نتحدث عن إنقاذ الوعي المصري والعربي، عن إزاحة الضباب عن عيون القراء والكُتَّاب والصحفيين، نتحدث عن التصدي للمُغيِّبات المكتوبة والمُقالة والمصوَّرة، نتحدث ونريد أن نقاوم تلك الغزوة الرامية لشلِّ عقولنا وإبادة حضارتنا، وتشجيع التسيُّب في سلوكنا، وإشاعة الفوضى في وجودنا، في بيوتنا، في شوارعنا، في تجمعاتنا، في جيوشنا، في مصانعنا، في ريفنا وحضرنا.

فالاستعمار هذه المرة لم يأتِ بجيوش ولا بأساطيل، ولم يحتل بلادنا بأجساد، وإنما مد أدواته وألسنته وكُتبه ودُعاته إلى مجتمعاتنا حتى أصبح يتحكم فيها بما يمكن أن نُسميه «الريموت كونترول» أو التحكم عن بعد، وإعاثة الفساد عن بعد، معتمدًا على طابور خامس من أهل البلاد، من سماسرته، ودُعاته، والمستفيدين من جهل شعبنا وجهالته، وعدم إدراكه لما يُراد به، ولما يتعرض له.

وأعتقد أن مهمة كل كاتب مخلص، حتى لو كان يدَّعي أنه لا يعمل بالسياسة أو يهتم بها أن يتصدَّى لهذا الغزو، ولذلك الوضع، فإنها لجريمة كبرى أن يترك كاتب شيئًا كهذا ويقول سأعكف على قلمي أكتب به رواية أو مسرحية، فالاحتياج أسرع من مفعول أية رواية أو مسرحية أو أُغنية أو حتى قصيدة شعر. إنها نار تُحرقنا، وتجتاح وجودنا، وفي حاجة لأن نهبَّ جميعًا كُتابًا وقُراءً لندفع ذلك الحريق، لننقذ أنفسنا وأولادنا وأهلنا، ونفعل هذا الآن وفورًا، وأبدًا ليس غدًا. ولهذا فإن ما سوف تقرءونه في تلك الصفحات إنما هي مقولات كُتبت في حينها ونبَّهت إلى الخطر حين لم يكن ظاهرًا، وأوغلت في التنبيه حين ظهر، كُلي أمل من القارئ حين يقرأ، أن يفكر بدوره ماذا يستطيع أن يفعل ويساهم به في إطفاء الحريق أو الذود عن النفس والعِرض فالكارثة أن المؤامرة تتم في جو كامل من التجهيل والتدهور الثقافي والفكري.

وربما لهذا كانت غضبة الوزير على مقالة «أهمية أن نتثقف يا ناس» فلو كان وزير ثقافة حقًّا أو مخلصًا لشعبه وتثقيفه لرحَّب تمامًا بضرورة أن نتثقف مهما كان الداعي لذلك. ولكنه، هو الوزير، لا بدَّ أن يكون جزءًا من المؤامرة، سواء أدرك أم لم يدرك، ولهذا سبَّ الكاتب وطعنه في أعز ما يمتلكه، مصريته، وولائه لشعبه ومصريته، وتحمله ما لا طاقة لبشر على تحمله من أجل الذود عن هذا الشعب وقيمه وحضارته وسلوكه وثقافته.

هذه إذن مواضيع متصلة وإن كانت في نفس الوقت منفصلة لها شبه الاستقلال الذي يجعل منها وحدات قائمة بذاتها، في نفس الوقت الذي تضع فيه، كلَبِنات الحجر، بناءً للرؤيا الكاملة لما أردت قوله، وإذا كنت قد آثرت أن أنشرها كما هي فإنما ذلك راجع إلى أن كل موضوع على حدة يحمل الخصائص الذاتية والنفسية للظرف الذي كُتب فيه، فالرؤيا ممتدة عبر السنوات الماضية، وربما ستظل ممتدة إلى سنوات قادمات أُخر.

إني أعتبر هذه الرؤيا واحدة من أهم مكونات حياتي ككاتب، وإني لأرجو أن يجد القارئ فيها لقاءً مجزيًا عن الوقت الذي سوف يُنفقه في قراءتها.

يوسف إدريس

القاهرة، سبتمبر ١٩٨٤م

أهمية أن نتثقف يا ناس

جاء علينا حين من الدهر كانت كلمة مثقف فيه علامة أن المواطن هو فعلًا صاحب مقام رفيع. كان احترام الثقافة والمثقفين جزءًا لا يتجزأ من قِيم شعبنا وتقاليده الراسخة، بحيث إن عامة الشعب حين كانت تريد أن ترفع من قيمة المتعلم أو المثقف تميزه بكلمة أفندي وتُسمي العامل الكفء المثقف أُسطى أو بمعنى حقيقي أستاذ.

وهذا الحين من الدهر كان مستمرًّا طوال حياة الشعب المصري حين كان المثقف في العصور الوسطى هو الشيخ أو مولانا أو سيدنا، ومن نفس المشايخ برزت الفئة المثقفة الجديدة مع بداية مصر الحديثة في عصر محمد علي، ومن رفاعة رافع الطهطاوي إلى محمد عبده وخالد محمد خالد، تلك الكوكبة من العقول المضيئة التي ظل مجتمعنا ينظر إليها كما ينظر إلى مصادر الضوء تُنير له وجوده وحياته ويرفعها إلى مستوى التبجيل العظيم والقيمة الخالدة.

ولم يكن حظ المثقفين من خريجي الجامعة المصرية بأقل؛ فقد كانوا علماء في تخصصاتهم، هذا صحيح، ولكنهم كانوا أيضًا من كبار مثقفي عصرهم، والذين يدهشون كيف كان الجرَّاح العظيم علي باشا إبراهيم عضوًا مؤسِّسًا ومسئولًا عن البرامج في المجلس الأعلى للإذاعة المصرية عند إنشائها ربما لا يعرفون شيئًا عن علي إبراهيم «المثقف» المُلم، العالِم.

ولا أعتقد أن بلدًا من بلاد العالم جُبل شعبه على تقديس الثقافة والمثقفين مثل بلادنا. إن المكانة التي رُفع إليها طه حسين والعقاد وأحمد حسن الزيات والمازني ومحمود عزمي وسلامة موسى وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وحسين فوزي ولويس عوض وأحمد أمين

وأحمد زكي وهيكل ومشرَّفة وزكي نجيب، القائمة الطويلة؛ المكانة التي رفعنا لها هؤلاء وغيرهم تُثبت أننا بالسليقة شعب يُقدِّس المعرفة والثقافة، شعب في أساسه متحضر وعميق الصلة بالقيم الحضارية العليا.

بل إن الاحترام الذي يحظى به «حكماء زمانهم» من الفلاحين الأُمِّيين والعمال وسكان النجوع والحارات، احترام لا يمكن للإنسان أن يُخطئه إذا أُتيح له الاحتكاك الكافي بالحياة اليومية في أقل مستوياتنا الاقتصادية والمعيشية.

دائمًا نُقدِّر الذكاء والاطلاع وخصوبة التجربة، للمعروفين وغير المعروفين، حتى إن أمثالنا الشعبية — كما سبق وكتبت — معظمها قوانين حياة مُصاغة بمنتهى الحكمة، وتكاد في مجملها تشكل نظرية حياة كاملة مليئة بالحلول وساطعة المدلول.

ماذا إذن حدث فقلب أمورنا رأسًا على عقب، حتى أصبحت كلمة أفندي تُقال للسخرية، وكلمة مثقف تُذكر من باب التوبيخ و«التريقة»، وكلمة ثقافة يتحسَّس لدى ذكرها بعض المواطنين أنوفهم وكأنما هي شيء لا يُطاق؟

ماذا بالضبط حدث؟

ليس فقط للمواطنين وإنما حتى للقيادات الفكرية والفنية للمواطنين، وإذا كان برنامج «الجائزة الكبرى» قد كشف جهل بعض الممثلين، فلو أُجريَ امتحان مقابل لمقدمي البرامج في الإذاعة والتليفزيون ولكثير من أصدقائنا المعلِّقين في الصحف والمجلات (وهذا في حد ذاته وباء اجتاح صُحفنا ومجلاتنا بحيث أصبحت جميعها تعتمد على الأعمدة الثابتة الممضيَّة والأبواب، بحيث إني عن عمدٍ حاولت أن أعثر في مجلة فنية مصوَّرة تصدر عندنا عن موضوع صحفي واحد غير ممضي، فلم أجد، دليل أن المجلة كلها لا صحافة فيها وإنما هي مجموعة من المقالات تُشكل رأيًا عامًّا منخفض المستوى).

لو أُجري امتحان لهؤلاء القادة جميعهم لما اختلفت النتيجة كثيرًا عن نتيجة «الجائزة الكبرى».

وإذا كان هذا هو حال الأسماء الإعلامية المشهورة فماذا يكون حال مستهلكي الصحافة والإذاعة والتليفزيون؟

كان التليفزيون عندنا يُقدِّم منذ بضع سنوات برنامجًا ثقافيًّا على هيئة امتحان في المعلومات، وقد كنت عن عَمْد أُتابعه، وراعني أن المشتركين فيه جميعًا معلوماتهم العامة

تكاد تساوي صفرًا، ولا ينجحون إلا في إجابة السؤال الخاص بالأمثلة الشعبية، ومعنى هذا أنهم لا يقرءون، وإنما يتلقون المعرفة سماعًا وربما من أمهاتهم وخالاتهم فقط.

نعم! ماذا حدث؟!

كان كل شيء يسير على ما يُرام إلى أن قامت ثورة ١٩٥٢م، وثورة ٥٢ أساسًا ثورة الطبقة المتوسطة الصغيرة التي لم تنلْ من مكاسب ثورة ١٩ شيئًا، وظل الوفد يقودها على أمل أن يُصلح أحوالها، واكتشف الجناح العسكري في الحركة الوطنية (الضباط الأحرار) أن هذه الأحوال لن تنصلح إلا بإزالة الملك والإقطاع وكبار الرأسمالية.

وكل ثورات العالم تنشأ هكذا بهدف إزالة طبقات وإحلال طبقات محلها، ولكن لأن معظم الثورات يقودها سياسيون مثقفون، فإنهم يفرقون بين إزاحة الطبقة واستكمال التراث الثقافي للأمة.

فالثقافة التي أفرزها المجتمع المصري خلال النصف الأول من قرننا الحالي (١٩٠٠–١٩٥٠م) هي ثقافة الشعب المصري كله وليست ثقافة الطبقة الإقطاعية أو الرأسمالية فقط؛ فمعظم المثقفين والكُتاب الذين أفرزوا هذه الثقافة كانوا يأتون أصلًا من صميم الطبقات الشعبية، كانوا أبناء عمال وفلاحين، حتى إن أحدًا منهم لم يكن في أصله ابن عمدة.

والتمسُّك بتراث الأمة الروحي والثقافي هو جزء لا يتجزَّأ من مهمة أية ثورة وطنية؛ لأنه بدون هذا التراث قد تنتعش المصالح الاقتصادية للعمال والفلاحين والطبقات الشعبية الثائرة، ولكن العمود الفقري الثقافي الذي يحمل تراث الأمة الروحي إذا لم يحافظ عليه يتحلَّل وتنشأ طبقات عريضة جديدة بدون محتوًى روحي أو ثقافي أو حضاري مثلما حدث عندنا.

فقد دفعت ثورة يوليو إلى الساحة الوجودية جماهير غفيرة من الطبقة المتوسطة الصغيرة التي كانت تحيا على هامش الحياة، وفَّرت لها التعليم والماء والنور والمستشفيات وفتحت لها أوسع المجالات للكسب، ولكنها أبدًا لم توفِّر لها ما هو في رأيي أهم من هذا كله؛ وهو الإشعاع الثقافي الذي يُحيلها إلى كائنات متحضرة منظمة، ويجعلها كلما ارتقت اقتصاديًّا ترتقي سلوكيًّا وتعامليًّا وإنسانيًّا وفكريًّا؛ فالثقافة ليست مجرد تحصيل معلومات من كتب الثقافة بل هي أساسًا جزء مكمِّل بالضرورة للتعليم؛ فتعليم بلا ثقافة لا يتعدَّى خلْق كائنات ميكانيكية لا تُجيد إلا صنعة أو حِرفة يد.

بل حتى هذه الحِرف بدون عقل يحتوي الحد الأدنى من الثقافة اللازمة للمواطن، العامل أو الفلاح يصبح عاملًا معوقًا في نفس صميم حرفته أو صنعته. فإذا كان التعليم هو التدريب على المهارات سواء كانت يدوية أو عقلية، فالثقافة هي تدريب العقل نفسه على السيطرة على تلك المهارات، تدريبه على الاختيارات سواء ما يمسُّ منها صميم حياته الشخصية مثل اختيار زوجته ونوع حياته وتسليته وكيفية قضاء أجازته واختيار نوع التربية والتعليم والتوجيه لأولاده ومعاملة أهله وأصدقائه ورؤسائه وجيرانه وبقية المواطنين. الثقافة ليست ترفًا عقليًّا ولكنها ضرورة بشرية، تمامًا مثل الخبز والحرية، فبدون ثقافة يستحيل الإنسان إلى حيوان آكل شارب نائم متناسل؛ إذ الذي يصنع الإنسان والذي يفرق بين الإنسان العظيم والتافه هو الكم المضاف إلى عقله ليس فقط من معلومات وإنما من قدرة على ترتيب هذه المعلومات بحيث يستطيع الإنسان في النهاية أن يعتنق فلسفة خاصة به يزاول بها حياته ووجوده، ويُسعد بها نفسه ومواطنيه.

بل إنه بانعدام المحصول الثقافي للإنسان تصبح أية دابة أحسن منه؛ فهو دونًا عنها مزوَّد بعقل لا بدَّ أن يعمل، وإذا لم يعمل في اتجاه صالح فلا بد أن يعمل في اتجاه خاطئ وأحيانًا إجرامي.

أطلقت ثورة يوليو إذن العنان للطبقة المتوسطة تتناسل بلا حدود وتسكن المدن والشوارع والأزقة والمقابر كما يحلو لها وتهاجر كما تشاء، وتعود بعربات تتكدس في الشوارع كما تريد وحتى هذا كله لم يكن كافيًا، فبعصر الانفتاح والانفلات حُلَّت جميع الصواميل الباقية، استيراد كما تشاء، سوق سوداء، رشاوي، اختلاسات، ما دمت شاطرًا ولا تستطيع أن تقع تحت طائلة القانون فافعل ما بدا لك. وحتى لو وقعت تحت طائلة القانون، فتَّح مخك يا أخي، تفوت.

والطبقة المتوسطة بطبيعة تشكيلها وتكوينها طبقة متمردة تخاف ولا تختشي، هوايتها الخروج على القانون، والتنافس الرهيب الذي يسود بينها، بطبيعة تكوينها كما قلنا، يجعل الأنانية عندها هي القاعدة والانفلات هو القانون؛ ولهذا فالدول حتى الرأسمالية منها تسنُّ القوانين الباترة لتنظيم حركة هذه الطبقة ومنع بعضها من الطغيان على بعضها الآخر. وفي نفس الوقت تحاول الدول باستمرار أن ترفع المستوى الثقافي لتلك الطبقة؛ إذ إن رفع المستوى الثقافي يحد كثيرًا جدًّا من نهم تلك الطبقة وجشعها وجبروت كثير من أفرادها.

وقد تنبَّهت ثورة يوليو بعد سنوات من قيامها إلى أهمية الثقافة في حياة الأمة الجديدة، وبدأت في تكوين شركات قطاع عام للسينما وهيئات للمسرح والكتاب وأكاديمية للفنون، وما كادت تلك المؤسسات تقف على أقدامها حتى تكفلت الهزيمة العسكرية عام ٦٧ وما تلاها من أزمات بإغلاق أبوابها أو كادت، وهكذا بقيت روح هذا الشعب الثقافية وديعة غير محافظ عليها كليةً في أيدي القطاع الخاص الذي أحال المسرح إلى كباريه، وأحال مسلسلات التليفزيون إلى وسيلة لإنقاص وزن العقول والاستخفاف بها، ومات الكتاب وماتت المجلات الثقافية والعلمية، وتحولت الجامعات من دور للثقافة العليا إلى مدارس متوسطة يتخرج فيها أنصاف حِرفيين بدرجة بكالوريوس وليسانس، وتحول جنون التناسل إلى مواسير هائلة الضخامة تصبُّ على البنية الأساسية الضعيفة من البداية لمجتمعنا كميات هائلة من البشر تُولد ولا بد أن تتعلم ولا بد ومن المحتَّم أن تتخرج من الجامعة، وما دام لا قانون هناك ولا قاعدة، فليصبح الاستثناء هو القاعدة، وعشرات الاستثناءات تسمح لعشرات الفئات بصبِّ بناتها وأولادها ليُحشروا ضمن زمرة الجامعيين بلا أي مؤهل أو ذكاء.

وكأنما أصبحت الحكومة تُنافق الشعب كما تعوَّد الشعب أن يُنافق الحكومة ويتملَّقها، ونفاقًا بنفاق أصبحت حياتنا الآن على ما هي عليه: بَشَر بَشَر بَشَر، كميات هائلة من البشر، ولا نظام ولا احترام لأي شيء، الأرض الزراعية تُجرَّف، أرض الحكومة ينهبونها، البنوك الأجنبية فاتحة أفواهها تبتلع مال المصريين القليل وتضخُّه إلى بنوك أوروبا وأمريكا.

في مثل هذا المجتمع الذي لم تعد تنطبق عليه — كما سبق وقلت — قوانين المجتمعات؛ إذ القوانين في المجتمعات موضوعة لتُطبَّق على الأفراد ونحن لم نعد أفرادًا، نحن الآن «كميات» من البشر، لا بد أن نخترع لها قوانين «كم» لتحفظ النظام والنظافة والوجود بين «الكميات» وبما أن الثقافة دائمًا مسألة فردية، مسألة اجتهاد من الفرد في التحصيل يقابله اجتهاد من الدولة لتقديم السلع الثقافية، وبما أن الدولة مشغولة تمامًا «بطعام» تلك الكميات من البشر، مجرد ملء حلوقهم وكسائهم، ولا وقت لديها، ولا حتى إمكانيات لإطعام عقولهم، فلنترك المسألة نهائيًّا للصُّدف المحضة تقرر كم ونوع الثقافة التي يتغذى بها شعبنا.

ولكن السؤال هو: هل فعلًا ليست لدى حكوماتنا إمكانيات ثقافية متاحة لترفع بها المستوى الثقافي لشعبنا؟

إن لدينا بالتأكيد إمكانيات، ولكنها مُهدَرة تمامًا.

والمثل قريب وساخن؛ فالمتتبِّع للانتخابات الأخيرة، وللتهم المتبادلة بين حزب الحكومة وأحزاب المعارضة، يجد أن الفاعل الحقيقي في كل ما حدث كان هو الجهل والتخلف وانحطاط المستوى الثقافي، يقابله في نفس الوقت تخلف أجهزتنا الإعلامية وعلى رأسها التليفزيون والإذاعة والصحافة عن التصدي للمعركة الانتخابية تصديًا جادًّا حقيقيًّا. بدل هذه المسلسلات الهابطة الواردة لنا من عجمان والسعودية واليونان، كان مفروضًا أن يتحوَّل التليفزيون بالذات إلى مدرسة للديمقراطية تُعلِّم جماهير الشعب وشبابه التي حُرمت من الانتخابات الحرة ردحًا طويلًا من الزمن تعلمهم هذا الشيء الخطير تمامًا، حق الانتخاب وضرورته وأهميته، بدل أن تخاف من هذا الحزب أو ذاك حتى لا ينال بعض الأصوات في الانتخاب نتيجة لتأثر جمهور المشاهدين بمثل هذا الحزب أو ذاك.

كان من الممكن، منتهزين فرصة الانتخابات، أن يخرج الشعب لا بمجلس جديد فقط وإنما يتخرج شعبنا ديمقراطيًّا ويكتسب باعًا طويلًا يستطيع بواسطته أن يُساند كل ما يتمخض عنه المجلس الجديد من تشريعات ومناقشات، وإذا كانت بلوانا الرئيسية هي في سلبية المواطن، فشكرًا لأجهزة إعلامه؛ لأنها تحرضه على السلبية تحريضًا وتكاد تقول له خلي عنَّك انت، نحن نفكر لك، وننتخب لك ونختار، وإذا أردت الانبساط فنحن أيضًا الذين سنبسطك.

ولكنها سياسة نفاق الشعب وتحويل الشعب إلى منافقين سلبيين.

نعم لدينا إمكانيات.

مسارحنا بعد أن كانت الرئة الروحية للأمة، تسلَّط عليها القطاع الخاص بالرشوة أحيانًا وبالحرق وبالغلق، ليتاح لأربعة أو خمسة أفراد من مُلَّاك المسرح الخاص أن يصبحوا مليونيرات على حساب كل قيمة بشرية وإنسانية.

وبنفس الإمكانيات التي «جمَّلنا» بها القلعة كان ممكنًا أن نُنقذ بيوتنا الروحية المسرحية بل وحتى نبنيها من جديد، وببضعة آلاف من الجنيهات كان ممكنًا أن نُنقذ ممثلينا وجمهورنا ومخرجينا وكُتَّابنا من التلطع في استوديوهات الخليج ونريح بها شعبًا قويًّا لا يأكل الدود روحه في تلك المسلسلات الساقطة.

نعم لدينا إمكانيات.

فمطابع الهيئة العامة للكتاب هي أكبر مطابع في مصر، والموظفون والعمال في تلك الهيئة يُعدُّون بالآلاف ومع ذلك فإن كُتابنا الشبان والكبار لا يجدون مكانًا للنشر هنا، وتفتح لهم بيروت وبغداد ودمشق أذرعها.

نعم لدينا إمكانيات.

هذا المسمى بالمجلس الأعلى للثقافة الذي لا يفعل شيئًا بالمرة إلا أنه يحجب الجوائز عن مستحقيها أو أنه يجتمع في العام مرة ليُحلل بدل حضور الجلسات، هذا المجلس الذي اختيرت أغلبيته من الموظفين، والمتعلمين الذين هم بلا لون أو طعم أو رائحة أو حتى تاريخ وكأن كل أجهزتنا الثقافية والعلمية قد عُقِّمت تعقيمًا شديدًا حتى لا يتسرب لها نبض أو رأي أو وجهة نظر جريئة تقتحم العنكبوت المُخيِّم على تلك الأجهزة وتقهر البيروقراطية وتسمح للنور والهواء أن يدخل معاقل الغباء والتخلف تلك.

نعم لدينا إمكانيات.

إن التليفزيون وحده يكفي في عام واحد أن يرفع مستوى شعبنا الفكري والروحي والثقافي بما يُعادل عشر سنوات من التربية والتعليم، ولكنه حتى وهو ينهى الناس عن الضجة أو عن إلقاء القاذورات يتصور أن الناس أنعم من أن يقول لهم: لا، لا بد أن يقولها راقصة ضاحكة مشخلعة حتى يبتلع المشاهدون كلمة «لا» المُرة.

نعم لدينا إمكانيات.

وشكوانا المستمرة من السلبية والفوضى وانعدام الضمير والقيم وتفشِّي الفساد والمحسوبية، شكوانا من الازدحام الحيواني والهرجلة والارتجال في المشروعات والحلول، شكوانا من الضعف القيمي الذي ساد أفرادنا ومؤسساتنا.

تقريبًا كل شكاوانا الخاصة بالإنسان سببها أننا تحولنا إلى مجتمع جاهل حتى وإن كان بعضه متعلمًا. مجتمع غير واعٍ أو مدرك أي غير مثقف، مجتمع همه على بطنه وأقصى متعة للمليونير فيه أن يأكل كبابًا ويشرب ويسكي، مجتمع ليس له صفوة قائدة مثقفة محترمة تتمسك بالقيم وتدافع عنها وتدعو إليها. مجتمع نجومه ونجماته أشد ظلامًا وخمولًا من السماء الملبَّدة بالغيوم.

ولدينا إمكانيات النهضة.

ولكن المشكلة هل لدينا الهِمة؟

أعرفنا لماذا نطالب ونلحُّ بالتغيير؟!

من أجل أن يتولى أمورنا أناس ذوو همة.

إننا ننحدر ثقافيًّا وبالتالي سلوكيًّا بدرجة خطيرة، والغوغائية — نتيجةً لانعدام الثقافة — تسود إلى درجة تُهدد فيها باكتساح وجودنا كله. ومع وجود هذه الكميات المخيفة من البشر في هذا الحيِّز الضيق للوجود فإننا ذاهبون إلى كارثة محقَّقة — لا قدر الله — إذا لم نُولِ رفع المستوى الفكري والثقافي للشعب الأهمية القصوى الجدير بها.

فالثقافة أخطر من أن تكون من كماليات الحياة.

فالحياة نفسها هي الوجود المثقف للكائنات.

الرأس والحل والنظام

أسهل شيء في الدنيا — كما ترون — أن يكتب الإنسان!

لماذا فرَّطنا في أشياء عزيزة وغالية كنا نسمِّيها قيمًا؟

أكتب لأني أريد فعلًا أن أكتب. مرة أخرى أحتشدُ وينتقل ما بالرأس إلى الأصابع والأنامل وتستحيل «النغمشات» إلى أشياء مجسدة لها معنًى. أهي لعنة؟ أهي نِقمة؟ أهي نِعمة؟ أهو قَدر يُحيط عنقي بطَوق من حديد لا يعرف حدَّاد في العالم كيف يحطِّمه؟ قائد أنا أم مقود، مغمض العينين، غير مطلق السراح إلى أبدٍ محدد لم يستشرني أحد أبدًا في نوعه أو اتجاهه أو تحديده؟

وقف القلم في المنتصف رافضًا أن يتحرك خطوة حتى يعرف إلى أين، حتى يعرف لماذا؟ حتى يرى إن كان هناك مجال للرؤيا حتى يُبصر، ولو بالبصيرة يحدده.

اكتب.

قال: ما أنا بكاتب.

اكتب.

قال: ما أنا بكاتب.

لا تتمرد.

قال ما أنا بمتمرد، إن هو إلا سؤال.

السؤال أيضًا تمرُّد.

قال: حين يصبح السؤال تمردًا تصبح الكتابة معصيةً وخطأً لا يُغفر.

سمِّ واكتب.

قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.
وسكت.

اقرأ.

قال: ما أنا بقارئ.

اقرأ.

قال: ما أنا بقارئ.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

قال: صدق الله العظيم. الكتابة أمانة. وقد عُرضت الأمانة على الأرض والسماء فأَبينَ أن يحملنها وحملها الإنسان. ما أتعسه، وما أخطرها من أمانة.

ولكنني فعلًا مشتاق أن أكتب، مثلما أنت تشتاق أن تأكل أو تشرب أو تهفو بجنون إلى أخذ النفَس إذا غطستَ في الماء وعاندت نفسك وأردت أن تظل أطول الوقت مكتوم الأنفاس تحت الماء. ما أحلى أن ترفع الرأس المختنق فجأة وتُدخل صدرك أول شهقة هواء!

شهور ثلاثة والقارئ الكاتب مشتاق إلى القارئ، وكل شيء يحول بينهما إلى حد أن لا شيء يحول بينهما. الثاني ما عليه إلا أن يقرأ. الأول مشكلته أن عليه أولًا أن يكتب، وأن يكتب لا ليُري للناس صورته الباسمة المنقوشة، أو يقول للعالَم: أنا هنا. أو من أجل أن يُطالع القارئ كل يوم، كل يوم — يا إلهي — بكلام، أي كلام. لا. لا بد أن يكتب ليضيء شمعة. ليسوق للناس كلمة طيبة، ليضع شيئًا يستحق عناء أن يُمسك المواطن بالصحيفة ليفتِّش فيها عن شيء نافع أو دواء ناجع.

الحقيقة أن أسهل شيء في الدنيا، كما ترون، أن يكتب الإنسان.

وأصعب شيء في الدنيا كما لا بد تعرفون، أن يكتب الإنسان.

وبلادنا ووطننا الصغير والكبير، ومواطننا كبر أم صغر يمر بمرحلة تدور لها الرءوس ولو كانت مصنوعة من حديد.

وأنت ككاتب ليس مفروضًا أن تكتب لتشكو مما يشكو منه الناس ويعرفونه ربما أعمق منك.

وليس مفروضًا أن تكتب لتحاصر العينين بانتقاداتك بحيث لا يعود الإنسان يعرف من أين وإلى أين؟

أنت، تكتب لأنك تفكر. وليس أي فِكر أو أي تفكير، لكنه ذلك النوع الذي يسمونه الفكر المضيء أو الفكر القائد.

الفكر الذي وجد الحل، ويراه واضحًا وضوح الشمس، بحيث ما عليه إلا أن يُقنع الناس به.

فإذا لم يكن الحل هناك.

وإذا كانت الأمور قد استغلقت وتعقَّدت، بحيث، حتى لو كنت تملك ذلك المفتاح الواحد السحري الفعَّال — كلمتك — لم تعد قادرة على فتح ما استُغلق، أو فقدت ما بها من سحر.

الحل إذن أن تسكت!

ولكن الكارثة أن السكوت ليس هو الحل؛ فلا بد شئتَ أم أبيت أن تظلَّ تفكر؛ فأنت عضو تفكير، إذا تعطل أضرَّ، وإذا توقف استحق البتر.

أيكفي هذا ليعذرني القارئ في الشارع في العمل، في البحر، والبر وكل مكان، الذي يسأل: لماذا لا تكتب. وأين كنت. وهل أنت ممنوع أو مُصادَر؟

أيكفي ما سبق وذكرته إجابة تشفي الغليل!

فأنا شخصيًّا غير مقتنع.

لا بد أن هناك شيئًا أكبر وأخطر وأشمل هو الذي يُخيِّم علينا جميعًا ولا يكفي قلم واحد، بل لا تكفي كل الأقلام مجتمعة أن تقنعنا بوجوده أو بعدم وجوده، فحنانيكم أرجوكم. إذا لم أكن عند كل حسن ظنكم فلا تسيئوا بي الظن، وإذا كنت عند بعض حسن ظنكم فلا تعتقدوا أن هذا — في وقتنا ذاك — شيء مهين.

يا صديقي المواطن. بطل والله أنت، وأي بطل.

ليست البطولة أن تُجيد التصويب وتذهب إلى ساحة الوغى أو عند الكمين وتقتل أول عدو تُصادفه.

هذا في رأيي هي البطولة الصغرى.

البطولة الكبرى حتى ليس أن تعبُر المانش أو تُجيد سباحة المسافات الطويلة.

البطولة الكبرى أن تُغرق أنت البحر.

وبلادنا في مرحلتنا هذه بحر عالي الأمواج صاخبها.

بحر وكأنما يريد أن يبتلع الناس والزرع والأشياء وكل ما على سطح الأرض.

ولكنا، بوجودنا هذا الذي يبدو فوضويًّا وبلا معنًى وشديد البشاعة، نصنع المعجزة نُغرق البحر فعلًا.

لا، نحن لا نَغرق.

نحن نُغرق.

تجرح أجسادنا وتمزق ثيابنا ويصيب الرشاش كرامتنا، ونفرِّط في أشياء عزيزة وغالية كنا نسميها قيمًا.

ولكنه كفاح «البطل»، ليعيش، ليُغرق الحُفر والبِرك والمستنقعات والبحور.

بطل أنت يا مواطني العزيز وأنت تُخرِّب ما أصلحه الدهر، بطل وأنت تُصلح ما خرَّبه الدهر، بطل، وأنت على أي الحالين ما زلت تعيش بطلًا.

ولا أقول هذا نفاقًا لك أو تعزية …

فأنت في غنًى عن النفاق لأنك في لحظة تُحدد الحياة والموت، وفي غنًى عن التعازي لأنك تعرف أن المُعزِّين هم المنافقون السائرون — أو الذين يريدون السير — وراء نعشك.

متأكد أنا تمامًا أنك تفهمني، برغم أني أتكلم، وكأنما «باللاوندي» ولكني متأكد أنك تفهمني.

فأنا، بفوضاك، أفهمك.

بكل منا وقد راح يخترع لنفسه قانون وجودٍ، أفهمك، بل وينتج عن ملايين القوانين، ويا للغرابة، قانون واحد يحكمني ويحكمك وكلانا عليه نتَّفق.

وأنا مثلك لم أمت.

وأنت مثلي لا تعيش كما تريد وكما يجب.

وأنا وأنت البطل.

يُخيَّل إليَّ أنَّ ما من شعب عاش على سطح الأرض ومرَّ بما مررنا به من تجارب وأزمات.

خُذ عصر المماليك أو عصر البطالسة.

خذ أي عصر.

واقرأ كيف جاوزناه واجتزناه وما زلنا باقين وسنظل إلى ما شاء الله نبقى.

أنا هذه المرة لا أكتب لأشرح وضعًا سياسيًّا استعصى عليَّ أو علينا فهمه.

ولا لأُثير مشكلة أو أثور على مشكلة.

أنا في الحقيقة أكتب لأُونس نفسي.

وأُونس من يريد الونسة معي.

أكتب كما أريد أن يكتب لي وأحس به طبطبة حنان صادقة، تُخفِّف عني، تشجعني، تطمئنني، تُنشقني جرعة أكسجين أرى بها المستقبل أو على الأقل تنفتح أبوابه أمامي.

وما دامت العِبرة بالنوايا؛ فليحاسبني الله سبحانه على نيتي، أو فليغفرها لي فما أكثر ما تكون النوايا الحسنة ذنوبًا على الطريق.

بالأمس سألني ابني الأكبر «إيه» النظام؟ والتعبير أحد نتاجات المرحلة، ويعني شيئًا أكثر دقة من قولك: ماذا سيحدث؟

وكأنما فُوجئت بالسؤال؛ فقد اضطربت.

وكأن السؤال ليس همي صباحَ مساء.

قلت: أن يكون هناك نظام.

ولكني أيضًا وأنا أقولها كنت أفعل وكأني أعتذر أو أقول: يا بني لست أدرى.

وأمسِ، سألتُ ابنتي ذات السنوات الخمس: ما هو الحل يا نسمة؟

قالت الشقيَّة وهي تحاورني: حل «إيه»؟

قلت: يعنى الحل. أي حل.

قالت بتأنيب: الحل بيبقى حل مسألة فأنت «مش» عارف المسألة «وعايز» تعرف الحل «إيه اللخبطة دي»!

شكرًا يا نسمة. فعلًا لكي نعرف ما هو الحل لا بد أن نعرف ماذا نريد حله.

أو بالتعبير الرياضي يا نسمة، لا بد أن نعرف «رأس» المسألة لكي، يا عزيزتي وحبيبتي، نحلها.

فإذا لم نكن نعرف الرأس ولا المسألة ومع هذا فنحن نحلها وماضون في حلها، وببطولة نفعل، ونوجد، ونكتب، ألا يعد هذا ما يشبه المعجزة؟!

بل المعجزة الأكبر والتي لم تحدث أبدًا في التاريخ ولكنَّا لا بدَّ أن نُحدثها هي أن نعرف من خلال حلنا لمسألة لا نعرفها، رأس المسألة.

أجل يا بني ويا بنتي حينذاك فقط نعرف ما هو النظام وما هو الرأس.

قد لا تفهماني، ولا تفهموني ولكن، يكفي إحساسكم بي وإحساسي بكم.

مولد الكتابة في مصر

بلا حيثيات أو شروح أو مقدمات، ها أنا ذا، والعام الجديد يهلُّ، معكم، خُضت التجربة وخرجت منها أنه لم يعد أحد يهمه أن يكتب أحد، بل العكس هو الصحيح، وأن الطريقة التي درجنا عليها والتي كانت تدفعنا إلى ألا نقرب الكتابة إلا ونحن مطلوبون ومرغوبون وألف إنسان من المسئولين عن الكتابة يهيبون بصاحب القلم أن يعود يكتب إذا أدت به العوامل المتراكمة أن تمتلئ نفسه إلى حافتها بالإعراض عن تلك الوسيلة الخاصة جدًّا لمناقشة القضايا العامة جدًّا.

الواقع كله أصبح يثبط، ولم يعد يربط الإنسان بضرورة أن يظل يكتب إلا قوة الدفع وقوة الرسالة والحرص على استمرار أداء الدور الذي يُشكل بالنسبة إليه الرابطة الوحيدة بينه وبين الحياة.

عدنا يا كتابة مع أننا لم نكُف، ولكن العَود دائمًا أحمد.

ولم نعد بحماس فاتر أو بال مثقل.

بل بإرادة شحنتها شهور الاعتكاف القاتل.

شهور جذبت قوسها إلى آخر المدى.

بحيث لم يعد في قوس الصبر منزع.

وتحوَّلت الخواطر الكثيرة المتراكمة والمُلحَّة إلى ترسانة أسهم تُصيب — تأمل أن تصيب — كل معوِّق.

وتنغرس في قلب الهدف.

والهدف كان، وسيظل، أن نحيا بشرًا، أرقى ما يكون البشر، نزاول حياة تليق بالبشر، وبحرية خصَّها الله للإنسان ليجعله بها أرقى مخلوقاته.

فالاختيار البشري ليس ترفًا، ولا مجرد مطلب يشكل لزوم ما لا يلزم. الاختيار هو الكتابة، والرأي اختيار.

الكاتب نفسه إنسان مختار ليختار، والاختيار والخيار شكله وموضوعه.

والكاتب اختارته العناية لرسالة، واختار الرسالة هدفًا، والهدف وسيلة وغاية ووجود.

وبعد:

في تلك الأشهر التي توقَّفت تحريرًا وتسجيلًا، أبدًا لم أتوقَّف تأمُّلًا وإعمالًا للفكر، وقد وجدت الحياة والكتابة والطريقة والمواضيع التي نتناولها قد آبت إلى زقاق مسدود. واستحال الكُتاب، محررو الأعمدة وراصدو اليوميات، والمعلقون، والمحللون، إلى «كورس» هائل الضخامة كثير العدد قليل التنوُّع تمامًا وكأنهم جميعًا يردِّدون كلمات قد تختلف مفرداتها وتعلو أو تنخفض أنغامها ولكنها تكاد جميعًا تقول نفس الشيء؛ تنقد الروتين وتندِّد بالكسل، تُصرح طالبةً النظافة، تتساءل عمَّا جرى لحياتنا من تغيير، تجمع كلها أنه كله إلى أسوأ، وتختلف اجتهاداتها في الإجابة ولكنك تقرؤها جميعًا فلا تحس أنك تقدَّمت في معرفة السبب خطوة ولا عرفت بداية لأي حل، وكأنك، كالملايين التي تملأ شوارع القاهرة في عز ساعات «الدوام» هجرت العمل، وانتشرت في قلب المدينة تمشي ولا تسعى، تتمنى لسعيها غاية فتتوه بسعيها الغاية، مذهولة تتساءل، وتتلفَّت، ولا تجد لآلاف استفساراتها مجيبًا، ولا لهواجسها مطمئنًّا، كالأطباء تحوَّلوا يطلبون العلاج من المرضى، ومرضى يُعالجون مرضى، وأصحاء يمرضهم أنهم لا يرون علامات لأية صحة في أي شيء.

المجاري كلنا كتبنا عنها.

لصوص التطفل واستغلال النفوذ والإثراء المجرم السريع حفظنا من كثرة الإجماع وانعدام التنوع كل الآراء فيهم، وحصرناها في طائفة تقول إنها ظواهر فردية موجودة في العالم، وآخرون يعزون السبب للانفتاح الاستهلاكي غير الرشيد أو فساد الحكم.

تليفون الألف جنيه، والمط في مسلسلات التليفزيون، والإجماع على أن الحل هو الإنتاج وكأن الذي سينتج كائنات ستهبط من المريخ، أو كأن الإنتاج يحدث تلقائيًّا بمجرد المطالبة به، أو كأنه اكتشاف جديد نطلع به على الدنيا.

تشابهت عند كل الأقلام المشاكل، وتشابهت أنواع الحلول، وتحوَّلت معظم الأعمدة واليوميات إلى المسكينة برامج التليفزيون وكأنها البردعة يقفز فوقها كل من يكتب؛ ليعتلي المنبر ويوهم نفسه والآخرين أنه فعلًا يكتب وأنه يقوم بدور، وأنه لو كانت «جواري بلا قيود» جيدة لانحلت مشاكل مصر.

في الآونة الأخيرة، وبجانب الانفجار السكاني، حدث انفجار في كم الأبواب الصحفية والكتابية، ونفس المطالبين بتحديد الأبناء والنسل تنتشر أبوابهم وكلماتهم على هيئة انفجار كتابي في أكثر من مكان في الصحيفة الواحدة أحيانًا وبأكثر من طريقة، وكأن همَّ كلٍّ منهم أن يستحوذ على أكبر عدد من «البوتيكات» الكتابية؛ فبقدر ما لديه من بوتيكات يتأكد ما له من نفوذ ويتربَّع كقاضي الأمور الكلية (بتاع كله) يُصدر الأحكام بلا نقض، ويُشرِّع لكل شيء في مصر، يُعلِّم «يسرا» كيف تتقمص الدور، ويزجر عدوية، ويؤنِّب رئيس الحي ويثبت أنه أول من نبَّه إلى خطورة الاقتصاد في نمو المجتمع، ويتطوع برأي غير مسبوق في أحقيتنا لـ «طابا» وينعى على بحيرة السد العالي سمكها الذي أُهمل صيده حتى بلغ حجم الديناصورات، وبالمرة يؤكد أنْ لا عودة لعهود السجون والمعتقلات، ولا عدول عن القطاع الخاص، وأن الأهلي أثبت كالعادة أنه حديد، وأنه يستغيث بمحافظ الجيزة ليعالج مواطنًا على نفقة الدولة، والكل يفعل هذا ولسان حاله، وكثيرًا ما يُنهي كلامه قائلًا: ألا هل بلغت، اللهم فاشهد. أبلغ مَن؟ الحكومة؟ وكأنه يتصور فعلًا أن هناك مواطنًا اسمه الحكومة يسمع ويعي، وكأنها ليست أجهزة لا نهائية العدد والاختصاصات لها طول قطارات البضاعة وقدمها وانفصالها عن بعضها البعض، ولكنه يُصرُّ أنه نبَّه الكائن البشري الذي اسمه الحكومة، وأنه ها هو ذا يُعيد تنبيهه، وسجَّل في لوح التاريخ وعلى مَرأًى ومَسمعٍ من ملايين المواطنين الشهود، أنه كتب ولم يتحرك أحد، وأنه بثاقب نظره أثبت الحالة، وأنه أرضى ضميره والعيب أبدًا لم يَعُد عيبه.

وحتى كبار الكُتَّاب

«مولد كتابة» ينتهز بعض «كبار الكُتاب» فرصة الدوشة والازدحام وخاصيتنا القومية في ضعف الذاكرة من هول ما تكدَّس ويتكدس فيها، ويعدد للناس مواقفه الخطيرة مع الشعب ضد الملك قبل الثورة، ومع الديمقراطية ضد الطغيان وعصر عبد الناصر ومراكز القوى، وأنه — هو ولا أحد غيره — وقف ضد السادات وأخطائه، ويفعل هذا بجرأة يُحسد عليها، وكأنه يخاطب أطفالًا لم يروه يؤلِّه الملك ويُعادي الشعب، ويمجِّد عبد الناصر والثورة، وبالذات في المواقف التي كان الكل يعارضونها، ويُسبِّح بحمد السادات، ويكرر الشيء نفسه مع مبارك، واهو «مولد» وصاحبه الشعب يتصور الناس أنه غائب أو ساذج غير فاهم، أو ناسٍ، ولو عرف هؤلاء أن أحدًا لم ينسَ من مواقفهم شيئًا، وأن شعبنا من

أذكى شعوب الأرض، وذكاؤه هو الذي يدفعه أن يترك الناس يزوِّرون ويكذبون حتى يوقعوا هم أنفسهم بأنفسهم.

ذلك الشعب الذي كان يعرف كل شيء عن رشاد وعن عصمت وعن توفيق ويعرف عن الآخرين كل شيء، وبحكمة العارف إنك قد تخدع بعض الناس كل الوقت، ولكنك أبدًا لا تستطيع أن تخدع كل الناس كل الوقت، ينتظر؛ لأنه أعزل عن كل تنظيم ومنبر وسلاح، أعزل حتى أن يحتج احتجاجًا صارخًا أو جماعيًّا، ينتظر حتى تهيئ له الظروف الشرخ في المواقف أو في جبهة الشلة الصحفية أو الاقتصادية أو السياسية، وفي أيام يوسع الشرخ حتى يتحوَّل إلى خندق يسقط فيه الذين أشبعوه كذبًا واستهتارًا واطمئنانًا كاملًا أنهم سيعيشون أبدًا.

«مولد» على أصوات النصب والدجل وإثبات الذات بإعلاء الصراخ والزئير، اتفرج واسمع هلوسات اللابسين مسوح الإمامة والوعظ، أصحاب بنوك العملات الزائفة والمنطق الغوغائي الذين دفعوا القِلة القليلة الأصيلة التي تعرف والتي لديها فعلًا ما تريد قوله وتستطيع قوله، القلة التي لا تستطيع أن تتدافع بالمناكب لتأخذ مكان الصدارة في مجالات القول والفعل، القلة التي لا تكتب، حين تكتب، لإثبات الوجود وفرض الوجود بقوة الذراع، القلة التي لا تستطيع أن تُبدي رأيها إلا برأي عام يطلبها ويستمع ويُخرس الضوضاء لكيلا يفوته حرف من كلماتها حين تتكلم، ذلك أنها لا تكتب أو تتكلم إلا ولديها ما تقوله وما ينفع الناس فعلًا، ويحل لهم أزمة أو يفتح الأذهان لرؤى تكشف الضباب وتهدي سواء السبيل.

المتزاحمون بالمناكب من كل حدب وصوب، من جامعيين يئسوا من إثبات وجودهم علمًا فلم يعد أمامهم إلا أن يصرخوا بوجودهم صحافة ومقالات، ومديرين، وكبار موظفين، وغواة كتابة متطوِّعين، وغالبية من قُراء وجدوا أن لا مانع بالمرة، ما دامت الكتابة قد أصبحت لا تُكلف إلا ورقة وقلمًا، وأي رأي يعنُّ، وفي أي موضوع، فلماذا لا يُحوِّلون أنفسهم من قُراء إلى كُتَّاب، وهل فلان أو عِلَّان أحسن منهم؟ إلى درجة تدهش لتفاهة ما يرون ويقترحون، وانظر إلى هذا الذي يدبج مقالة عريضة يطلب فيها أن يقتصر الترشيح للمجالس الشعبية على حملة الشهادات العليا، وليست الكارثة في الرأي، الكارثة في المسئول الصحفي الذي ينشره على أنه «رأي» دون أن يتصوَّر أنه نوع من الجهل الصارخ بأبسط معاني التمثيل النيابي أو الشعبي، أو هذا السفير أو المدير أو الوزير الذي يصرُّ على ذِكر لقبه «لبث الهلع في نفس القارئ» وهو وهم وما ينشرون على الناس، وفي كل جريدة أو مجلة، متناولين أي موضوع يعنُّ لهم وبمواضيع إنشائية يبدون فيها آراء عمرها ما قدَّمت

ولا أخَّرت؛ فلا شيء فيها جديد، ولا شيء غير مسبوق، وإن هو إلا تكرار لدردشات مقاهٍ روادها حتمًا لا يقرءون أو يكتبون. وهذا الذي ادعى أنه رُشِّح لجائزة دولية وقد تربَّع على عرش الإفتاء في كل زاوية من زوايا حياتنا وكأنه لم يعد مرشحًا لجائزة وإنما يمهد لترشيح نفسه رئيس حزب أو جمهورية وبطريقة تُميت القارئ الذي يتمتع بأبسط قدر من الوعي أو الاطلاع تُميته ضحكًا لضحالة وسخافة وسوقية ما يفرضه من آراء على الناس. ناس يملئون الدنيا كتابة لأنهم يتصورون أنها أسهل وأسرع طريقة لإثبات الوجود، ويتصوَّر حتى المتخصصون أن مجرد تخصصهم الأكاديمي يؤهلهم بحكم الشهادة للكتابة في فرع تخصصهم في حين أن الكتابة المتخصصة الحقيقية ليست مجرد تلخيص لرسالة دكتوراه أو بحث؛ وإنما هي رأي منفرد يخرج به الواحد منهم أو حتى يخرج به غير المتخصص على الرأي العام؛ رأي مبتكر كالاكتشاف العلمي أو الاختراع لأنه لو لم يكن كذلك لما ارتقى لمستوى الرأي ولما كان له الفاعلية الحقيقية التي يُحدثها الرأي؛ فالرأي الحقيقي هو الكتابة القادرة على تغيير رأي عام سائد ربما لنقيضه؛ أو فتح عين المجتمع على منظور لوجوده لم يكن يراه أو يتصوره قبلًا.

إن إثبات الوجود بالعمل مسألة شاقة قد تأخذ عمرًا بأكمله لحدوثها وتستدعي عملًا دءوبًا صامتًا لا يتحدث عن نفسه إلا وقد وصل إلى نتيجة تحل للوطن أو للمواطنين معضلة، ومثل الانحراف الذي حدث لمُثُلنا العليا بحيث أصبح الشِّعار هو الهدف أسهل الطرق وأسرعها لتحقيق الثروة أو المركز، حدث أيضًا هنا، بحيث تحولت الكتابة في الصحافة والإصرار على النشر هو أيضًا الوسيلة الأسرع لتحقيق المكانة وهو الحديث المكتوب، وتحقيق الذات بالنشر عن الذات، وليلة كتابة في رأيهم تُغني عن عام بحث جاد أو عمل، ولأن كمَّ الكتابة قد تضخَّم، بحيث حدث لدينا بجانب الانفجار السكاني انفجار كتابي؛ فقد أصبح التسابق هو في رفع العقيرة أكثر، ومداومة الصراخ حتى يلفت الصوت المتكرر العالي الأنظار؛ ولهذا يصبح الحق هو للأعلى حنجرة وجعجعة.

وفعلًا أصبح الضجيج هائلًا.

ومع هذا — وتلك هي الظاهرة الغريبة — فإذا تفحَّصت هذا الضجيج لا تجده يقول شيئًا بالمرة، تجده في الحقيقة صمتًا تامًّا؛ إذ الذي يُحدث الصوت في الكتابة ليس هو الصوت المرتفع ولكنه النوع الفريد أو المتميز من الأسلوب والرأي ووجهة النظر، وما دام لا تميز أو تمايز، فالموجود، رغم الضجيج الهائل، صمت موجود على هيئة ضجيج.

وإذا كان هذا هو حال المقالات والرسائل والشكاوى — ولنقف عند الشكاوى لحظة — فبريد القُراء كله شكوى، وإن تكون الشكوى من أشياء أو أوضاع تؤثر في قطاعات بأكملها من المواطنين والفئات شيء معقول، أما أن تكون الشكوى استغاثة من مواطن لهذا المحافظ أو الوزير لحل مشكلة شخصية، فمعنى هذا أن أقسام الشكاوى، وطريقة التظلُّم، وكل الموظفين دون الوزير أو المسئول، لا فائدة من وجودهم البتة، أو هم موجودون فقط لصنع نوع من موانع التسابق تحول دون المواطنين وتحقيق مطالبهم، بحيث لا يعود أمام المواطن إلا أن يجأر على صفحات الجريدة التي تصدر لتناقش قضايا الملايين، يجأر حتى يسمعه الوزير أو المسئول. والغريب أن الوزراء والمسئولين لا يجدون في هذا ما يعيب، وغالبًا ما يجيء خطاب للجريدة: إيماءً لشكوى المواطن كذا فقد أمر الوزير بكذا. ويتقبل الناس هذا بارتياح، وتُقدم الجريدة وافر الشكر في حين أن الوزير كان مفروضًا قبل أن يأمر بحل المشكلة أن يعرف ويحقق مع مرءوسيه الذين لم يحلوها، وأن يعاقبهم، وأن يرسل للجريدة بنتيجة التحقيق وما حلَّ من عقاب، ولو حدث هذا، لاختفت استغاثات المواطنين من مشاكلهم الخاصة، ولتعلَّم جهاز الوزارة أن «يحل» المشكل قبل أن يشرف صاحبه على الهلاك، ويجأر بالصوت الحيَّاني على صفحات الجرائد وكأنها انقلبت لحائط مبكى. أقول إذا كان هذا هو حال المقالات والرسائل والشكاوى، فالضجة الأكبر التي تحفل بها صحفنا وتكون «مولدًا» للكتابة منصوب يوميًّا هو الآخر، هو أخبار المؤسسات والشركات ومواقع العمل الخاصة بالعاملين، تلك التي مكانها اللوحات المعلقة داخل الموقع، بحيث لا أعرف أنا الموظف في إدارة المعاشات بهيئة كذا لا أعرف أخبار مقر عملي إلا من الجرائد العامة، ولا أعرف أنا مدير التفتيش في وزارة الري عن سياسة وزارتي — حتى الخاصة بالتفتيش — إلا من صفحات الجرائد، أخبار المصالح والهيئات، الأخبار التي نادرًا ما تهم غير العاملين فيها تحتل الصفحتين الداخليتين لكل جريدة، بينما المفروض أن تحتلها الموضوعات التي تهم المواطنين العاديين المتعاملين مع تلك الهيئات والخاصة بالعمل والإنتاج وسياسة العمل والإنتاج وما تم فيها وما سوف يتم ومتى، ولكنه «مولد» أخبار، بلا أخبار، ومانشتات أخبار وعناوين عريضة هي في حقيقتها دعامة لما ينتويه هذا المسئول أو ذاك وهذه الهيئة أو تلك، أخبار عما «سوف» يتم وليس أبدًا عمَّا «تم».

أما المولد الحياني حقًّا فهو مولد الرياضة، بإحصائية بسيطة تنشر صحافتنا حوالي مائة صفحة كاملة للرياضة كل أسبوع؛ أي بمعدل حوالي ١٢٠٠ صفحة وأكثر كل شهر

١٢٠٠ صفحة منها لا أقل عن ١١٠٠ صفحة لكرة القدم وحدها، حتى إن بعض الصفحات الرياضية لا تكتفي بوصف واحد تفصيلي لمباراة كرة القدم الواحدة وإنما هي تقدم أحيانًا وصفًا يقوم به مسئول الباب ووصفين آخرين لمحررين، ناهيك عن التعليق، والمفارقات التي يتولَّاها محرر ثالث، وحديث مُفصَّل لكل حركة قدمها هذا اللاعب أو ذاك بحيث إن الجمهور يعرف كل كبيرة وصغيرة عن أحدث لاعب في أي نادٍ، إذا «شاط» شوطة جيدة أصبحت الشوطة مانشيت وحديث المدينة، وأي «أوف سايد» ممكن أن يتحول إلى صراع حول مشروعيته أو ربما أقيمت قضية أمام المحكمة الدستورية العليا للنظر فيه، صراع قد يستمر أسبوعًا وربما موسمًا بأكمله، والمضحك أن هذه الكتابات كلها ليست عن أشياء مجهولة من القراء وإنما عن أشياء كل الناس رأتها ولاحظتها ولا جديد فيها، عن مباراة أو «لعبة»، وليست عن اجتماع لهيئة كبار العلماء و«النتيجة» أننا نحيا في «مولد» كلام عن الكورة، بينما اللعب نفسه، ومعظم المباريات أكاد أقسم، وبالمقارنة إلى المباريات الأجنبية أو حتى معلوماتي العامة جدًّا عن لعب الكرة أنها لا تستحق حتى مجرد التنويه، «مولد» لا يناقش فيه أحد خطة الفريق وأداءه وإنما هي كلها مناقشات لأداء كل فرد في الفريق بحيث هدمَ هذا المولد الكتابي جماعية اللعبة تمامًا، وأصبح همُّ كل لاعب أن ينفرد بلفت الأنظار لمهارته الخاصة «مولد» منصوب من سنوات، لو كان له أية فاعلية، لحوَّل الكرة في مصر إلى علم لا يجارينا فيه أحد. إنه لجنون مُطبق. في مجلة مصورة مصرية محترمة أحصيتُ مرة عشر صفحات بأكملها تتحدث عن مباراة واحدة لم أستطع شخصيًّا ولفرط ضحالة مستواها أن أكمل التفرج عليها.

ومولد آخر — أخبار الفن والفنانات — يصل إلى درجة أن خبر مرض نجم فما بالك نجمة، بالإنفلونزا حتى دون أن يكون لهذا المرض أية علاقة بتأجيل تصوير أو فتح الستار عن ليلة عرض، أي تأثير أو علاقة. «مولد» تُحشى فيه أدمغة الشبان والفتيات بترهات فارغة عن أتفه أخبار الفن وعن أتفه ما في حياة الممثل أو الممثلة من أحداث، ولا تجد فيه رأيًا موضوعيًّا واحدًا يضع يد النجم الصاعد أو النجمة على مواطن القوة في العرض أو الفيلم، ولا عن مواطن الضعف وإنما التعبيرات تتوالى: كان فلان كعادته عملاقًا، أما فلان فقد كان أكثر من عبقري (بربكم هل هناك مرتبة للقدرة البشرية تسمى أكثر من عبقري إلا مرتبة الألوهية) يغوص خنجر حاد داخل ضلوعي وأنا في الولايات المتحدة مضطر للبقاء بجوار ابني في المستشفى، وتأتيني الجرائد المصرية والمجلات التي صدرت خلال خمسة عشر

يومًا، يغوص خنجر وأخجل أني كاتب، وأن الصحف لبلادي فأقسم غير حانث أن كم الكتابة الذي وجدته يناقش الفرق بين فوازير نيلي وفوازير سمير غانم، ومحاولات من كتبوها لتحليل ذلك الحدث الخطير، كان يطغى تمامًا على اجتياح لبنان وانفعال الكاتبين بها، وكانت الصحافة الأمريكية تغلي فعلًا لا مجازًا بكنه وصدى ووصف المذبحة الرهيبة الحادثة «للمسلمين» اللبنانيين والفلسطينيين بينها الكُتَّاب الصحفيين المسلمين في مصر مشغولون بتفاصيل برامج الإذاعة والتليفزيون وياميش رمضان وحتى الصفحات الدينية — في عز المعمعة — تناقش هل صيام المسافر بالطائرة يوجب الإفطار، أو هل الحقن الشرجية تفطر. كلام وعظات وكأنها أول مرة يصومها المسلمون أو أن الصائمين في حاجة — لا يزالون — لتبيان فضائل الصيام، وأعداؤنا يذبحون ويُنكِّلون بنساء المسلمين وأعراض المسلمين.

الفوازير أصبحت أهم من المجازر، والمجازر يزأر لها الضمير المسيحي والبوذي، بل واليهودي ويتظاهرون ضدها في واشنطن، والعالم بملحديه حتى يتأجج غضبًا، وصحفنا مليئة بدوشة الطقوس الرمضانية الفاطمية والمقارنة بين إذاعات الشرق الأوسط والبرنامج العام وأي المسلسلات «أنقح» والقضية الكبرى هي: هل الأفضل الفصل بين القنوات في وقت البرامج المسلية عقب الإفطار أم أن الإدماج كان الأحسن. وصحف ومجلات القاهرة في شهور مايو ويونيو ويوليو موجودة وارجعوا لها. مولد كتابة.

مولد صاخب تاهت فيه القيم والحقائق، وكثرت الأبواب، واشتدت سواعد وحناجر القائمين عليها، وفي الازدحام لا يلحظ أحد تبادل المنافع وشيلني وأشيلك، وشبه الملكية المطلقة لكل من استحوذ بطريقة في الغالب غير مشروعة على مزرعة كتابية مسوَّرة ومكهربة السور يديرها لحسابه الخاص، وأشياء أخرى كثيرة لا بد أن نتداركها قبل تفجر المواسير القيمية والمعنوية، ولأن هذا ليس نقدًا لصحافتنا، ولا حتى مشروعًا لنقد، وإنما هو مجرد رصد للجو الكتابي والصحفي الزاعق بلا معنًى، الصاخب بلا صوت، المزدحم بلا تفرد، فإني إنما تعرضت لهذا الجو فقط من أجل أن أذكر أن باستطاعة هذا الكم الهائل الطاغي على الكيف أن تتوه فيه المواضيع القليلة البالغة الأهمية، ما دامت المواضيع كلها قد أصبحت عند العرب صابون.

ولقد كنت أذكر انطباعاتي عن الأشهر القليلة التي قضيتها «أقرأ» ما يُكتب وأتأمله، ولكي أكون منصفًا فإني لم أخرج بقراءتي صِفر اليدين؛ فوسط حلقات الذكر والهلوسة

والصراخ والعويل، وسط القُراء الذين يضجون كتابة، والكتابة التي تضجُّ استسهالًا قرأت مواضيع قليلة جدًّا، المؤلم أنها ضاعت تمامًا من معظم القراء، كالإبر الماسية التي لا بد تخفيها أكوام القش، أحدها ذلك الذي قرأته منذ أيام وقد كُتب بتركيز شديد، ورغم تخصص صاحبه وكفاءته العالمية، فقد أبت عليه غيرته المصرية إلا أن يطوع خبرته لخدمة واقعنا ويناقش أهم مشكلة تواجهنا، مشكلة تحولنا إلى مجتمع انتابته لوثة استهلاكية تهدد بتوقف كل مظاهر الإنتاج فيه. والجميل في الموضوع، والمفروض إذا كان قد ضاع اسم كاتبه وعنوانه الذي كُتب ببنط كالإبرة وسط أكوام القش، الجميل أنه ترك جانبًا طريقة المتحاذقين في تناول مشاكل حياتنا والذين يستنتجون بعد طول استعراض وتمحيص أن لا مخرج لنا سوى زيادة الإنتاج، وكأنه بهذا الاستنتاج الذي طرحه الرئيس حسني مبارك كقضية هامة، عنوان قضية هامة بالأصح، وترك للآراء وللجهابذة مهمة العثور على السبب والحل، الجميل أنه — كاتب المقالة — ترك المقارنات التي نعقدها بين المجتمعات الأمريكية والأوروبية وبين مجتمعنا، وضرب مثلًا بمجتمع من العالم الثالث مثلنا، كوريا الجنوبية. والحق أن الأرقام التي ذكرها أذهلتني؛ فقد قال إن معدل التنمية في كوريا وصل خلال العام الماضي إلى ٤٥,٨٪ وإذا عرفنا أن معدلات التنمية في أعظم المجتمعات الغربية إنتاجًا وقدرة على الإنتاج لم تصل أبدًا إلى العشرين في المائة، فإن هذا الرقم لكوريا يعتبر معجزة فريدة، ومن دولة ليس لديها فائض أموال، ولا نقود بترول، ولا تملك إلا سواعد أبنائها. ٤٥,٨٪ بينما معدلنا نحن لا يزيد على ٨ إلى ٩ في المائة، يستهلك الدعم أي الاستهلاك حصيلتها، والحصيلة الباقية يبتلعها تمامًا الانفجار السكاني بحيث إن الأرقام الواقعية لمعدل التنمية لا تتجاوز الخمسة أو أقل في المائة. وذكر أيضًا أن حصيلة صادرات هذه الدولة الصغيرة، الصغيرة تمامًا من المواد الخام والخبرة التكنولوجية بلغت في العام الماضي ستة عشر مليار دولار؛ أي أنها صدَّرت ما يغطي كل ديون مصر الخارجية في عام واحد، وأن خطتها للتصدير تشمل السيارات والآلات والأدوات الكهربائية والملابس بينما صادرتنا نحن (قطاع خاص وعام وكله) لا تتجاوز المليارين وكلها منتجات زراعية أقل القليل منها هو المصنَّع.

أما المذهل حقًّا، فهو أن هذه الدولة تُزمع رفع صادراتها هذا العام إلى رقم يعادل معدل التنمية التي هي أخطر بكثير من مجرد زيادة الدخل القومي، فزيادة معدل التنمية تعني زيادة الطاقة الإنتاجية المتطورة أي زيادة المصانع وأدوات الإنتاج. والمهارات البشرية في حين أن زيادة الدخل القومي قد تحدث لأسباب لا علاقة لها بزيادة القدرة الإنتاجية للبلاد.

ويا لروعة أن أقرأ لهذا الخبير المصري العالمي، أن في نية كوريا الجنوبية أن تُصدِّر لعب أطفال بما قيمته مليار دولار هذا العام.

كوريا الجنوبية تلك كانت في عام ١٩٥٠م مخرَّبة تمامًا وكان وضع مصر الاقتصادي بالنسبة إليها يكاد يعادل وضع أمريكا بالنسبة إلى دول العالم الثالث.

ولست أنوي — ولا معلومات كافية لديَّ — أن أعرض لِكُنْه الطريقة التي حققت وتحقق بها كوريا ومعظم دول آسيا هذا، ولكني متأكد أنه رغم التخلف التكنولوجي ومحدودية رأس المال، فسرُّ الإنتاجية الآسيوية الهائلة كامن في قدرة المجتمع على إحالة نفسه إلى مجتمع منتج، وهو عكس ما ظللنا طويلًا نتصور أن القاعدة الصناعية أو الإنتاجية هي رأس مال وآلات وصناعات ومواد خام. هم اكتشفوا أن القاعدة الأولى شعب يعمل أولًا ويخلق نظام عمل يحقق أعلى مستوًى للإنتاجية، وبهذا الشعب المنظم على هيئة مجموعات بشرية منتجة تبني القاعدة الآلية وتستخرج المواد الخام، وتطور الصناعة والزراعة وبالتالي يقفز الإنتاج القومي.

وأكاد أجزم أن المشكلة الرئيسية التي تهوي بإنتاجنا إلى الحضيض راجعة إلى أننا نفكر في إقامة المشاريع والصناعات قبل تفكيرنا فيمن سيعملون في هذه المشاريع، وأولًا في كيف يعملون، وينتجون، ليس على أساس فردي، أو نظام إداري هرمي وإنما على أساس نظام استبدال العامل الفرد الواحد، والفترة الواحدة، بمجموعة عاملة منسجمة ومنتجة.

لأن هذا ليس الموضوع الذي بدأته وأريد أن أنهيه فأستسمح القارئ إلى أن أعود مرة أخرى إلى «مولد» الكتابة، فما ذكرت هذا الموضوع إلا لأوضح كيف أن الضجة الكتابية العالية الصوت المعدومة النتيجة ممكن أن تُضيع أهم المفاتيح والمواضيع التي بدونها تمتلئ حياتنا هي الأخرى بالضجيج، وتنعدم أيضًا فاعليتها.

إن الصحافة والإعلام والكتاب والكلمة والأجهزة التي تتعامل بها ومعها هي بمثابة الجهاز العصبي والمخ الذي يستقبل مؤشرات الواقع وتتفاعل داخله ثم يُعيد يرسلها أوامر وأفكارًا يتحرك على أثرها المجتمع، ويوجد، ويحل كل مشاكل يومه وغده بل ويحلم ويستمتع، ويحقق الحياة الجديرة بأذكى وأكثر الكائنات حساسية على سطح الأرض. والكتابة كمولد، ومولد الكتابة، وفوضى الإرسال والاستقبال، أضاع منا صحافة وأعلامًا دور العقل، ولهذا، في حلِّنا لمشاكلنا نحن نتحرك كعضلات وإجراءات بوليسية، وردود أفعال.

وإذا كنت قد أنهيت منذ بضعة أشهر سلسلة مقالات عن فقرنا الفكري وتفكيرنا الفقير، فلقد اكتشفت، حين حولت نفسي وحولتني الظروف لقارئ ومستهلك، إننا لسنا كأفراد أو حتى كمجتمع فقراء فكر أو مفكرين فقراء إنما المرض سببه وعَرضه الرئيسي هو خلل في عقلنا الإعلامي والصحفي، الذي بازدحامه يمنعنا من أن نرى، أو يربك أنظارنا بحيث يتوه منا الطيب من الخبيث، وبضجيجه، إذا رأينا وأدركنا، أن ننظم إدراكنا ونمنطقه، وبتحولنا جميعًا إلى كُتاب ومرسلين، أجبرنا خلايا الإرسال المتخصصة والقادرة أن تقوم بعملها وترسل الحل أو تعثر على المفتاح أو على الأقل تميز بين المهم فالأقل أهمية، أن تحتجب.

أو إذا زمجرت بعض الأصوات تحتج فأتحدى أحدها أن يمسك بجريدة اليوم ويعرف له أو لها رأسًا من رِجلين، أو يتفق اثنان من قرائها على أهم خبر أو موضوع نشرته اليوم.

وإذا خرج قارئ واحد، من هذا المقال الطويل، بالحقيقة الواحدة البسيطة التي خرجتُ بها من أكوام وأكوام ما قرأته طوال أسابيع، حقيقة أننا لا نُنتج لأننا «نتسابق» أو نريد التسابق إنتاجًا، في حين أن الوسيلة الوحيدة لكي ننتج هي أن نسكت على الضجيج الحادث حول مشاكلنا ونركز على نقطة أولى، أول وأهم وأخطر نقطة، كي ننتج كمجتمع، ونفكر معًا كجماعة، ونوقف سباق الإنتاج المزعوم ونبدأ نؤمن بقانون الحياة في الجسد الذي وزَّع مهام بقائه ووجوده ليتكون منه «كل» منتج تكمل الأمعاء فيه إنتاج المعدة، وكرات الدم الحمراء دور الرئتين.

وإيقاف مولد الكتابة وإحالة الصحافة إلى وسيلة تفكير عميق منظم، وليس حائط مبكى أو سوق عكاظ، هو الخطوة الأولى لجعل الجهاز العصبي والعقلي في المجتمع يبدأ يفكر ويعهد لكل جهاز بعمله، ويعلم كل خلايا جهاز أن تعمل معًا، بلا مفتش لعموم إدارة الكبد، أو مدير هيئة يأمر مدير قطاع، يأمر مدير قسم، يأمر مدير جهاز يأمر عامل نظافة أن يمسك بالمقشة وإلا رفع ملاحظه شكوى لكبير الملاحظين للمهندس المختص، لرئيس الحي، ولمدير التنظيم للمحافظة لوزير الحكم المحلي لرئيس الوزراء لكي يضطر رئيس الجمهورية أن يذهب بنفسه ليوقف التسمم الجاري في أحد شوارع القاهرة.

نظام العمل في مصر هو أيضًا مولد؛ لأن صاحبه غائب، ترك العمل، وتحول إلى كاتب وانضم إلى مواكب الطرق غير الصوفية في مولد الكتابة في بلادنا.

ومولد الكاتبين أيضًا

تقريبًا، وبطريقة أو بأخرى، أطَّلع يوميًّا على كل ما يصدر في العالم من جرائد بالإنجليزية وأحيانًا الفرنسية ومعظم الجرائد العربية. والمثل القائل بأن صحافة أي بلد هي مرآة لهذا البلد أو ذاك، لا تحسه قدر ما تحسه إذا أتيح لك أن تقارن بين ما يصدر في كل بلد من صحف وبين ما يصدر في أي بلد آخر، فمن قراءة أية صحيفة أستطيع أن أعرف بالضبط نوع الحكومات القائمة في هذا البلد أو ذاك، ومدى الديمقراطية والحرية التي لا يتمتع بها الصحفيون والكُتاب وحدهم ولكن الفرد العادي، بل يستطيع الإنسان من مجرد قراءة صحيفةٍ ما أن يحكم على كم التحضُّر أو التأخُّر في كافة المجالات، وبالذات مجالها الثقافي.

وثمة ظاهرةٌ لا بد أن تلحظها على الفور إذا أردتَ أن تقارن بين الصحف العربية والأجنبية؛ ظاهرةُ عددِ الكُتاب والذين يكتبون هنا ويكتبون هناك، في الصحف الغربية لا تكاد تعثر إلا على مقالة واحدة أو مقالتين ممهورتين بإمضاء كاتب، وبقية المواضيع عبارة عن تحقيقات صحفية خطيرة وعميقة وتحليلات في كثير من الأحيان غير ممضاة، لا تجد أبدًا رئيس تحرير «الواشنطن بوست» أو «التايمز» وقد صنع من صفحة الجريدة الأولى كرسي عرش يجلس سيادته عليه متربعًا «نافش الريش» جامعًا مقالته بأكبر الأبناط، ثم تقلب في الصحيفة فتجد أنها حافلة بما لا يقل عن نصف مليون قصيدة شعر، أو مقالات «بقلم» فلان أو عِلَّان، ولا بد تحت أو فوق «بقلم» من صورة لسيادته. مقالات مقالات، وقصائد وقصائد، وقصص وقصص، حتى إني أحصيت في يوم واحد عددَ القصائد والقصص والمقالات التي نُشِرت في يوم عادي واحد من أيام الأسبوع في العالم العربي كله، فوجدت أنها بالضبط خمسون قصة قصيرة ومائة وثلاثون قصيدة شعر وأكثر من أربعمائة مقالة ممضية، وهو رقم يعادل بالضبط ما تنشره كل صحف أوروبا ومجلاتها بلغاتها العشرين أو الثلاثين في شهر وربما أكثر.

بالضبط، كما يعتنون في أوروبا بضبط النسل للتفرُّغ للعناية بكل إنسان فرد، فإننا نعتني في صحافتنا وإذاعتنا وتليفزيوناتنا بانفجار قلمي رهيب، وحمدًا لله أن الانفجار القلمي ليس له مشاكل الانفجار السكاني، وإلا لَكان العالم العربي قد خرب من زمن رغم ما يحفل به من أموال. بالعكس، الانفجار القلمي علامة صحة، وأي انفلات في التعبير علامة صحة؛ ذلك أننا عانينا ولا نزال نعاني من كبت لحريات التعبير وعلى رأسها حرية الكتابة. ومعنى وجود هذا الكم الهائل من «الإنتاج» الكتابي أن حرية التعبير في عالمنا العربي قائمة والحمد لله على قدم وساق، ولكن المشكلة أنها قائمة على أربع أقدام وأربع سيقان، فحرية التعبير حق لكل إنسان هذا صحيح، ولكن الحق يصبح باطلًا بل ظالمًا إذا جار على حق غيره، وأن «تعبِّر» بإنتاجك الأدبي في جريدة سيارة تعبيرًا يظلمني أنا كقارئ هو عدوان صارخ، ليس على مواطن واحد فقط، وإنما عشرات وأحيانًا مئات الآلاف من المواطنين.

والمشكلة أننا شعب عربي مؤدب لا يستطيع أن يجرح أحدًا، هناك في الغرب إذا لم يعجبهم سياسة وزير قذفوه بالطماطم والبيض الفاسد، وإذا لم يعجبهم شِعر نشرته جريدة وجد «الشاعر» مَن يقول له: قف، رحمةً بنا وبالشعر أو بالقصة أو بالمقالة.

والمشكلة أيضًا أننا لدينا هذا الكمُّ من الإنتاج الفني رغم أن كمَّ الأوكسيجين الديمقراطي المتواجد في جوِّنا العربي قليل قليل، بحيث إن هذا العدد الرهيب من الأعمال في النهاية يكاد بالمرة لا يقول شيئًا؛ فالكتابة عند كل العالم وكانت كذلك عندنا إلى عهد قريب (قبل هذا الانفجار الصحفي الكتابي) سلاحٌ رهيب بالضبط في قوة وفعالية السلاح النووي؛ إذ المفروض أن يكون له قوة وفعالية السلاح النووي. في الخارج ممكن أن تؤدي مقالة مكتوبة حقًّا وحافلة برأي حقيقي ومكتوبة بحرية تامة، ممكن أن تؤدي مقالة واحدة إلى استقالة وزارة، بل إني شهدت مرة وأنا في لندن استقالة نائب حزب العمال البريطاني تأثرًا بحديث تليفزيوني أُذيع في الليلة السابقة مع الكاتب الروسي المنشقِّ سولجينتسين. ذلك أن الحديث التليفزيوني ليس أي كلام يُقال، والمقالة والقصيدة والقصة ليست أي كلام يُكتب؛ فالكلام البشري اكتشاف إنساني رهيب استطاع الإنسان بواسطته أن يرتقي من حياة الغابة البدائية إلى ما نحن فيه الآن. وكتاب واحد ﻛ «كوخ العم توم» استطاع أن يؤدي إلى ثورة الزنوج في أمريكا، و«مذكرات شي جيفارا» خلقت ثورة مسلَّحة في أمريكا اللاتينية اشتعلت ولا تزال مشتعلة إلى الآن، بل إنني في صدر شبابي شهدت ما أسميه الآن

ثورة ٤٦ في مصر، وكانت الشرارة التي سبَّبت كلَّ ما صنعناه من حريقٍ بيتَ شعرٍ واحدًا للشاعر التونسي أبو القاسم الشابي، والذي يقول فيه:

إذا الشعب يومًا أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

بل إننا في نكسة ٦٧ لم نجد ما نتوكَّأ عليه كشعب، ويقود خطانا خلال حرب الاستنزاف وأثناء حرب ٧٣ سوى نشيد:

بــلادي بــلادي لك حبي وفؤادي

وليس من أجل الكلمات الساذجة قادنا النشيد، ولكن موسيقاه هي التي أشعلت منا الصدور.

الفن إذن، والكتابة إذن، ليست لعبة، ولكنها كما قلت سلاح رهيب أزعم أنه أكثر فعاليةً من السلاح النووي؛ لأنه لا يدمِّر الإنسان ولكنه يبنيه، ويبنيه قويًّا رائعًا مشحونًا بقوى الحق والخير والجمال.

ولو كان واحد على ألف من الشعر العربي الذي نُشِر خلال العشرين سنة الماضية له فعالية لَحُلَّت مشكلة الشرق الأوسط من زمن، وحُلَّت كل مشاكلنا الاجتماعية والثقافية والسياسية.

ولهذا أكتب الآن أنقد هذا الوضع.

فأنا حقيقة أفرح بهذا الكم الهائل الوافر من الإنتاج الأدبي، ولكني في نفس الوقت أحزن، ذلك أن المثل القائل: «إن الطلقة التي لا تُصيب تدوش.» أيْ تسبب ضجيجًا يُخيف العدو، ينطبق تمامًا هنا، ولكن بعكس ما أراده قائل المثل؛ إذ إن الضجيج يُصيبنا نحن ويخيفنا من الأدب والفن كله، ذلك أنه فوق ما يسببه لنا من صداع و«دوشة» يطغى صوته العالي القبيح ويحجب عنا الفن القليل الحقيقي الموجود في عالمنا العربي، ذلك أن الفن الحقيقي دائمًا خافت الصوت لا يكاد يُسمَع؛ إذ المقصود به أن يتسلل إلى الوجدان مهموسًا بحيث يُحدث الانفجار في الداخل، إنه مثل مدارس التمثيل الحديثة لا يزعق فيها الممثل كما يحدث في مسلسلاتنا التليفزيونية ويقول: ويحك يا جعفر، زعيقًا يُحدِث قنبلة صوتية تنفجر عند فم الممثل ولا تصل أبدًا إلى أعماقنا، بينما «هاملت» مثلًا، لا

يقول ويحك أبدًا ولكنه يهمس لنفسه: أكون أو لا أكون، ذلك هو السؤال. ويصل الهمس، وإذا بأعماقنا نحن يتفجر فيها السؤال كالقنبلة ونتساءل: أكائنون نحن أم غير كائنين؟ ويتحول الانفجار إلى بركان يتفجر بنا وفينا لأننا ندرك أننا فعلًا غير كائنين، ولكننا على الفور نثور على أنفسنا ونتحدى الوجود وننشب أظافرنا في عنقه إثباتًا لوجودنا حتى لو هلكنا دونه.

الكتابة الحقيقية إذن مادة ساحرة، رموز غريبة تتشكل من نفس الكلمات التي نستعملها في حياتنا اليومية ونفس المفردات، ولكن وجدان الكاتب يرتبها بنفس تراكم وتعقيد جزيئات الأحماض الأمينية التي تصنع الحياة من نفس ذرات الجماد وجزيئاته، رموز غريبة يخاطب بها وجدانُ الكاتب وجدانَ القارئ، فيستجيب له وجدانُ الملايين وفي كل العصور، ولهذا ما زلنا نردِّد أشعار «امرؤ القيس»، ونمثِّل مسرحيات «أسخيليوس»، و«مناجاة الفلاح الفصيح» الذي يطلب العدل لا تزال حية بعد خمسة آلاف عام من تأليفها.

«الدوشة» التي يصنعها الكمُّ الوافر من الإنتاج النيء أحيانًا، القبيح أحيانًا أخرى، الذي كان على صاحبه أن يصبر عليه قليلًا لينضج وتتفاعل عناصره، لتصل إلى التشكيل الرمزي، السحر الذي يؤثر في وجدان القارئ؛ هذه «الدوشة» يضيع في وسطها تمامًا أي كلام حقيقي خافت بالضرورة، ويقال إن في العراق الآن ما لا يقل عن العشرة آلاف شاعر، بينما حركة الشعر الحديث كلها بدأت في العراق بثلاثة أو أربعة شعراء، في بيروت ما لا يقل عن خمسة آلاف كاتبة، بينما بدأت حركة كتابة المرأة الحديثة بـ «أيام معه»، وبليلى عسيران، وليلى بعلبكي، ثم بالغادة الرائعة السمان، وفي القاهرة وفي مسابقة للقصة القصيرة تقدَّم لها ثلاثة آلاف كاتب ناشئ.

هذا رائع وناهض وجميل، ولكن المشكلة تبقى أن كلًّا من هؤلاء ما دام يكتب فقد أصبح من حقه في التو والحال أن ينشر ولا تستطيع أن تجادل في هذا؛ إذ هو يعتقد في قرارة نفسه أن ما يكتبه هو أعظم بكثير من كل ما يُنشر، وأنهم لا ينشرون له لأنهم خائفون منه ومن بلاغته التي حتمًا سيصبح بها طه حسين لو أُتيح، لو — فقط — أُتيح له النشر. وبالإلحاح دائمًا ما ينجح، وهكذا وبالوساطة أحيانًا، وبالخجل من المواجهة؛ إذ ليس أصعب من أن نقول لحامل قصة أو قصيدة ربع كلمة نقد، ولقد لاحظتُ بحكم خبرتي، وقد تصدَّيت لتشجيع كل الكُتاب الجدد، أنه كلما كانت موهبة الناشئ أصيلة

كانت ثقته في عمله أقل، وكلما كانت موهبته شاحبة أو غير موجودة، كان مستحيلًا إقناعه أن بكتابته عيبًا واحدًا.

«الدوشة» إذن تطغى على الجيد، وتطرد العملةُ الزاعقة العملةَ الأصيلة خافتة أو تجعلها لا تسمع، والنتيجة أن آلافًا من قصائد الشعر نُشِرت ولم نحظَ إلا ربما بشاعر أو بشاعرَين ومئات الآلاف من المقالات كُتِبت ومع هذا يكاد عالمنا العربي كله لا يوجد به كاتب مقالة حقيقي، كتابةُ المقال فنٌّ من أصعب أنواع الفنون، أقصد الكتابة الحقة، أمَّا ما نقرؤه باعتبار أنه مقالات فهي كتابةُ كلامٍ أو كلامُ كتابة، صاحبها لم يصل إلى الرموز العقلانية والمعادلات المنطقية التي يُقنَع بها «كلُّ» مَن يقرأ مقاله. في الحقيقة نحن فعلًا «نتكلم» مقالات، ونتكلم شعرًا أو قصة؛ لأن الكتابة — هكذا نعتقد — لا تحتاج إلى مؤهل إلا أن يكون لديك قلم وورقة، أما إذا كان عليك — لتكون موسيقارًا ومؤلف موسيقى — أن تدرس عشرين عامًا، وربما أيضًا لا تصل، فسوف يتقلص هذا العدد الرهيب من الفنانين إلى رقم لا يتعدَّى الخمسة أو الستة، وهو بالضبط عدد مَن يؤلفون «موسيقى» في عالمنا العربي.

أيكون السبب أن كل جريدة ومجلة لا بد أن تحتوي يوميًّا على صفحة أدب؟

مَن وضع هذا التقليد وما فائدته إذا كان في معظم الأحيان لا تحفل به الغالبية العظمى من القرَّاء؟

ألم يئن الأوان — وقد ازدحمنا بالكم — أن نبدأ في البحث عن الكيف، وفعلًا لا نُصدِر إلا العملَ الجدير بالنشر؟

ولكن أين هو الفأر الجريء الذي يُعلِّق الجرس في رقبة القط؟

وأين هو الناقد الذي يجرؤ أن يفقد ناخبيه من راغبي النشر والحالمين بشُهرة؟

أين هو الناقد الذي يقيس العمل بفعاليته ويعرِّف راغبي الكتابة بمسئولية الكلمة؛ إذ لو عرفوها لَاختفى عن النشر كلُّ بريق وتبدَّت للعيان ضريبةُ العمر التي على مَن يتصدَّى للكتابة أن يدفعها؟

وأين لنا من عصر يصل بكاتب ككافكا إلى حدِّ عدم الثقة فيما يكتب، إلى درجة أن يحرق معظم إنتاجه؟ عصر الخجل مما يحسه الكاتب من نقص في أدواته وقدراته، أين هو من عصر أصبح الناشئ فيه حتى يتباهى بقصور أدواته ويعتبر قصوره «مدرسة» جديدة في الكتابة؟

والغريب أننا جميعًا نخجل كلنا من «دون كيشوتات» الكتابة هؤلاء ونشجعهم وننشر لهم وأعترف، ها أنا ذا أعترف أني لو قُطِّعت إربًا فلن أجرؤ على أن أواجه إنسانًا جاءني يسعى وملء إبطه كتابٌ وأقول له: يا بني، ابحث لك عن مهنة أخرى.

إن ما يعز في نفسي أن هذا الازدحام الشديد يجعل الكُتاب والشعراء الموهوبين فعلًا يُحجِمون عن التزاحم ويأنفون من الاشتراك في الضجة، وبهذا نفقد الحقيقيين ولا نكسب حتى الزائفين؛ إذ هم الذين يملئون الدنيا ضجيجًا بعد هذا أنهم مظلومون، ولا يكتفون بقصيدة — إذ لا بد من دواوين — وبلقب شاعر، ولا بد من أمير الشعراء، أو على الأقل عميد الأدب.

أليست كارثة بالله؟!

ليس — وحياتك — أي كلام

حين أراد الله سبحانه أن يرفع من قدر الحياة ويسمو بها فوق كل حيوات الأرض ومكوناتها، أنطقها، وهكذا تكلَّم الإنسان. وحين أراد الله سبحانه أن يُعلِي من شأن كلمة الإنسان ويصل بها لتصبح رسالة الحق والصدق، قال على لسان جبريله لخاتم رُسله: اقرأ.

وفي الإنجيل جاء: في البدء كان (أي الله سبحانه) الكلمة.

ذلك أن الكلام جاء ليصنع من الجنس البشري الموزَّع خلايا ونحلًا في شقوق الأرض وبحارها وهضابها وجزرها، يصنع منه كله جنسًا أرقي، أرقى بكثير من مجرد انتمائه للأرض بحُكم أنه من الطين وإلى الطين يعود، وانتمائه للحياة بحكم أنه كائن حي، وفعلًا ولولا الكلام، ولولا أن الإنسان بالكلام طوَّر فكره، وبالفكر والكلام المكتوب طوَّر عمله وذاته ووجوده، لولا هذا لكنا ما زلنا تلك الكائنات الغابية أو الصحراوية أو الجبلية البدائية، ولَمَا وصلنا أبدًا إلى ما وصلنا إليه.

وأعتقد أن من باب لزوم ما لا يلزم أن نسترسل في إضفاء الصفات على نعمة الكلام، فما أريد أن أجذب الانتباه له بشدة هنا هو أهمية الكلام. ولا أريد هذا إلا لكمِّ الرُّخْص الشديد الذي أصبح عليه الكلام — مقالًا أو مكتوبًا — في بلادنا، بحيث درج الناس على وصفهم لما كنا نسمِّيه «كلشنكان» قولهم «أي كلام»؛ قلت له «أي كلام»، وقمت بالعمل «أي كلام». ولماذا تذهب إلى الشغل؟ والإجابة هزَّة من الأكتاف وكلمة «أهو كلام»، أو «يا سيدي، أي كلام».

والظاهر أنها مسألة قومية؛ فهي ليست خاصية مصرية فقط، ولكنها تكاد تكون خاصية عربية. في ليالي الشتاء الطويلة، وأمام مضارب الخيام كانت تنعقد، ولا زالت،

مجالس الكلام، وفلان «جال»، وفلان «عاد»، وفلان «زاد». كلام، كلام كثير كثير، أغلبه بلا رصيد إلا قدرة المتحدث العضلية واللسانية على الكلام.

ولهذا شيئًا فشيئًا، بدأت تنفصل عندنا خاصية الكلام عن خاصية الفعل، في حين أنهما أصلٌ واحد، وكلٌّ واحد، أبدًا لا يمكن أن يتجزأ؛ فالإنسان مفروض أنه يظل «يفعل» ويفعل حتى يصل إلى مرحلة لا يعبِّر فيها الفعل (المجسَّد غالبًا في العمل) عن وجوده، وحينذاك فقط يُكمِل تعبيره عن الفعل بالكلام، أو بمعنى أدق بفعل الكلام؛ فالكلام في الأصل ليس بديلًا عن الفعل، ولا يمكن أن يكون أبدًا بديلًا عن الفعل، الكلام البشري هو فعل، عمل، يعبِّر عن نفسه بالكلمات، بل هو عمل أسمى من العمل الروتيني أو اليدوي، شرط أن يكون عملًا. وحين أكرم الله الإنسان وأنطَقَه، لم يفعل هذا لينطلق حرًّا بعيدًا عن صعوبة الوجود، وتحرُّرًا من «الفعل» و«العمل» اللازم للوجود، وإنما فعل سبحانه ذلك ليعطيه سلاحًا أقدر وأقوى على «الفعل» و«العمل» و«التفكير».

قلت: شيئًا فشيئًا، بدأ الكلام عندنا ينفصل عن الفعل، ويصبح لا رصيد له من العمل، هدفًا في حد ذاته، وهذا هو أرخص وأحط أنواع الكلام، ذلك الذي لا يكلِّف قائله إلا أن يقوله، فقط يقوله، وتتحرك به عضلات فكَّيْه وحنجرته ولسانه، أما أن يكون معبِّرًا عن موقف حقيقي، أو رأي حقيقي قد يُكلِّف قائله ما لا تُحمَد عقباه؛ فهو ذلك النوع من الكلام الذي له رصيد من الفعل، والذي أخذنا شيئًا فشيئًا نتجنَّبه؛ لأنه غالٍ جدًّا، ومكلِّف تمامًا، أحيانًا يكلِّفنا حياتَنا نفسها، أو سعادةَ أقربِ الناس إلينا.

وهكذا — بانخفاض الرصيد من الأفعال — رخص الكلام تمامًا، حتى انعدمت قيمته.

بل وبدأ الكلام، أروع خاصية تحلَّى بها الإنسان، يصبح وسيلةً للكذب (أي الفعل بالسلب، جريمة الفعل)، وللتضليل، وللخداع، ليس للتعبير عن الذات أو الرأي، وإنما لإخفاء الذات وإخفاء الرأي الحقيقي المكلِّف.

ومن هنا بدأت «التجارة» في الكلام، الكلام المقال، والكلام المكتوب.

وفجأةً وجدنا أنفسنا في عصر رهيب حديث.

نمتلك أعظم طاقات الأرض، وأغنى أنواع الإنسان، والعالم كله من حولنا يفعل ونحن «نتكلم»، وحياتك وفعلًا «أي كلام».

أبعد هذا مأساة؟!

ولن أنزلق أكثر لتبيان أبعاد المأساة التي نعانيها؛ فخير لي ولنا أن نبدأ أي إجراء أو فعل ونكفَّ عن الحديث فيها، حتى ولو من قبيل التشخيص، فللأسف نحن الأطباء ونحن

المرضى، وحيث يكون الأطباء مرضى والمرضى أطباء تصبح محاولات بعض «الحكماء» للتمهُّل حتى «نناقش» المسألة، ونصل إلى «تشخيص» دقيق لما نعاني منه، تصبح كارثة ويصبح الأكثر منها فعاليةً وجدوى أن نبدأ فورًا في حركة عمياء، فلتكن، ولكنها أفضل من أضغاث الأحلام وخطرفات المرضى.

لن أنزلق إذن لتبيان أبعاد المأساة التي خلَّفها لنا الوضع الكلامي، وأية مأساة أكبر من أن «الكلمة» التي كانت وفي كل مكان في الدنيا تكون الرابطة الأساسية بين الإنسان والإنسان، أصبح الإنسان عندنا أبدًا لا يصدِّقها. زمان كان الرجل يقول إذا حاول أحد أن يزحزحه عن صفقته أو موقفه: أنا خلاص، أعطيت كلمة. وكلمة هي الكلمة، وما العقود والوصولات والاتفاقات المكتوبة إلا مجرد تحصيل حاصل. الآن، الكلمة المعطاة لا قيمةَ لها بالمرة، ولهذا كان من المحتم أيضًا أن تصبح الكلمة المكتوبة لا قيمةَ لها، ولا أعتقد أن محاكم في الدنيا تنوء بعدد من العقود والاتفاقات المطعون فيها وفي صحتها مثلما يوجد في محاكمنا.

وتصريحات الساسة والمسئولين هي أبسط أنواع التعاقدات التي كان مفروضًا أن تقام لها محاكم خاصة، وكانت أيضًا ستنوء بحمل ما سيتكوَّم في أرففها من كلام وتصريحات؛ حتى أصبح تصريح المسئول عندنا نكتة! أهناك كارثة أكثر من هذا؟!

لن أنزلق.

فلنبدأ نفعل.

نكف عن الكلام الذي بلا رصيد، ونتكلم برصيد.

أولًا وكبشر، نعيد إلى الكلمة قيمتها، فنحن لن نحيا أفرادًا مشتَّتين، نحن أردنا أم لم نرد، مجتمع لا بد من أن نترابط لنحيا معًا، والكلمة هي رابطنا التي أصبحت للأسف هي مفكِّكنا، فهل نستطيع أن «نفعل» هذا الشيءَ البسيط جدًّا؛ أبسط أنواع الفعل؟

بالضبط كالمريض الذي يشير بسبابته، أو يرمش بعينه، لنثق وليثق الناس حولنا أننا أحياء ما زلنا.

هل نستطيع لا أن نكفَّ عن الكلام، وإنما أن نتكلم بحسابٍ كلامًا نحاول قدر ما استطعنا أن نجعله في مثل حجم ووزن قدرتنا كأشخاص أو كمجتمعات أو كتنظيمات أو حتى كمؤسسات؟ هل ممكن أن نطلب من مجتمع بأسره أن يفعل أبسط (إنْ يكن أبدًا ليس أسهل) مواصفات البشر، أن يَصدق مع نفسه؟ لا أدري لماذا أحس بالحرج الشديد وأنا أطلب هذا من نفسي قبل أي إنسان آخر، وكأنني أضع فوق رأسي عمامة وأعِظ؟

إن النفس البشرية جُبِلت على مقاومة الوعظ المباشر والأمر المباشر، وتعقَّدت تلك النفس بحيث أصبح عليك أن تسلك لها دروبًا ملتوية ربما لتقول لها أبسط الحقائق.

فلماذا الحرج؟ وما حاجتنا أن يعِظ كلٌّ منا الآخر؟ ولماذا لا يوقف أيٌّ منا نفسَه في منتصف كلامه المقال أو المكتوب، ويسأل: أأنت صادق فعلًا فيما تقول، أم هو «أي كلام»؟

لنبدأ بالمفتشين، ولنجعل المفتشين داخليين بلا أحد غريب، وليس هذا هو الحال الأمثل بالطبع، ولكن لا بد لكل شيء من بداية، ولا بد من مجتمع يريد أن يعود للحياة كله، أن يبدأ بعض أفراده يعودون إلى الصدق، ومن بنوك عملة حقيقية قليلة، أن تبدأ تتعامل بنقد حقيقي.

وأول بنوك في رأيي لا بد أن تبدأ هكذا، هي بنوك وسائل إعلامنا؛ صحافتنا، إذاعتنا، تلفزيوننا، بنوك فننا وأدبنا، رواياتنا، قصصنا، أشعارنا، حتى رقصاتنا؛ فالإعلام ليس «أي كلام»، والفن ليس «أي كلام».

وإن صح «أي كلام» في أي شيء، فأبدًا أبدًا هو جريمة في حق المجتمع ككل حين يدخل وسائل الإعلام، أو للأسف الشديد يتسلَّل في النخاع الشوكي للأمة من خلال وسائل الفن.

ولكن هذا «كلام» آخر.

حياتنا والتليفزيون

جميل جدًّا أن نناقش الثقافة في صحافتنا، أنا شخصيًّا أحس بانتعاش كلما فتحت جريدة أو صحيفة ووجدت مشكلة ثقافية حقيقية مطروحة للبحث، فلا تُناقَش الثقافة إلا في مجتمع بدأ يرفع رأسه عن مشكلات أكل عيشه الملحَّة الخالدة.

وجميل جدًّا أن نناقش مشاكل المثقفين — ومنهم الكُتاب — في صحافتنا؛ إذ معنى هذا أننا تخطينا حدود التلقائية وبدأنا نُعنى بالمستقبل ونحسب لأصحابه كل حساب، وهو أيضًا مشغولية الشعوب إذا بدأت تنضج وتعد للغد منذ ساعات اليوم الأولى، ولكن — يا لها من «لكن» غريبة لا بد أن تدخل في كل مناسبة وكل موضوع — ولكن رغم ترحيبي الشديد بمناقشة القضايا الثقافية العليا، ابتداءً من مشكلة الكتاب ومشكلة الترجمة ومشكلة كتابة التاريخ وكل تلك المشاكل التي يتعرض لها البرنامج الثاني للإذاعة مشكورًا، رغم ترحيبي الشديد بمناقشة القضايا الثقافية الرفيعة كما يقولون، إلا أنني لا أستطيع ولا غيري يستطيع أن يغض الطرف عن حقيقة العصر الذي نحيا فيه ويدرك أن مسلسلة واحدة من مسلسلات الإذاعة أو التليفزيون تبث كمية «ثقافة» أو في معظم الأحيان «أنتي ثقافة — ضد ثقافة» أكبر بكثير من كل ما كتبه طه حسين وتوفيق الحكيم والعقاد وأثَّروا به في مثقفي مصر والعالم العربي منذ أوائل هذا القرن إلى الآن، ذلك أن جماهير هؤلاء الأساتذة الكبار جميعًا لا يمكن أن تكون قد تعدَّت ربع مليون «مثقف»، وهم ربع مليون بالغ ثقافيًّا ولا خوف عليه البتة من رأي خاطئ أو قلق خاطر، بينما جمهور أي مسلسلة إذاعية أو تليفزيونية لا يمكن أن يقل وبأي حال من الأحوال عن أربعة ملايين، وفي وقت مركَّز واحد لا يزيد عن الشهر، وإذا — كما يُقال — نجحت المسلسلة وأُخِذت للسينما أو للمسرح «أو العكس» فإن جماهيرها تتضاعف، وهي جماهير الخوف عليها شديد؛ إذ هي أرض عذراء لم يُخَطَّ في عقلها أو وجدانها خط ثقافي واحد،

وما سوف تراه ستتأثر به تأثرًا خطيرًا جدًّا يؤثر في حياتها وفي سلوكها، وفي النهاية في صياغة مجتمعنا نفسه وقيمه وما يمكن أن يكون له من «عيب» أو «حرام». كذلك نفس الشيء بالنسبة للجدد أو الناشئين، فمناقشة قضايا الكُتاب الناشئين والأجيال الجديدة من خالقي الكلمة مسألة هامة وخطيرة جدًّا، فإذا كانت الأوضاع القاسية التي يواجهها هؤلاء الجدد — براعم مصر؛ الخيال والإبداع والعبقرية — مهدَّدة بواسطة السدود العالية التي تحول بينها وبين الوجود المؤثِّر كأصحاب منابر في ساحتنا الأدبية والثقافية؛ إذا كان هذا الوجود مهددًا بالتوقف واليأس والانطواء على أنفسهم نتيجة عدم وجود طريق ثابت ومعروف لنشر إنتاجهم وعرضه على كبار النقاد وإبداء الرأي فيه وإذاعته وإشاعته بين الناس وضمان استمراره وتدفقه تاركين الأمر للمجهود — أحيانًا البدني — الخاص وقدرة هذا الشاب أو ذاك على اقتحام استحالات النشر وحيدًا دون أن يُزوَّد بأي سلاح إلا سلاح المعرفة الشخصية لناقد إن وُجدت، أو لمشرف على صفحة أدبية، وهيهات. إذا كان هذا هو الحادث وهو الحادث فعلًا، فإنه لوضع خطير؛ إذ نحن في عصر لم يعد يصلح فيه أن يُقال: إن الموهبة الحقيقية لا بد أن تظهر مهما كانت الظروف المحبطة المحيطة بها. في عصر أصبح القارئ والمتلقي ليس فردًا وإنما ملايين، وأصبحت وسائل النشر ليست في يد أفراد وإنما في أيدي مؤسسات ضخمة عريضة يقف أمامها المبتدئ وحيدًا متسائلًا عن الطريق لاقتحام هذه «الليفياتانات» الضخمة، في عصر كهذا لا يمكن أن يترك أمر ظهور الأديب لمجهود أقلام الصحوة مثلًا في الإسكندرية أو الطباعة على الجستتنر والبالوظة لإظهار كاتب، فما بالك بحركة أدبية جديدة قد تختلف في قليل أو كثير عن المدارس الأدبية المسيطرة على أمور النشر في صحافتنا! صحيح أن الصفحات الثقافية والأدبية في جرائدنا ومجلاتنا في أيدي شباب، ونقاد الأدب في الصحافة كلهم من الشباب وكلهم حماس لإنتاج الشباب وتقديم الشباب، ولكن الأمر لا يزال إلى الآن متروكًا للصدفة المحضة وقانون المعرفة الشخصية وأحيانًا الاستلطاف الشخصي، في حين أن تجدد الأدب والثقافة والفكر، وتوالي ظهور الجديد في كل فرع، مسائل في حاجة إلى طُرق علمية وجادة وشاملة لاكتشاف النبوغ وإشهاره ورعايته.

ورغم هذا فالمشكلة فقط ليست مشكلة الكتابة الجديدة والكتاب الناشئين والجدد. من حسن حظ هؤلاء أنهم كُتاب ويمتُّون إلى الكتابة وأن مشكلاتهم على الأقل تُناقَش على صفحات الجرائد وفي الأركان الأدبية التي يُشرف عليها شبان، ولكني — وأنا أتكلم عن الشباب والجديد — أنظر إلى الموضوع بمنظور الشعب كله والمجتمع كله بحيث

لا بد أيضًا أن نتكلم عن الأطباء الشبان والمهندسين الشبان والفنانين التشكيليين الشبان والمدرسات الشابات والممرضات والعالمات الشابات والباحثين والباحثات الشبان، أتكلم عن الشباب كقطاع يُشكِّل ما لا يقل عن الخمسة عشر مليونًا من سكان مصر، جدد، يخوضون المستنقعات والوحول من أجل الوجود وإثبات الوجود، وأيضًا دون أن يأخذ بيدهم أحد، بل وحتى دون أن نسمع لهم صراخًا أو نتلقَّى منهم شكاوى، باستطاعة الكاتب الناشئ أن يناقش مشكلته في ركن الأدب، ولكن المهندس الناشئ والصحفي الناشئ والرسام الناشئ معاركهم تدور في صمت وبطولة، ولهذا فمعدل الخسائر كبير وبلادنا تكاد تُدار لمصلحة الأجيال الكبيرة فقط، والمطلوب مشاركة حقيقية وأصيلة في إدارة كل أمور حياتنا، وليس المشاركة فقط من أجل المشاركة وإنما المشاركة لكي يتَّسع حاضر اليوم وواقع اليوم والمعمول به اليوم لأفكار واختراعات وابتكارات وأرواح الشباب؛ إذ هو فترة الخصوبة في حياة الشعب وبدونها يئول المجتمع وتئول قوى الإبداع فيه إلى عقم — أو بالقليل — ترهل وضعف شديدين.

ولهذا فحين أناقش مشكلة الثقافة في مجتمعنا لن أناقش طه حسين وتوفيق الحكيم والعقاد، سأناقش أسماء لا أحفظها إلى الآن ولم تعْلق بذاكرتي، ولا أملك تعدادها؛ فهي أولًا كثيرة، وثانيًا وهذا هو الغريب الخطير، لا يحفل بها كثيرًا متلقي هذه الثقافة نفسها وإن كان لها أكبر الأثر والخطر، ليس على حياته فقط وإنما على الحياة في مصر كلها.

حين نناقش الثقافة في مصر أفضِّل أنا أن أناقش الثقافة للملايين تلك التي يتلقاها شعبنا من خلال الإذاعة والسينما والتليفزيون. أناقش الثقافة التي يتلقاها الطفل والصبي من النادي وملاعب الكرة والمدرسة وإلى حدٍّ ما، وفي ذيل القائمة، الصحافة.

ذلك أن المسألة في رأيي ليست مناقشة.

المسألة أصبحت مسألة حياة أو موت.

إما أن نغير ثقافتنا تلك وإما سيحدث لنا شيء أخطر بكثير مما حدث لسادوم فالمسألة قد وصلت الحلقوم.

أو بالأصح قد وصلت الأوضاع إلى حد أن بدأت الثقافة السائدة وقد تلقفتها جموع المواطنين تهتدي بها في حياتها اليومية وفي حركتها؛ بدأت هذه الثقافة تشلنا وتمنعنا منعًا عن الحركة بل وبدأت تستحيل إلى سهام مرتدة إلينا. انظر إلى سلوك الجمهور مثلًا يوم مباراة الزمالك والمصري في بورسعيد، انظر إلى الشارع من حولك إن كنت تركب سيارة

أو أتوبيسًا وكيف تتوقف الحركة فيه تمامًا؛ لسوء السلوك، وما سوء السلوك سوى ثقافة خاطئة لُقِّنت لأذن صاغية. انظر لسلوك الموظف والعامل وسلوك الموظفات والعاملات في أي موقع عمل، تجد ... ما الداعي أن أخبرك وأنت أدرى مني بما ترى.

الواضح لكل منا ولأي زائر لبلادنا وأي قادم عليها من غيبة أن ثمة تغيرًا خطيرًا قد حدث لسلوك الشارع المصري، وليس فقط الشارع، البيت المصري والمسرح المصري والاستاد والسينما وكل مكان فيه بشر.

وأعتقد أن لا حاجة بنا لمناقشة علاقة الثقافة بالسلوك فهي قضية محسومة ولا داعي للخوض فيها، إن الثقافة هي كل ذلك الجزء المكتسب من العقل البشري، وبمعنى أدق كل ما يُضاف إلى عقل الطفل منذ أن يولد صفحة بيضاء لم يُخَط فيها حرف إلى حين يموت، وقد استحالت تلك الصفحة إلى كتاب ضخم دوِّنت فيه كل كلمة سمعها الإنسان أو قرأها أو تسرَّبت إليه.

والأجيال الشابة التي نراها في كل مكان هي أجيال وسائل الإعلام الضخمة؛ فالتليفزيون دخل الحياة المصرية في عام ١٩٦٠م، وكانت الإذاعة والسينما قبله؛ أي أن هذه قد عاصرت السنوات الأولى التي ربَّت وصنعت قيم كل الجيل الشاب وربما المتوسط في حياتنا.

وسلوك الجماهير والأفراد في مصر كان مختلفًا تمامًا قبل هذا التاريخ. كان المجتمع يتلقى ثقافته من الكتاب ومن البيت من الأب والأم، ومن المدرس ومن أفلام السينما ومن المربِّين السياسيين والاجتماعيين الذين كانوا لا يعانون من أزمة مساكن أو غلو أسعار أو البحث عن النقود بأية وسيلة وطريقة. كان مجتمعًا متوازنًا سكانه على قدر طاقته الثقافية والتربوية.

وإذا عرفنا أن دخول عصر وسائل الإعلام الضخمة قد صاحبته عملية الانفجار السكاني الرهيبة التي حدثت في نفس الوقت تقريبًا بحيث أفلت الزمام تمامًا، وأصبحت طاقاتنا الثقافية والتربوية وكم الرعاية والانتباه الذي نوليه للنشء أقل بكثير من عدد السكان. خفَّت أيدي المنزل والمدرسة والكتاب والمجلة كثيرًا وتركت ملايين الأطفال والصِّبية لوسائل الإعلام الهائلة تربيهم وترعاهم وتعلِّمهم التصرف والسلوك.

وهنا بدأت المشكلة.

حبذا لو اقتصرنا في عرضنا لهذا الموضوع الخطير، وتوفيرًا للوقت والجهد، على اختيار التليفزيون الوسيلة المثالية للتثقيف الجماعي، ليس فقط لأن التليفزيون أخطرها جميعًا

ولكن أيضًا باعتبار أن ما ينطبق على التليفزيون ينطبق على كل الوسائل الأخرى، فوق أن التليفزيون ينفرد بخصائص غير موجودة في باقي القنوات، بل أكاد أقول إن التليفزيون حلَّ محلَّها جميعًا وأصبح هو القائد الثقافي شبه الدكتاتور الذي على وقعه وما يدور داخل صندوقه الصغير تسير أو تتوقف حياتنا الكبيرة العريضة وليس للأسف العكس. والمشكلة أن مناقشة التليفزيون لم تدر أبدًا كما يجب أن تدور؛ فكل من تعرَّض للتليفزيون إما كان على حد تعبير العاملين فيه «يشتم» برنامجًا أو «يمدح» برنامجًا — وفي الغالب — برنامجًا واحدًا؛ ولهذا لم يستفد أبدًا العاملون في التليفزيون ولا نحن الجمهور بهذا النقد أو المدح، وبقي ذلك الجهاز كالسر المغلق نسخط عليه في معظم الأحيان ونرضى عنه في بعض الأحيان، ويؤثر في حياتنا ذلك التأثير المروع الخطير دون أن ندري أو نعلم كيف. إن التليفزيون كمؤثر في حياتنا يعمل على محورين هائلين:

المحور الأول: هو المادة التي يقدمها أو لا يقدمها «وهذا هو الغريب» التليفزيون.

والمحور الثاني: هو المحور غير المباشر الذي يحدث دون قصد من العاملين فيه.

فإذا أخذنا المحور الأول، وتوقَّفنا عند مشكلة ما يقدمه التليفزيون سنجد بداية المأساة؛ فالتليفزيون باستطاعته ومن واجبه أن يقدم لنا كل شيء يخطر على قلب بشر، وهو يفعل هذا في البلاد الأغنى منا، تلك التي تملك مالًا وقدرات بشرية وتنفيذية تستطيع رصد ما يحدث في العالم كله وتقدمه بالصوت والصورة، ونستطيع عرض كل التراث المسرحي والسينمائي وعرض التاريخ والحقيقة باستطاعة التليفزيون أن يكون بديلًا عن حياة بأكملها وعن تعليم بأكمله من الروضة إلى أرفع درجات التخصص العلمي، ومَن المربي العبقري الذي يُربِّي بالإشارة واللمحة والطريق غير المباشر إلى المربي الفج الممقوت كما يحدث في بعض البرامج عندنا.

لهذا، فما كان يمكن أن يقدمه التليفزيون المصري كثير؛ فمن أروع وأبسط مبادئ البرامج التليفزيونية في العالم الغني برنامج الجامعة التليفزيونية، وفيه تقدم كل العلوم التي تفتق عنها ذهن البشر بحيث يستطيع أي مشاهد أن يختار أي فرع منها ويتخصص فيه بل ويُمنح شهادة بالضبط مثل الشهادات التي تقدمها الجامعات بحيث يحصل بها على عمل ويشق طريقًا جديدًا في الحياة.

كان مفروضًا أن يكون هذا ألف باء أي تخطيط لبرامجنا التليفزيونية في بلد تصل الأمية فيه إلى ٧٥٪ كان واجبنا الأول أن نمحو به أمية الأُميين، وواجبنا الثاني أن نأخذ بيدهم حتى يتخرج في الجامعة التليفزيونية من يشاء.

وبدلًا من هذا اكتفينا من الغنيمة بتعليم المتعلمين فعلًا.

لهذا وبدلًا من أحلام اليقظة ومناقشة ما كان يمكن أن يقدمه التليفزيون لنناقش ما يقدمه فعلًا فهو الأجدى والأنفع.

وسوف نبدأ بأخطر ما يقدمه هذا الساحر الغريب. المادة الدرامية تلك التي تنقسم إلى أفلام قديمة ثم المسرحيات ثم المسلسلات التليفزيونية؛ ذلك لأن البرامج المباشرة أو التي تقدم الثقافة المباشرة هي أقل البرامج تأثيرًا في سلوك الناس أو في ثقافتهم ليس لضعفها والعياذ بالله إنما برغم جودتها الرفيعة في بعض الأحيان مثل برنامج أمسية ثقافية، وسخافة بعضها مثل ذلك المُسمَّى عالم الأدب أو دنيا الأدب أو الثقافة، لا أعرف، والذي لم أرَ في حياتي برنامجًا ثقافيًّا له هذا الموات وثقل الدم بحيث يجعلك تكره الثقافة والأدب. هذه البرامج المباشرة هي أقل البرامج تأثيرًا في المتفرج لأنها مباشرة ولأن باستطاعة المشاهد مناقشتها ومناقشة قضاياها عقليًّا، أما الآثار الثقافية والتربوية والسلوكية الخطيرة فهي تلك التي تتسرب من الشاشة إلى الجمهور تسربًا غير مباشر تسربًا ضمنيًّا.

خُذ مثلًا تسريحة شعر المذيعة أو طريقة ابتسامتها، إنها أول ما تعلم، تعلم الأجيال الجديدة الكذب. الكذب على الجسم بابتكار شعر صناعي لا علاقة له بالجمال الطبيعي الصادق وتسريحة لا تليق بمذيعة تظهر في جهاز إعلامي واسع الانتشار — في حين أن المذيعة مفروض أن يكون همها الأول هو الإتقان الكامل للموضوع الذي تقدمه أو تتحدث عنه بحيث لا تربك المشاهد بالغريب من التسريحات والأزياء. وأن تختارها أبسط وأذكى ما يكون. ثم هذه الابتسامة التي يعرف الجميع أن لا داعي لها مطلقًا؛ إذ ما معنى أن أبتسم وأنا أقول: وإليكم الآن نشرة الأخبار، إلا بهدف أيضًا أن «أصطنع» تعبيرًا أو عاطفة خاصة حين لا يكون ثمة شيء يدعو للابتسام أو العاطفة.

من اللحظة الأولى لبداية تقديم البرامج إذن تبدأ عملية الاصطناع يقول بها التليفزيون إن كل ما سوف ترونه صادر ليس عن تقديم الحياة الصادقة التي نحياها ونعرفها جميعًا، ولكننا ومن الآن إلى منتصف الليل سنقوم بعملية تقليد للحياة، متقن أو غير متقن هذا لا يهم، المهم أننا سنقدم حياة مقلَّدة.

وبما أن الدرس الأول الذي يتلقَّاه الطفل من أبويه هو ألا يكذب أو يصطنع أو يزوِّر فمعنى هذا أننا مع بداية البرنامج نبدأ الدرس الثقافي الأول: اكذبوا واكذبن.

ويا له من سلوك، ذلك الذي سوف يتمخض عن درس أول كهذا.

وقبل أن أتحرك خطوة أخرى في اتجاه رؤيا جديدة للتليفزيون في حياتنا، أرجو من كل الإخوة والأخوات العاملين والعاملات في التليفزيون وعلى رأسهم واحدة من ألمع شخصياتنا النسائية المعاصرة القادرة والمثقفة — أن يأخذوا كلماتي نفس المأخذ الذي قصدته بها. فلنبطل جميعًا حكاية إننا «نشتم» أو «نمدح» فالمسألة ليست برنامجًا ناجحًا أو برنامجًا يفشل أو مذيعة طبيعية ومذيعة بباروكة، بل ليست — حتى التليفزيون كله — كوسيلة توصيل واتصال، المسألة أكبر من هذا بكثير، المسألة حياتنا كلها وضرورة أن يعاد تقييمها ورؤيتها على ضوء جديد حتى نستطيع تغييرها وتسييرها وقد أدت إلى ما يُشبه الوقوف. القضية أكبر وأعم وأشمل قضية شعبنا؛ قيمه وسلوكه ومنغصات حياته، وما كنا نأخذ التليفزيون باعتباره المثل الأكبر والأوضح والمتاح إلا لخطورته العظمى وانتشاره وإلا لأنه الوسيلة التي حين نناقشها يتمكن المواطن العادي الذي لا يقرأ كتابًا ولا جريدة أن يتابعها، ويكفي العاملون والعاملات بطولة أنهم يعملون في وسط ظروف نلمس في تلك الساعات القليلة التي نزور فيها التليفزيون ضيوفًا أو سائحين كم هي شاقة وصعبة.

كلُّ ما في الأمر أننا نريد، معًا، جمهورًا وعاملين، أن نتغير، ولأن لا بد لكي نتغير أن نُغيِّر، فمن واجبنا إذن أن نقبل أن تناقش أعمالنا على الملأ، وفي المرات القادمة أرجو أن نتمكن من مناقشة الدراما في التليفزيون بحيث نصل بها إلى ما نريد، كذلك بقية المواد، ومن التليفزيون إلى الصحافة إلى المسرح إلى السينما إلى المدرسة إلى النادي لا بد من إعادة النظر، وبقوة، فلا بد أن هناك حياة أخرى جديرة بنا، ومن المحتم أن نصل إليها، ولا يمكن أن نسمح بتوقف الحركة في حياتنا مثلما تتوقف الحركة أحيانًا، ولسوء السلوك في شوارعنا.

التثقيف اللاسلكي

وأنا أستعد لمواصلة الكتابة ومناقشة الدراما في التليفزيون تُوفِّيت أماني ناشد. نشرت الصحف خبر وفاتها وفي اليوم التالي شُيِّعت جنازتها. وحتى قبل أن تُشيَّع الجنازة، لم أُفاجأ حين أصبح الخبر حديث الناس، وكذلك أصبح الموضوعَ العاجل لأكثر من تعليق متحسِّر ودمعة باكية مكتوبة. كم قرَّبتنا أحداث الأعوام الأخيرة حتى لتكاد تجعلنا — رغم تضاعف عددنا البشري — عائلة حميمة يتتبَّع كل منا فيها أخبار الآخر وكأنه قريبه أو رفيقه، ويصبح الموتُ الواحد مأتمَنا كلنا، والعزاء نكاد نتقبله ونتلقفه جماعة. أحسست بالحرج؛ فأنا أريد مواصلة الحديث الذي بدأته، وأريد في نفس الوقت أن أقول كلمة في حق إنسانة عرفتها وشاهدتها ولي رأي فيها، حرجي أن شتان بين الموضوعين، ما أريد قوله وحادث الوفاة، فإن أنا تجاهلت وفاة أماني واستمررت فيما بدأته كذبت على مشاعري العميقة، وإن أنا انسقت وراء تلك المشاعر، خرجت عن الموضوع الذي وعدت القارئ باستكماله، ولكن، يا لغرابة ما اكتشفت! إنني مهما قلت عن أماني ناشد، حتى ولو كان شرحًا لأحاسيس ذاتية، فأنا داخل الموضوع لن أخرج عنه؛ إذ الموضوع هو ثقافة الشعب من خلال وسائل الإعلام الواسعة الانتشار وعلى رأسها التليفزيون، وانعكاس ما يقدِّمه جهاز كهذا من ثقافة على سلوكنا كجماهير وتصرفاتنا، وأماني ناشد — في رأيي — كانت وسيلة من وسائل التليفزيون الثقافية، ولقد حزن الناس عليها، هذا حقيقي، ولم يحزنوا عليها باعتبار أنها نجمة أو وجه أليف كاد يصبح من مكونات وجوه العائلة المصرية. السبب الأعمق للحزن عليها هو أن الناس افتقدوا فيها وسيلة مُثلى من الوسائل الثقافية التي يُطالعهم بها هذا الجهاز. في الأسبوع الماضي انتهيت إلى أن الثقافة في التليفزيون لا نتلقاها فقط من خلال البرامج الثقافية المباشرة التي يقدِّمها ذلك الجهاز، وإنما الأخطر من هذه الثقافة المباشِرة هو ما نتلقاه من ثقافة غير مباشرة، وعلى رأسها مظهر وسلوك

وثقافة المذيعات ومقدِّمات البرامج فيه. وكما قلت، لم أدهش لمبادرة أكثر من صاحب قلم ومُعلِّق وصحفي للكتابة عن أماني ناشد، بل أيضًا لم أستغرب اشتراك هذه الأقلام في عزف نغمة تكون واحدة وفي التحسر على سيدة شابة جادة غير مبهرجة المظهر أو مفتعلة الظرف، تحرص على موضوعها الذي تقدِّمه أكثر مما تحرص على طريقتها في اختيار مظهرها، بصدق تتناول المادة التي تتناولها وبصدق تقول رأيها، وببساطة، وبعناد أيضًا، تُناقش ضيفها، وتُخرِج أسئلتها وكأنما قد جمعتها من فوق ألسنة المشاهدين. هذه الصفات، وكثير غيرها، نعاها الكُتَّاب والمشاهدون، ذلك أنها بالضبط تلك الصفات التي تثبت ما أردت قوله من أن الثقافة غير المباشرة التي يقدِّمها التليفزيون، ونماذج التصرف من نجومه والعاملين فيه، هي مصادر ثقافية أساسية أهم كما قلت من محتويات أي برنامج مقصود به أن يقدِّم علمًا أو ثقافة أو رأيًا. والفرق بين أماني ناشد في هذا وبين غيرها، أن نموذجها هي وهِمَّت مصطفى وسلوى حجازي وليلى رستم ودرية شرف الدين وأخريات قليلات، نموذجٌ للتصرف والمظهر والمثل الرفيع في الشكل والسلوك، ذلك الذي يوصل للجمهور ويعكس ثقافة لا بد أن تكون رفيعة هي الأخرى وجادة ومفيدة.

هل توقفنا — أكثر مما يجب — عند الشكل؟

لا أظن، فالشكل أبدًا ليس شكلًا؛ الشكل هو الجزء الظاهر من جبل الثلج، وقد يزعم كثيرون أن الظاهر غير الباطن، وأننا إذا كنا جادين في مناقشة أية قضية فلا بدَّ أن نتجاوز الشكل إلى المضمون، وهذا غير صحيح على إطلاقه؛ فالشكل مضمون، والمضمون شكل، وما الثورة التي أحدثها التليفزيون سوى إكمال مضمون أو موضوع أو حديث، وذلك بإضافة «شكل» المتحدث، و«شكل» الممثل، و«شكل» المتحدثين، للوصول بطريقة أكمل وأعمق إلى صافي ما يقدم من «صدق».

والناس أكثر حساسيةً مما نتصوَّره بكثير، والمُشاهِد العادي باستطاعته — لو أوتي القدرة على التعبير عما يحسه تجاه ما يراه — أن يُسطِّر صفحات عما يستشفه تجاه «شكل» المتكلم مهما حاول ذلك المتكلم أن يُخفي. يكاد المريب يقول خذوني، ويكاد الوجه والملامح والعيون تقول لكلِّ مَن باستطاعته الإدراك أنا كذا وكذا وكيت، حتى لو تحصَّن ذلك القائل خلف متاريس هائلة وأقنعة. ولست أدري، هل أسدت السيدة تماضر توفيق صنيعًا لكثير من فتياتنا، حين أعطتهن فرصة الظهور في التليفزيون تحيُّزًا منها — وأنا معها — للمرأة المصرية، أم أضرتهن؟ ذلك أن الإنسان في كل مكان يجد فتيات كثيرات حلمهن الأوحد أن يعملنَ مذيعات تليفزيون، ذلك الحلم الذي يسخِّرْنَ أهلَهن وكلَّ مَن

يعرفنَ من صغار أو كبار لتحقيقه. وتسأل الفتاةَ من هؤلاء: لماذا؟ لماذا بالذات تريدين العملَ كمذيعة تليفزيون؟ وتظفر دائمًا بإجابات أغلبها غير مقنع، ذلك أن كلًّا منهن تكتم السبب الحقيقي، وهو ببساطة: حبها للظهور والشهرة والأضواء. وهذا أبدًا ليس عيبًا؛ فكل إنسان يريد الشهرة أو المال أو القوة أو الحُكم أو المعرفة على أوسع نطاق أو غيرها من الآمال العريضة، والمشكلة أنك إذا أردتَ المال كان عليك أن تستعد لبذل مجهود بشري هائل طوال ربع القرن القادم لكي تكون غنيًّا. كان هذا في الزمن الماضي إذ يبدو أننا في زمننا الحاضر أصبحت المشكلة ليس أن تَعدَّ نفسك لمجهود خارق طوال ربع قرن لتُثرِي، إنما أن تفكر في أسرع وأبسط طريق للحصول على النقود، حتى لو كان بالاختلاس أو السرقة، كذلك الشهرة والذيوع؛ لم يَعُد مهمًّا لماذا تريد أن تكون مشهورًا، وإنما المهم أن تصبح وبأية طريقة — أو بالأصح بأبسط وأسهل طريقة — مشهورًا، وأبسطُ وأسهل طريقة للظهور أن تعمل الفتاة نجمة تليفزيون. نجمة تقول ماذا، أو تقدِّم ماذا، أو تصنع ماذا، غير مهم، المهم أن تكوني جميلة وجذابة، والبقية تأتي من تلقاء نفسها. وبما أن أية فتاة تعتقد أنها بالضرورة جميلة، فإنها بالضرورة تعتقد أنها لو أعطيت لها الفرصة، ووجدت «الواسطة» المضبوطة، فإنها حتمًا تستطيع أن تكون نجمة تليفزيون، وحاوِلْ أن تُقنِع أيَّ إنسانة (أو إنسان) أنها (أو أنه) ليست (أو ليس) بهذا الجمال، وحاوِلْ أن تقول إن الجمال وحده ليس مؤهِّلًا، وإن الظهور إلى الناس يحتِّم أن يكون لدى طالب الظهور رسالةٌ معينة يريد أن يوصلها أو مبدأ أو كلمة صدق وحق، وإن هذا كله يحتم أن يتسلَّح المتصدي لأمل كهذا بأن يكون لديه حصيلة وافرة من المعرفة البشرية وقدرة فذَّة، غير عادية، على إقناع الآخرين بوجهة نظره، حاوِلْ وستجد المستحيل. وربما لهذا استحال التليفزيون إلى لجنة امتحان للمذيعات والمقدِّمات؛ إذ يبدو أن الأمر أفلت من اللجان المختصة، والوسايط أصبحت أقوى من أن تُقاوَم (أصل البنت ح تموت لو ما اشتغلتش مذيعة يا فندم). وهكذا على جمهور التليفزيون أن يبلغ كل ما يسقط من ثقوب غربال اللجان. وغربال اللجان لا بد أنه أصبح يفوت حتى الدبش والزلط، حتى لو اتخذ شكل تماثيل جميلة، ليس مهمًّا ماذا تقول أو ماذا تعاني حين تقول، المهم أن البنت تكون قد ظهرت «يا فندم» في التليفزيون.

ونعود إلى موضوعنا: الثقافة ودراما الإذاعة والتليفزيون.

أسافر كثيرًا، وأستمع، حتى وأنا في القاهرة إلى إذاعات العالم، وأشاهد برامج تليفزيونية، وأبدًا لم أجد لا في شرق العالم أو غربه، ولا في شماله أو وسطه أو جنوبه،

هذا الكمَّ المخيف من المسلسلات والسباعيات والشهريات والثلاث عشرات حلقات من التمثيليات والمواد الدرامية التي تقدِّمها الإذاعة المسموعة والمرئية؛ مظاهرة دراما تظن إذا ما عددت ساعات إرسالها في البرنامج العام وصوت العرب والشرق الأوسط والشعب والبرنامج الثاني والقناة «٩» والقناة «٥»؛ أن لدينا جيشًا وافرًا من المؤلفين؛ إذ إن حركة درامية بهذا الكم لا يمكن أن تنتجها إلا حركة مسرحية في ضخامة الحركة المسرحية في إنجلترا أو فرنسا أو أمريكا أو كلها معًا، فما بالك ونحن لم نعرف المسرح بشكله الحديث إلا منذ أقل من خمسين عامًا، وليس لدينا حتى قسم تأليف في معهد الفنون المسرحية، وعدد الذين «يفهمون» في الدراما في مصر كلها لا يزيد على المائة مواطن، عدد الذين يستطيعون التأليف الدرامي منهم فعلًا لا يتعدى العشرين، منهم عشرة من «الكبار» الذين يكتبون إذا ألَّفوا للمسرح، ويتبقى بعد هذا عشرة، ربما أكثر قليلًا أو أقل قليلًا، هم الذين عليهم أن يملئوا كل هذه المساحة الدرامية! إن فنَّ الدراما في حد ذاته فَهمٌ واستيعاب، والقدرةُ على الانتماء، مجرد الانتماء إليه، مشكلة، فما بالك إذا كان عليك ليس فقط أن تؤلف، وإنما أن تؤلف لأجهزة خاصة مثل الإذاعة التي تحدد لك الأذن وسيلة وحيدة لتلقِّي الأثر الدرامي، أو الفيديوتيب الذي يحدد لك الزمان والمكان ولا يترك لك إلا فرصة ضيقة جدًّا عليك أن تركز الدراما فيها تركيزًا شديدًا كي تقنع الآخرين أو تؤثر فيهم.

النتيجة إذن، مأساة.

مساحة هائلة عليك أن تملأها ولأن «غنمك» يا جحا قليلة جدًّا، فالنتيجة أي كلام. النتيجة عشر دقائق من زمن الراديو أو التليفزيون، الذي تباع فيه الثانية بالشيء الفلاني، تضيع في تبادل التحيات والسؤال عن الصحة، وإلى أن تأتي للُب الموضوع وإلى أن يبدأ خيط الحلقة الماضية يمسك بخيط الحلقة التالية تكون قد مرت حلقة.

مناقشة المستوى هنا إذن مسألة ميئوس منها تمامًا، أي مستوًى ذلك الذي تطالب به في وضع كهذا الوضع في معظم الأحيان لا مستوى بالمرة، لا أقول ضعيفًا ولكن فعلًا لا يوجد مستوًى تستطيع أن تقول إنه ضعيف أو أقل من المتوسط.

ويبقى بعد هذا وبعد اليأس الكامل من قضية أن تسمع أو تشاهد موضوعًا يستحق الاهتمام؛ تبقى قضية الأثر، أو بالأصح تأثير هذه المسلسلات.

ذات مرة قضيت في الولايات المتحدة شهرًا كان عليَّ أن أمضي فيه معظم الوقت ملازمًا حجرتي في الفندق، ولن أُحدِّثك عن التليفزيون الأمريكي ذي الاثنتي عشرة قناة

أو إمكانيات هذه القنوات، ما أريد قوله أن هناك عروضًا للأفلام الأمريكية القديمة تكاد تستمر في بعض أيام الأسبوع، الليل بأكمله. فيلم من ٩–١٢، ومن ١٢–٣، ومن ٣–٦. وهكذا شاهدت خلال هذا الشهر جزءًا كبيرًا جدًّا من أفلام رعاة البقر، ومع أن أفلام رعاة البقر يُنظَر إليها بكثير من التأفُّف والاستنكار، إلا أن الشيء الغريب الذي لاحظته أنَّ ما من فيلم منها إلا وقد احتوى داخله على نواة أخلاقية سامية ما؛ فالبطل إما يدافع عن مبدأ، أو ينتقم لمظلوم، أو يأخذ بيد ضعيف مغلوب على أمره … إلى آخره. فصحيح أن المستوى هنا مستوى رعاة بقر، ولكن الأثر أو المضمون الأخلاقي للعمل دائمًا يغفر هذا المستوى أو ذلك الإطار الذي توضع فيه القصة.

المشكلة الملحَّة الغريبة التي تغيظيني في مسلسلاتنا المرموقات تلك أن أيًّا منها لا يتناول قضية ما بالمرة، أو يدعو لمبدأ أو يمثل بطلها قيمةً من القِيَم الرفيعة التي يصبح الإنسان من أجلها بطلًا. أغلب هذه المسلسلات يدور حول العلاقة بين الرجل والمرأة، ليست حتى العلاقة الواسعة الرحبة بين «عالَم» المرأة و«عالَم» الرجل، ولكنها العلاقة المحدودة التي تكاد تكون المريضة بين رجلٍ في الغالب محبط وامرأةٍ في الغالب تعيسة معه أو خائنة أو ظالمة، أو لا حول لها ولا قوة بالمرة. علاقة محدودة تمامًا، المسافة التي تتحرك فيها أبدًا لا تتعدى المسافة بين غرفة النوم والمطبخ، أو بين غرفة النوم والسطوح، أو بينها وبين بلكونة الجيران أو حمام الجيران. قضايا ما أنزل الله بها من سلطان، واحد يحب واحدة مصابة بعاهة وتُخفِي عنه، أو هي في سبيلها إلى الموت، ولهذا تفتعل قصة تبدو فيها أمام الحبيب بمظهر الخائنة حتى تصرفه عن حبها، مُضحِّيةً كما يقولون بحبها هي، زوجة لأن زوجها كثيرًا ما يزجرها تخونه مع ذلك الذي يخدرها بالقول المعسول، تلك التي تقول: «أنا مظلومة، وربنا عارف كل حاجة، وما دام ربنا عارف كل حاجة، أنا ما يهمنيش.»

العالم الرحب الفسيح يظل يضيق ويضيق حتى يُطبق على علاقة محدودة جدًّا، بين رجل محدود جدًّا وامرأة محدودة جدًّا، وعلى هذا الرجل المحدود جدًّا والمرأة المحدودة جدًّا أن يغطيا «نصف ساعة مرتين يوميًّا في خمس إذاعات وقناتين» يغطيان مائتين وخمسًا وعشرين ساعة دراما كلَّ شهر؛ أيْ على هذا الرجل المحدود جدًّا والمرأة المحدودة جدًّا أن يقوما بتمثيل ما لا يقل عن مائة وثلاث عشرة مسرحية كلَّ شهر؛ أيْ ١٣٥٦ مسرحية كلَّ عام.

وإذا فرضنا أن المعدل العالمي المتعارَف عليه هو أن المؤلف المسرحي المتوسط ليس بإمكانه أن ينتج إلا مسرحية كلَّ عام، فمعنى هذا إننا لملء المساحة الدرامية المطلوبة إذاعيًّا وتليفزيونيًّا نحن بحاجة إلى ٦٧٨ مؤلفًا مسرحيًّا، بل مؤلفًا مسرحيًّا متخصصًا.

ولأنه بالطبع ليس لدينا هذا العدد ولا نِصْفه ولا رُبْعه، ولا واحد على مائة منه، فالنتيجة هي المأساة كما ذكرت.

كمسرح إذن لا تؤثر هذه المسلسلات كمرشد أخلاقي أو قِيَمي، لا تفعل كأداة تسلية وترفيه لا أظن (فما أصعب تأليف المسليات والمرفهات).

وباعتبار أن ما لا يؤثر بالكسب يؤثر حتمًا بالخسارة، فلا بد أن النتيجة أن هذه الساعات المجهضة تضر أبلغ الضرر؛ إذ لا بد أنها تقول شيئًا ما، وما دامت لا تقول إلا التافه فإنها حتمًا تؤدي إلى تتفيه (إن صح هذا التعبير) العقول، وهذا أهون الضرر. ولكنها بالقطع تفعل ما هو أفدح، لا تفعله بإرادتها وإنما تفعله بغير إرادة؛ فنتيجةُ هذه الفوضى العجيبة أن مستوى الأداء التمثيلي لا أحد يلتفت لإتقانه، وكذلك الإخراج ونحت الأنماط وابتكار النماذج، لا أحد لديه وقت لهذا كله، ولتجرِ الأمور كيفما اتفق، ولننظر إلى الحادث أمامنا، هذه الطريقة التي تتكلم بها مَن يسمونهن «النساء البلدي» في مسلسلاتنا، أسمعتم بذمتكم نساء في مصر يتحدَّثن بهذه الطريقة، إنها وإن كانت تصلح لحارة مهجورة من حارات شارع محمد علي نسيها التاريخ من أيام الدعارة المرخصة، فإنها أبدًا لا تصلح لزماننا ولا تمتُّ بِصلة أبدًا إلى الطريقة التي يتكلم بها نساؤنا وبناتنا، والفلاحون أو الصعايدة أو البحاروة الذي يظهرون في حلقاتنا أبدًا، أنا أعرف فلاحي مصر جيدًا، أعرف لهجات الناس في دمياط والمنوفية والأقصر وبورسعيد، وأبدًا ما سمعت أو شاهدت فلاحًا أو بحراويًّا أو ابن بلد أو تاجرًا يتحدث بمثل تلك الطريقة الإذاعية أو التليفزيونية المدهشة أبدًا.

لا الموضوع إذن يمتُّ إلينا.

ولا الأشخاص منا.

ولا لغتهم لغتنا.

إنما هو عالم غريب يخلقه لنا أولئك الذين ينتجون الحلقات والمسلسلات، عالم غريب قائم بذاته لا مكان له على خريطة الدنيا أو بالذات خريطتنا، لا القرية قريتنا ولا المدينة مدينتنا ولا الفلاحون فلاحونا ولا أولاد البلد عندهم يمتُّون بِصلة إلى أولاد بلدنا.

بل حتى لنذهب معهم إلى آخر المدى ونقول: لنفرض أنه عالم وهمي أو أسطوري أو حواديتي لا يمتُّ للواقع بصلة، فما المانع والفن مفروض أن يكون افتراضيًّا وتصوريًّا؟

لا مانع هناك فعلًا، ولكن المشكلة أنه عالم رقص على السلم، فلا هو أسطوري نفترضه ويفترضه معنا المشاهدون، ومعظمهم تكاد تشكِّل لهم مسلسلات الإذاعة والتليفزيون كل مصادرهم للثقافة وحتى للتعلم، ولا هو أسطوري لا نأخذه على أنه واقعنا، ولا هو واقع نقول إن العيب فيه هو وليس العيب فينا نحن الذين ننقل عن الواقع.

المشكلة أن كثيرًا من جمهور هذه المسلسلات يعتقد أن ما يسمعونه ويشاهدونه أشياء حقيقية من الواجب الأخذ بها والتمثُّل بما تشيعه من تصرُّفات ومضايق، النتيجة أن هؤلاء المتلقين بوعي أو في معظم الأحوال بلا وعي، يقلِّدون ما يتلقَّونه، وإذا مددنا الخطوط إلى آخرها فإنهم يُغيِّرون حياتهم لتصبح مثل هذا الذي يشاهدون أو يسمعون، باعتبار أن هذه المسلسلات تصنع نوعًا من غسيل المخ للناس، تطمس ما هو موجود في عقولهم وتُرسِّب ما تريد، والنتيجة أنه حتمًا، وغدًا أو بعد غد، سيصير مجتمعنا إلى نفس المجتمع والقضايا والأشخاص الذين نراهم أو نسمعهم، وبالتالي تتحدد مشاكلنا وقضايانا، وتضيق إلى أن يصبح لها نفس الحيز الكائن بين غرفة النوم والمطبخ، أو بين الشقة وبلكونة الجيران. وما أسوأ هذا، وما أبشعه!

وما الدراما في الإذاعة والتليفزيون إلا نموذج واحد لما أصبح لا بد من تغييره.

هل وجودنا المصري محاصر؟!

مثلما كانت لدينا يومًا ما أزمة تعبير، إلى الآن لم نتجاوزها تمامًا، فالذي أستطيع أن أؤكده أن لدينا أزمة أخطر هي أزمة حوار، وإذا كانت كلمة أزمة تقترن في أذهاننا دائمًا بأنها شيء سيئ، أزمة مساكن، أزمة مواصلات ... إلخ. فكلمة الأزمة حين تقترن بالحوار هي الوحيدة بين الأزمات التي حين لمستها عن قرب سعدت بها، ذلك أنها تعني أننا بدأنا نعود إلى لغة الحوار والعودة للتحاور كلامًا وكتابة تعني أننا كففنا عن التحاور صدامًا وعنفًا، تطرف في العقيدة عند الشباب يردُّ عليه بالإجراء البوليسي أو العقاب من قِبل الحكومة، معارضة تصطدم فيُقب عليها وتُخرس ألسنتها وتُغلق جرائدها، أو يحدث ما هو أخطر وينشأ صمت رهيب والصمت معناه استنفاد حتى وسيلة التصادم ومعناه التحفز وكل ما يمكن أن يعقبه من انفجار.

العودة للتحاور علامة صحة، بل في رأيي علامة تفاؤل؛ فأنت لا تحاور ولا تسأل شخصًا أنت قد فقدت الأمل فيه، إنك لا توجِّه الأسئلة مهما كانت جارحة وشائكة إلا لأن عندك ثقة أنك على الأقل ستظفر بجواب، مهما كان رأيك فيه ومهما غضبت منه فالمعنى الواضح لإصغائك له، ولو لكي تثور عليه أن عندك أملًا أكيدًا أن تساؤلك غير موجَّه إلى مذنب أو متهم؛ فنحن لا ندخل في حوار مع من قررنا أنهم مدانون أو متلبسون ومجرمون.

العودة للتحاور والتساؤل إذن علامة على نبذ لغة بدائية غير متحضرة والدخول في مرحلة إنسانية على الأقل ووسيلتها متمدينة.

أما أن هناك أزمة حوار فتلك حقيقة واضحة جلية، ومثلما أن أزمة المرور سببها الكم الهائل من السيارات التي تتزاحم ليكون لها أولوية السير، وضيق قنوات المرور، فأزمة الحوار، عند شعبنا كله، وبالذات عند شبابنا سببها كثرة الأسئلة المطروحة، وإلحاحها،

وتزاحمها في العقول وعلى الألسنة، وضيق قنوات الاتصال الكائنة بين السائلين والمسئولين، وندرة الظفر بجواب، هذا إذا تم الظفر بجواب أصلًا؛ فعدد الذين يملكون القدرة على الإجابة قليل جدًّا، وكمُّ الأسئلة هائل جدًّا، ولقاء الشباب بالمسئولين الذين يستطيعون أو يملكون الحق في الإجابة أحداث نادرة في حياتنا السياسية والشبابية، وتكاد فُرص اللقاء تنحصر في الندوات التي تُخصَّص لقيادات شباب الحزب الوطني الحاكم، فما بالك بقواعده الشبابية، وما بالك بشباب المعارضة أليس لهم نفس الحق في طرح الأسئلة والظفر بإجابات بل ربما تكون حاجتهم لهذا أكثر حدة وإلحاحًا، بل ما بالك بجماهير الشباب وجماهير الشعب عامة والوزراء لا يلتقون بهم وحتى أعضاء مجلس الشعب والشورى لا يجتمعون بهم إلا إذا اقترب موعد الترشيح والانتخاب، مسألة لا تحدث إلا كل خمس سنوات مرة.

والخميس الماضي قضيتُه في الإسكندرية في ندوتين في مجالين مختلفين: تمامًا إحداهما كانت مع قطاع من قطاعات المرأة، وكنت أتحدث فيها عن أهمية أن تكون المواطنة امرأة أو بمعنى أعم أهمية وخطورة المرأة في حياتنا باعتبارها في أي مجتمع هي المسئولة الأولى في رأيي عن أي تقدم يحدث وأيضًا مسئولة عن تخلف أي مجتمع إذا عمَّه التخلف، ومسئوليتها تلك تزاولها من خلال نظرة المجتمع لها، ضيقها أو اتساعها، ومن خلال كم الحرية المسئولة الممنوحة لها، ولأنها قضية هامة جدًّا، وخطيرة ونحن غير منتبهين لها أبدًا وتعتبر قضية المرأة عندنا وكأنها نوع من تحصيل الحاصل أو أنها لا تشكل أهمية حتى لدى المرأة نفسها مع أننا لو عرفنا لأدركنا أن ثلاثة أرباع ما نشكو منه من مشاكل لن تحل، وأكرر لن تحل إلا على يد المرأة المصرية أو على الأقل بمشاركة متحمسة وصادقة وإرادة منها، أقول لأنها قضية هامة تمامًا وموضوع مستقل فأرجو أن أتمكن من بحثها في مرة عاجلة قادمة.

الندوة الأساسية كانت في كلية الآداب وكان الأستاذ الدكتور عاطف غيث عميد الكلية قد تفضل وجعلها ندوة مفتوحة حضرها جمهور عريض من شباب كل الكليات ومن مثقفي ومحامي وأطباء الإسكندرية.

وكان اللقاء حافلًا.

حافلًا بالنسبة لي أيضًا؛ فأنا لا أذهب لهذه اللقاءات لكي أتخذ وضع الحكيم المرسَل، وأنا أذهب أولًا وأتحمس للذهاب لأستقبل وأتعلم وأتواصل مع جماهير شعبنا. لقد انتهى تمامًا عصر الكاتب الحِرَفي الذي يُجيد صناعة القصة أو المسرحية أو يديج المقالات من منزله أو برجه، كاتب العصر الحديث قد أصبح أكثر إدراكًا لوظيفته الاجتماعية

كمساهم في خلق الضمير العام يعيش قضايا الناس وكأنها قضاياه الخاصة، يأخذ من الناس ويعطي الناس ويعلم ويتعلم ويكتشف ويستلهم مواضيعه. وحتى أشكاله الفنية المتطورة، والطليعية وهو داخل أحضان شعبه سامعًا دق قلبه مطمئنًّا على نبضه مفتوح العينين تمامًا على كل كبيرة وصغيرة من أمور حياته وهمومها، أفراحها وعثراتها، فمن الشعب حيًّا ومنتجًا يستمد الكاتب حياته ومن اجتهادات الناس الذاتية في الإبداع يستلهم ويوحى إليه بما لم يكن مطلقًا يستطيع الوصول إليه لو قضى عشرات السنين في صومعته وأمامه الأكوام من أدوات المنبهات والمغيبات، مثلما كان الناس قديمًا يتصورون حياة «التفنين». لقد سمعت من عجوز معاصر لسيد درويش في الإسكندرية أن ذلك الموسيقار العبقري كان يهوى التجول في شوارع الأنفوشي وغيرها من الأحياء، يستمع إلى نداءات الباعة الجائلين على بضاعتهم، ويتأمل طريقة كل منهم ومغزاها ومرماها، وأن كثيرًا من ألحانه الفذة قد تفتقت عنها قريحته وهو سائر يتابع صوت بيَّاع عنب أو تين، ويصف بضاعته بكلماته المنتقاة الخاصة وكيف يحولها إلى نداء وغناء. بالطبع لم يكن سيد درويش يقتبس ما يسمعه كما قد يُساور البعض وإنما مجرد وجوده في هذا الاحتشاد الشعبي المغني الحي كان يحرك طاقة الإبداع والخلق فيه فتنفجر عنه ومن ينبوعه الدرويشي الخاص مادة فنية كان لا يمكن أن تتدفق إلا بمثل تلك المعايشة للأصل في كل شيء، الشعب.

وأنا لا أريد الحديث عن كثرة الأسئلة التي دارت عقب الندوة التي كان موضوعها الوجود المصري الحالي إلى أين؟ والتي حاولت فيها أن أوضح أننا ومنذ اليوم الأول لمحاولتنا أن ننفض جبال التخلف وأن ننطلق في عصرنا الحديث الذي بدأ منذ ما يقرب مائتي عام، تلك الانتفاضة التي جعلت المصريين خلال ما يقل عن الربع قرن يصنعون السلاح والأساطيل ويبنون الجيش الحديث والطب الحديث والهندسة الحديثة، وفي أقل من خمسة وعشرين عامًا يطرقون أبواب الآستانة عاصمة الإمبراطورية العثمانية بعنف وتصل الجيوش إلى قلب أفريقيا مطبِّقة فكرة الوحدة بلغة ذلك الزمان موغلة في تطبيقها إلى الجزيرة العربية مشتبكة في معركة القرن الرهيبة والتي تكاتفت فيها أساطيل كل دول العالم الكبرى في ذلك اليوم، تصوروا أسطولًا يبنيه ويسلحه المصريون في ترسانتهم التي تحولت الآن إلى ملعب كرة قدم، يبنون أسطولًا هو المقابل للسلاح الجوي في القرن العشرين، تحتشد أساطيل بريطانيا وفرنسا القوتين العظميين في ذلك الوقت مع الأسطول العثماني وحلفاء آخرين، أي كانت المعركة دائرة بين مصر وحدها من ناحية وبين كل أوروبا (أي كل العالم).

منذ ذلك اليوم بنت الاستراتيجية الغربية سياستها على أساس إبقاء مصر في حالة حصار أو تحجيم. وما تاريخ المائتي عام إلا تاريخ المحاولات المصرية الدائبة من أجل فك الحصار ورفع الرأس، الحركة التي لا تكاد تبدأ حتى تستشري وحتى تسرع الدولة الأقوى في المعسكر الأوروبي على توجيه ضربة قاضية جديدة للوجود المصري لكي تعود بلادنا وشعبنا إلى حالة الحصار والتحجيم، ثورة عرابي محاولة لفك الحصار بالخديعة والرشوة والخيانة تم وأدها، لم تكد تمضي خمسة وثلاثون عامًا أخرى حتى بدأت مصر تدمدم وتستجمع قواها وتثور ثورة ١٩ وكان لا بد من استعمال سلاح أخبث لاحتواء الثورة وإفشالها وإعادة الحصار من جديد، ولعبت إنجلترا بالحركة الوطنية لعبة الحكم وصراع القط والفأر بين حزب الأغلبية الوطني الوفدي وأحزاب الأقلية المصطنعة والمدعومة من الإنجليز والقصر، ولكن، ورغم هذه اللعبة الجهنمية لم تكد تمضي ثلاثون عامًا أخرى حتى انتفضت مصر بثورة يوليو التي غيَّرت من تاريخ مصر والعرب وأفريقيا وحتى وصل نفوذها إلى أمريكا اللاتينية وكل العالم الثالث، وأكثر من ضربة مجهضة وُجِّهت للثورة حتى جاءت ضربة قاضية في ٦٧ لإعادة الحصار والتحجيم، ولأن الثورة رغم الهزيمة العسكرية كانت لا تزال مستعرة فلم تكد تمضي ست سنوات على الهزيمة حتى انتفض الجيش المصري وكاد لولا التآمر ووقوف أمريكا بجلالة قدرها كلها مع إسرائيل أن تصل إلى قلب إسرائيل نفسها وتحل القضية الفلسطينية بالمرة.

وكان لا بد من تكتيف الأسد هذه المرة وليس فقط محاصرته وتحجيمه، وبالسلام الذي لم تحترمه إسرائيل يومًا كتفونا، وعلى لسان الرئيس مبارك قال بنفسه إن إسرائيل وهي تعد العدة لغزو لبنان وضعت أولًا معظم جيشها ١٦ أو ١٧ فرقة على حدودها الجنوبية معنا في صحراء النقب وتجاه سيناء المنزوعة السلاح بحكم معاهدة السلام لكي ينطلق الجزء الأصغر من جيشها يعربد ويقتل ويجتاح لبنان ويدك بيروتنا ويقتلع المقاومة منها ويذبح تحت سمع وبصر تعهد أمريكي مكتوب بضمان سلامة المدنيين بعد جلاء رجال المقاومة، يذبح الفلسطينيين العزل في صابرا وشاتيلا ويضرب بقرار «الشريك الكامل» في كامب ديفيد عُرض الحائط وتعهده له وتجتاحه حمَّى اغتصاب الأرض وإجلاء أصحابها وبناء المستوطنات وبالعافية والقوة الغاشمة «يفاوض» اللبنانيين، وشريره الجبان شارون يأمر بخصي أي شاب عربي يتمرد في الضفة أو في غيرها.

وليس هذا هو نوع الحصار الوحيد؛ فهو ليس حصارًا ولا تحجيمًا سلاميًّا فقط ولا عسكريًّا فقط، ولكنه عربي واقتصادي أيضًا، والغريب في الأمر أن مصر وهي تتململ

محاولة بكل ما يملك المحاصر من قدرة وقوة أن تفك هذا الحصار، الغريب أن كثيرًا من الدول العربية التي يستعملون في وصفها كلمة معتدلة تصرُّ — لا تزال — على إبقاء مصر على وضعها ذاك، ناسية أو متناسية أو ربما متأكدة أن هذا هو ما تريده إسرائيل بالضبط، إبقاء العزلة والقطيعة والتلكؤ في إعادة العلاقات والإصرار على إلغاء كامب ديفيد أولًا وهم يعلمون تمامًا أن هذا معناه الدخول فورًا في حالة حرب مع إسرائيل. مصر بوضعها المحاصر الحالي وبحكم قرار الدول الثلاث بريطانيا وفرنسا وأمريكا أن يكون التوازن العسكري والسلاحي باستمرار لصالح إسرائيل بحيث أن يتفوق سلاحها وجيشها على كل سلاح وجيوش الدول العربية مجتمعة. يعلمون تمامًا هذا ويصرون على هذا الشرط المعجز، بل ويصرون على الحصار الاقتصادي أيضًا؛ فالمال العربي يُستثمر في كل مكان إلا في مصر، ولبنان حريصون هم ونحن أيضًا على عضويته في الجامعة العربية بينما لبنان الرسمي يتفاوض فعلًا مع إسرائيل ولم يطالبه أحد بقطع هذه المفاوضات كشرط لإبقائه عضوًا في الجامعة ولم يقاطعه أحد، العكس هو الصحيح والبحث دائب عن كيفية دعم الموقف اللبناني ومساعدته على إعادة بناء نفسه.

وأنا لا أسوق هذا الكلام من قبيل العتب أو اللوم ولكن لأوضِّح فقط مقدار الحصار المضروب حولنا، وكأن قوة مصر معزولة عن القوة الذاتية العربية وكأن إضعافها ليس إضعافًا للعرب عامة، وكأن الزمن ليس عاملًا مهمًّا أبدًا، فلتعد العلاقات بعد سنة بعد خمس بعد عشر، ليس هناك وجه أبدًا للاستعجال فالعجلة من الشيطان.

وإسرائيل سعيدة تمامًا إذ عجلة الشيطان، شيطانها، تدور مع الزمن، ولصالحها وهي الأخرى، مثل سوريا، ليست في عجلة من أمرها ومن أمر الجلاء عن لبنان، ما هذا الوضع العبثي؟ ولمصلحة مَن؟ وهل هذا هو الرد على موقف مصر من الغزو الإسرائيلي للبنان، ومن الحرب بين العراق وإيران وعلى رفضها الباتِّ لأية قواعد عسكرية أجنبية ستصوِّب مدافعها عبر البحر الأحمر، وصمودها، وإصرارها ألا تخرج من الحصار، ساعدنا أحد أم لم يساعدنا إذ هو أمر لا نملك له ترددًا أو تأجيلًا، وإذا كانوا يريدوننا أن نختنق بأصابع مطبقة على رقبتنا من الخارج وفي تنسيق غريب مع أصابع أخرى تحكم القبضة من الداخل فإن مصير الحصار إلى زوال؛ فخمسة وأربعون مليون إنسان لا يمكن أن تحاصرهم حفنة، وإذا كانت «الموضة» السائدة هي أن يُنقب خلف كل خطأ في حروب مصر مع إسرائيل أو سياستها وسياسيِّيها أو حتى في صميم قضاياها الداخلية دون أن يجرؤ كاتب مصري أو سياسي مصري أو صحفي مصري على أن يخدش حياء أي

نظام حكم عربي أو يشير إليه بأصبع ماسَّة، فإني سأسمح لنفسي أن أفض ستار النفاق هذا وأقول إن الدول العربية ترتكب خطأً أكبر بهذا الموقف المساعد تمامًا لحالة الحصار المضروبة حول مصر، وأن ما قامت به مصر إلى درجة سحب سفيرها وإعلان عدم عودته إلا بجلاء إسرائيل عن لبنان لموقف لا يمكن أن يتجاهله ويتجاهل المعنى السياسي الذي وراءه إلا أناس عن عمد يريدون أن تظل مصر بعيدة عن وضعها العربي الطبيعي ليبقوا هم وحدهم أبطال وقادة الأمة العربية. حسن جدًّا. ليبقوا قادة أمة لا مثيل لما وصلت إليه من ضعف بفضل هذا الموقف. ولكني أقولها وأنا مؤمن تمامًا بعروبتي وإيماني بمصريتي وبشرقاويتي أنه موقف تستنكره الشعوب العربية كلها من المحيط إلى الخليج، وإذا كان قِصَر النظر لدى البعض يجعلهم يعتقدون أن من الممكن أن يكسب العرب بدون مصر قضية العرب فإنهم بهذا يعتبرون ضد القضية العربية نفسها ولحساب العدو إن كانوا حقيقة يعتبرون إسرائيل عدوًّا ويصرون في إذاعتهم لدى الإشارة إلى إذاعة إسرائيل: قالت محطة إذاعة العدو. حاربوا إسرائيل إذن ما شئتم بعداوتها إذاعيًّا، وحاربونا فعلًا بالحصار الذي تضربونه حولنا فهو الوضع المثالي لضياع القضية الفلسطينية والقضية العربية، ومن قال إنها قضايا تهمُّكم خارج إطار كلمة إذاعة العدو.

يا بعض الحكام العرب، هذا موقف واضح عار لا تخفيه ورقة توت ولا صوت إذاعي جهير يندد بالعدو، هذا موقف ستحاسبون عليه بشدة، ويوم الحساب قريب.

ولن نستطيع هذه المرة، لاعتبارات المساحة، أن نناقش، نطرح ونناقش الأسئلة الخطيرة التي أُثيرت في ندوة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، ففي المرة القادمة إن شاء الله سأختار عددًا من أدق الأسئلة التي يريد الشباب ويلحُّ أن يعرف عنها إجابات، وفيها — في تلك الأسئلة — سأقول رأيي، وإلى الأسبوع القادم بإذن الله.

في قلب الشباب

أحسست بانبهار شديد وأنا أدخل معرض الكتاب لأُقدم الندوة الخاصة بي، والتي أعلنت عنها الهيئة العامة للكتاب في افتتاحها للندوات التي ستعقدها تباعًا للفيفٍ من الكُتاب والفنانين، بينهم الفنان كمال الشيخ، والأستاذ أنيس منصور، والدكتور مصطفى محمود، والأستاذ ثروت أباظة، وأستاذنا الكبير الدكتور عبد الحميد يونس.

لم أصدق نفسي وأنا أدخل القاعة التي ستُعقَد فيها الندوة، الازدحام ليس هائلًا فقط ولكنه أكبر ازدحام على لقاء أدبي أو فكري شهدته في حياتي، الواقفون أضعاف أضعاف الجالسين، والمحتشدون خارج الباب أكثر من الاثنين، وأنا بين الأجساد المتلاصقة أحاول أن أجد طريقي للمنصة، شيء لم أشهده ولم أكن أتصوَّر حدوثه، الندوة ذهبت إليها لأن الإنسان يكتب وفي ذهنه فكرة مبهمة تمامًا عن الذين يقرءونه، ولماذا يقرءونه، وهل يَعُون ما يقرءون حقًّا، وهل يحاسبونه على كلماته، والأجيال الجديدة هل لها مثل حنكة الأجيال الغابرة أم أنهم أكثر وعيًا وذكاءً وجرأة، عشرات الأسئلة احتشدت وملأت رأسي، الزحام غريب لا يُوصَف، الدكتور عز الدين إسماعيل في حيرة بالغة هو الآخر، أخبرني الشاعر مصطفى الضمراني أنه وجد عينيه تحتقنان بدموع التأثُّر. الشباب بخير، القراء بخير، الدنيا لا تزال بخير. الموجودون لهم ساعات وهم ينتظرون الأسئلة التي وجدتها مكوَّمة فوق المنصة بالمئات. الأسئلة التي وردت لا مجال لحصرها. المعرض نفسه مظاهرة هائلة الضخامة من أجل الحصول على الكتاب. التنسيق بين دور النشر وطرق العرض رائع، كل ما يؤذي الشعور هو الكم الهائل من «الزبالة» الذي تحفل به طرقات المعرض.

فجأة وجدت نفسي في مصر أخرى؛ مصر القارئة، وفي القاعة الكبرى وجدت قُرائي أو بعضهم. إذن هذه هي العيون التي تُقبِل أو تزوَرُّ عما أكتب. هذه الوجوه؛ الفتيات،

الملثَّمات، والسافرات، ومرتديات آخِر صيحات الموضة، ولا شاب يضايق الفتاة، الكل في حالة ترقُّب عظمى وكأن هذا اللقاء سيُسفِر عن حل مشاكل الدنيا، أو على الأقل كل مشاكل الشباب.

وسط الغِبطة والارتباك والذهول، بدأت أتكلم، وبعد ساعة انتهيت، وأمطرتْ سماء القاعة وجوانبها وابلًا آخَر من الأسئلة، وغرق الأستاذ سيد وكيل الوزارة والسيدة سميحة غالب المسئولان عن انتقاء ما أجيب عليه في وسط الكومة الهائلة التي مضت تتزايد بطريقة منذرة بالخطر، بل الخطر حدث فعلًا وسقطت «البرتيكابلات» التي أقامتها الهيئة بعشرات المتشعبطين فيها والواقفين عليها.

وبدأت أُجيب على الأسئلة ولكن إجابة قطرة في بحر، التساؤلات تمتد عبر حياتنا كلها وحياتي وكتابتي وآرائي ومواقفي، حتى لكأنني في محكمة قُضاتها آلاف. ومن حُسن الحظ أن الاتهامات نادرة وأن الأسئلة الشائكة لم تصلني.

وكان يومًا من أسعد أيام حياتي.

ويوم الثلاثاء الماضي كانت الندوة التالية في جامعة المنصورة، أو بالأصح أخذت مسئوليتها اللجنة الثقافية في كلية الحقوق والمشرفون عليها من أساتذة وطلبة، وكان المدرج الكبير في الكلية كامل العدد إلى الدرجة التي ضحك فيها السيد عميد الحقوق في الجامعة ذاكرًا أن هذه أعلى «نسبة حضور» شهدتها الكلية، وأشهد أني لم أرَ في حياتي وفي أية جامعة أجنبية حتى — رغم عشرات الندوات التي عقدتها — جمهورًا طلابيًّا شبابيًّا يُصغي بمثل هذا الانتباه والتحضُّر، وفي العادة كان الطلبة المتدينون لا يعترفون ولا يدعون إلا أولئك الذين يعتبرونهم متطرفين في مناصرتهم لدعاواهم، وكان اختيارهم لي وإصرارهم الذي استغرق شهرين على دعوتي أنا مبعثَ حيرتي التي زالت تمامًا وأنا أجدهم قد بدءوا يجيدون الإصغاء ويلجئون للحوار.

وأيضًا هالني كمُّ الأسئلة الذي تراكم أمام الدكتور عبد العظيم المشرف على الندوة. كمٌّ هائل تمامًا لدرجة أني لم أجِبْ إلا على عشرة أسئلة وأصرَّ الطلبة والأساتذة على تحميلي بقيتها، ولم يجدوا شيئًا يستطيع أن يحتويها سوى صندوق كرتون كبير.

وعدت إلى بيتي ووضعت الأسئلة التي تجمَّعت في ندوة معرض الكتاب فوق الأسئلة التي أحضرتها من جامعة المنصورة، وأحسستُ حقيقةً بالخوف؛ فعددها مخيف فعلًا إلى درجة أني حين حاولت إحصاءها ووصلت إلى رقم ١٣٠٠ تعبت وأجَّلت بقية الإحصاء العددي — مجرد الإحصاء العددي — إلى فرصة أخرى.

والآن وأنا أكتب هذه الكلمات أمام صندوق الشاي الذي تملؤه الأسئلة، وأمامي مهمة أشقُّ كثيرًا، فهدفي اليوم أن أضع أمام المسئولين أولًا، وأمام القراء ثانيًا، وأمام الشباب والفتيات على وجه التحديد، نخبةً من أسئلتهم تلك، وكم كان بودي أن أرسلها جميعًا إلى كل مسئولي دولتنا من الرئيس حسني مبارك إلى رئيس الوزراء، وإلى الدكتور عبد الأحد جمال الدين والدكتور مصطفى كمال حلمي والأستاذ عبد الحميد رضوان والأستاذ صفوت الشريف ليقرءوها ويضعوا آذانهم على نبض الشباب؛ فالشباب في حالة تساؤل مخيف، والتساؤل بداية الطريق للمعرفة، والمعرفة بداية الطريق للعثور على الذات ثم فرض الذات.

وإذا كنت هنا سأختار نخبة من هذه التساؤلات فَلْيفطن القارئ الذكي — ومعظم قرائنا أذكياء أكثر بكثير مما يتصوَّر بعض كُتابنا — ليفطن القارئ إلى الإجابات الكامنة في نفس السؤال؛ فبعضها أسئلة مُجابة؛ أي حقائق.

ولنبدأ.

- ما رأيك في الدبلوماسية المصرية الآن، خاصةً بعد تولِّي الرئيس مبارك المسئولية؟ وما رأيك في بعض التصريحات التي يتطوَّع بها أحيانًا الدكتور بطرس غالي ونحسُّ أنها معتدلة أكثر من اللازم؟
- ما هي عيوب يوسف إدريس؟ حدِّثنا عن أخطائك.
- ما رأيكم في التطرف الديني لدى الشباب، هل هو ظاهرةُ فراغٍ ديني أم امتلاء ديني؟
- الأصالة والمعاصرة، وأين نحن منهما؟
- لماذا لم يأخذ أساتذة جامعاتنا موقفًا من إقصاء زملائهم في العام الماضي، حينما استقال لطفي السيد حين أُقيل طه حسين؟
- هل يأجوج ومأجوج قوم حقيقيون، أو كانوا حقيقيين؟ هل المسيخ الدجال من علامات الساعة؟
- هل المؤامرة على العقل العربي التي تحدَّثتَ عنها منذ سنوات في إحدى ندواتك بالدوحة، لا تزال قائمة؟
- الملاحظ الآن في مجتمعنا أن القدرة الاقتصادية لا تتوافر إلا للطبقات غير المثقفة، والتي لا يُنتظَر منها استثمار أموالها في أي تصنيع أو إنتاج، فمثل هذا التفكير يحتاج إلى عقل مثقَّف مثل طلعت حرب وغيره، بينما أصحاب العقل والضمير

ليس لديهم أية قدرة اقتصادية، فكيف يمكن في رأيكم أن يحدث انفتاح إنتاجي بعقليات طُفيلية أو متخلفة؟

- ما رأيكم في الإعلام السياسي هذه الأيام؟ وإذا كنا نقول الآن إنه قد خدعَنا في الماضي، فما هو الضمان ألَّا يكون الآن أيضًا يخدعنا؟ وإذا كان سليمًا، فكيف نعرف ذلك؟
- الجامعات الآن تُخرِج أعدادًا هائلة من شبابٍ أشباهِ متعلمين، فلماذا لا نُحوِّلها إلى مدارس عليا، ونقصر أعدادًا محدودة جدًّا من الجامعات والدارسين لتتبوَّأ مراكز التفكير والتخطيط العليا؟
- الاقتصاد المصري، ما هي مشكلته وحقيقتها بالضبط؟ اليومَ نسمع قرارًا بأن الاقتصاد المصري في أحسن حال وعلى خير وجه، وغدًا نسمع قرارات أخرى تقول يوجد عجز في الميزانية! فما هي الحقيقة؟
- ما هو مفهوم السياسة في نظر الأديب؟ وهل تطبيق الشريعة الإسلامية سيمنع السينما والمسرح والإذاعة والتليفزيون والشعراء والكُتاب؟
- ما هو تصوركم للتغيير الذي أحدثته السنوات العشر الماضية في الحياة الاجتماعية في مصر، سلبية كانت أم إيجابية؟
- لماذا يسيطر الحزب الوطني ورجاله على جميع مجالات الثقافة والإعلام؟
- لماذا توجد معوقات كثيرة في طريق الشباب، وبالذات طريق الأدباء الشبان؟
- ما رأيكم في حكم لجنة «كاهان» الإسرائيلية بإقصاء شارون؟ هل هي لعبة لإخراج إسرائيل نظيفة اليد من الاجتياح والمذبحة، أم أن إسرائيل دولة ديمقراطية حقيقية؟
- هاجم البعض فكرة القومية العربية لأنها تحمل في طياتها الدعوة إلى الإقليمية، وهو ما يراه البعض ضد الإسلام. نريد أن نسمع رأي سيادتكم في هذا الموضوع الهام.
- ما هو سبب حرماننا من النشاط السياسي داخل الجامعة، مع أنه لا يوجد له نظير في أي مكان في الدنيا؟
- ما رأي سيادتكم في اتحاد طلاب أغلبه من أساتذة الجامعة؟
- ما هو موقع الأدب المصري والعربي من الأدب العالمي، ولماذا لم تتحمس كما هو مفروض لترشيحك في العام الماضي لجائزة نوبل، مع أن الترشيح يعادل

الحصول على الجائزة؛ لأنه كما قال الدكتور صبري حافظ الأستاذ في جامعة استوكهلم التي رشَّحتك: ينال الكاتبُ الجائزةَ بعد ترشيحه بأعوام قليلة جدًّا؟

- نحن نعاني من تشتُّت هائل بين معارَضة تسخر من الحكومة، وحكومة تتهم المعارضة بالانتهازية والشيوعية.
- ما هي النتائج التي ترتبت على زيارة الرئيس حسني مبارك لأمريكا وأوروبا أخيرًا؟
- هل أنت من مشجِّعي المرأة العاملة وهي متزوجة، أم تفضِّل تفرُّغَها لشئون منزلها، مع أنني كفتاة أفضِّل النوع الأول؟
- التغيير مَطلب شعبي، فما رأي سيادتك في التغيير الذي يريده الشعب، وهل يُعقَل أن القيادات الحالية، ومعظمها كانوا مسئولين فيما مضى ومسئولين عما وصلنا إليها الآن، ستكون قادرةً على أن تصنع التغيير الجديد الذي نطمع فيه؟
- في إحدى مقالات إبراهيم الورداني رد على الكاتب الذي كتب عنه رأي الدكتور طه حسين فيه بقوله عليه — على إبراهيم الورداني — أنه كاتب جهول رضي عنه جهله ورضي عن جهله. قال إبراهيم الورداني في رده: إن هذه العبارة وجَّهَها الدكتور طه حسين إلى سيادتكم: فلماذا لم ترد عليه؟ مع أن الجميع يعرفون أن العبارة قِيلت في الورداني؟
- الترجمة الحقيقية لوصف حالة الشعب بـ «الأباثي» التي ذكرتها في إحدى مقالاتك هي في رأي «التولة» أو أن «الشعب متوول» بالضجيج الداخلي والخارجي، فهل هذه هي الترجمة الصحيحة؟ وأتوقَّف هنا، ولنا عودة لبقية الأسئلة.

وسيلاحظ القارئ أني لم أجب عليها؛ فالإجابة تحتاج إلى وقفة لدى كل سؤال، وهو ما أرجو أن أصنعه في القريب إن شاء الله. وفي مرة قادمة سأوجز مجموعة أخرى من الأسئلة الحائرة والشائكة معها.

والغريب، أن معظم هذه الأسئلة، كما قد يُلاحِظ القارئ ليست موجَّهة لي شخصيًّا، ولكنها في حقيقة أمرها موجَّهة لـ «مَن يهمهم الأمر». فهل أرجو هؤلاء السادة — كل فيما يخصه، وكل بطريقته — أن يلهمه السؤال بإجابة أو بعمل أو موقف يروي بعض عطش هذا الشباب الظامئ إلى المعرفة والمصلحة العليا، الممتلئ حماسًا وانتماءً لشعبنا وبلادنا وليس كما يُشيعون عنه أنه قد فقد انتماءه.

إنني لم أسجل هنا انطباعاتي الشخصية التي سوف أُعطيها بإذن الله بعد ندوة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، التي ستُعقَد يوم الخميس القادم، والتي أرجو أن أخرج منها ومن الندوات الأخرى بتقرير وافٍ عن قلب الأمة الجديد المفترى عليه، ذلك القلب الذي لا يزال بخير وينبض بالخير والحب.

أسئلة حائرة

سؤال: إننا نريد الحقيقة.

كيف نحصل على الحقيقة؟ هل من الحكومة؟ أم من المعارضة؟ أم من إذاعات العالم؟ أم نبحث عنها نحن أنفسنا؟

محمود عبد المقصود
جامعة الإسكندرية

أعتقد أن التساؤل الأخير في سؤالك، هو عين الحقيقة والصواب؛ فالوصول إلى الحقيقة ليس بالأمر السهل. وكل هذه الجهات التي ذكرتها — وبما فيها ما قد تقرؤه لي أو لغيري — هي في الواقع ما يسمونه حقائق ذاتية أي رؤية للحقيقة من منظور إنسان أو حزب أو دولة؛ ولهذا قبل أن تسمع لا بد أن تعرف من القائل، وما هي مصلحته الذاتية في قول ما يقول، وما هو تاريخه في القول والفعل، ومسلمًا بهذه التساؤلات ومجيبًا عليها بينك وبين نفسك، استمع للجميع واقرأ — على هذا الضوء — للجميع ثم اجلس، وحدك، وضع كل ما سمعت وقرأت أمامك، ثم «كوِّن» لنفسك رأيك الخاص الذي قد يتفق وقد لا يتفق مع أي من الآراء الأخرى وتمسَّك بهذا الرأي تمامًا إلى أن تبدأ تتجمع لديك شواهد كثيرة تجبرك على البداية في إعادة النظر، وبالطريقة التي ذكرتها آنفًا أعد النظر.

وأخيرًا أقول لك ليس أصعب من تكوين رأي خاص وإيمان خاص ولذلك يستسهل البعض كثيرًا أن يضيعوا كالقطيع، وينضم لهذا الرأي الجاهز أو ذاك، وتلك هي الكارثة التي أُنشئت الجامعات لدرئها؛ فليست الجامعات وسيلة للتعليم فقط ولكنها بالدرجة

الأولى وسيلة لتعليم طالبها، وحتى أستاذها، كيف يَكون ويُكوِّن رأيًا وشخصية ولا أقول مدرسة فكرية؛ فهذا طموح أكبر من مرحلتنا بكثير.

سؤال:

(١) هل تتصور سيادتكم أننا في طريقنا لصحوة عربية بقيادة مصر العظيمة؟ وإلى أي مدًى يمكن تطورها وسيرها إلى الأمام؟
(٢) تعتبر الحركة الوطنية المصرية أغنى من كل الحركات الوطنية والديمقراطية في منطقتنا فهل تستطيع مساعدة مبارك بنفس القدر الذي ساعدتَ فيه عبد الناصر على صنع التاريخ العظيم بمصر والوطن العربي؟
(٣) قادة الفكر والحركة الوطنية يمتلكون حنكة وواقعية كبيرة لكن هناك بعض الهجوم على مبارك أو نظامه، ألا يُشكل هذا فرصة لخلق الوقيعة بين مبارك والحركة الوطنية والعربية عمومًا؟

(…)

سؤال ملحق آخر: الرجا تقييم الحقبة الناصرية والساداتية بإيجابياتها وسلبياتها، والرجا تقييم هذه الفترة القصيرة من حكم حسني مبارك مع رجاء إعطاء تصوركم الخاص عن أنسب الوسائل والطرق لوصول مصر للطريق المستقيم الذي يحقق آمال الشعب.

عادل الكردوسي
رابعة اجتماع

ملحق أخير: لماذا لا يُشتم الرئيس عندنا إلا بعد موته؟ أليس هذا جُبنًا؟ ولماذا لا يُمدح الرئيس عندنا إلا في حياته؟ أليس هذا أكثر جبنًا؟!

(…)

وأبدأ الإجابة — أو الشروع فيها على الأقل — بالإجابة على السؤال الأخير. نعم يا أخي السائل. إنه جبن ما في ذلك شك. ولكنه جبن أعتقد أن الرئيس الحاكم هو المسئول

عنه؛ فلو كان قد سمح للناس أن ينقدوه حيًّا لربما استقام حيًّا ومنع الذم فيه ميتًا. وإذا كان سيدنا عمر بن الخطاب قد استن للحكم الإسلامي العظيم سنة: من رأى منكم فيَّ اعوجاجًا فليقوِّمه. فهذا هو السبب الأول في سيرة عمر العَطِرة بعد استشهاده فلم يجد نقَّاده وأعداؤه ما يقولونه عنه ذمًّا بعد موته فقد كانت لهم فرصة قوله في حياته.

أما تقييمي للمرحلة الناصرية أو الساداتية أو تلك الفترة القصيرة من حكم الرئيس مبارك فذلك في حاجة إلى كُتب. ولقد حاولت قدر طاقتي وقدر المسموح به أن أُقيِّم أعمال عبد الناصر العظيمة في حياته، وكذلك حاولت في الفرافير وغيرها من المسرحيات والمقالات والقصص (راجع العملية الكبرى والخدعة ورأس الجمل والرحلة التي نُشرت بالأهرام في أعوام ٦٨، ٦٩، ٧٠) أن أنقد كثيرًا من عيوب النظام الناصري وعلى رأسها انفراده الكامل بالرأي والحكم مما يمكن أن يكون قد أعطى نظامه بعض الحصانة والقوة الظاهرة ولكن على حساب إضعاف الشعب والتنظيمات الشعبية، بل أذكر أني قلت في حديث في التليفزيون وإبان مجد عبد الناصر وقوته، قلت: إن الزعيم القوي يُضعف شعبه، والشعب القوى ليس في حاجة إلى زعيم.

أما الرئيس السادات فلقد قلت رأيي في إبَّان حكمه أيضًا، وفي مقالات الأهرام أيضًا — تلك التي سُمح بنشرها — وأحيلك إلى مقالات مثل: تعالوا ننظف مصر (٧٥) وتعالوا ننظف مصر مرة أخرى (٧٥) وأحدد ذلك العام بالذات لأنه كان هامًّا في حكم السادات؛ ذلك الذي بدأ الانفتاح المتسيب تمامًا يسود فيه، والديمقراطية الممنوحة تنكمش، ونتائج حرب ٧٣ المجيدة يستفيد منها أعداؤنا أكثر بكثير مما استفدنا نحن بها، بل بدأنا ندفع نحن ثمنها حين ارتفعت أسعار البترول وأسعار السلع ارتفاعًا مجنونًا أدى إلى القرارات الاقتصادية التي أدت إلى مظاهرات ٧٧. وقد أعقب ذلك مبادرة القدس ومعاهدة كامب ديفيد والقصة معروفة وحديثة جدًّا، وكل منا قد قال فيها رأيه بطريقة أو بأخرى، ولن أنفرد باستعراض رأيي خاصة والساحة حافلة بتفنيد حكم السادات قطعة قطعة، وأنا لا أحب أن أقول رأيي وسط زحام هائل. أما تقييمي لفترة حكم الرئيس مبارك القصيرة فأبدأ بأن أدعو الله أن يُجنِّبه كل أخطاء الحكام السابقين عليه بما فيها الخطأ الأكبر خطأ منع نقد الحاكم وبالذات منع نقد رئيس الجمهورية؛ إذ هو العيب الذي يؤدي دائمًا إلى الانفراد الصارم بالرأي والانفصال عن الواقع وفي النهاية الصدام، وتقييمي لمرحلة مبارك سيكون إلى الآن — على الأقل — في صالحه؛ فهو قد أعاد جزءًا كبيرًا من الديمقراطية التي كانت قد أُلغيت تمامًا في أواخر عهد السادات، وأصبح للمعارضة صحفها التي تقول

ما تشاء حتى في سياسة مبارك نفسها وتعارضها، ورفض الخضوع لإسرائيل وزيارة القدس وقال لهم بحسم مطلق: لا، لن أذهب. ولم يذهب. وفي أحداث لبنان قام بكل ما استطاع أن يقوم به، وبما لم يستطع أن يقوم به أي حاكم عربي آخر وبالذات هؤلاء الحكام الذين انتقدوا وقاطعوا مصر، حتى في عهد مبارك، لتساهلها مع إسرائيل، كان موقف مبارك أكثر إيجابيةً من كل هؤلاء ولا يزال.

أما فرصة الإيقاع بين مبارك والحركة الوطنية فهي — للآن على الأقل — معدومة؛ فإني أرى له كل يوم صورًا مع زعماء المعارضة وهو يقابل — دون صور — كثيرين من قادة الحركة الوطنية والفكرية التي ذكرتها، وأعتقد أنه لا يقابلهم ليقنعهم برأيه أو فقط ليُسمعهم رأيه، ولكني أعتقد أنه يستمع وأحيانًا يقتنع.

وليس معنى هذا أن حكمه مبرأ من الخطأ؛ فهناك أخطاء كثيرة وفي كل مجال، ولكنه لا يحمل وزرها، بل لن يستطيع هو وحده أن يُصلحها، والإصلاح يأتي فقط حين يشترك الشعب وممثلوه وأهل ثقته اشتراكًا فعليًّا وكاملًا في تحمل المسئولية مع مبارك. وهذا هو جوهر الخلاف الآن؛ فالذين يطالبون بالتغيير لا يطالبون بتغيير نظام أو أشخاص أو رؤساء تحرير، إنما هم في حقيقة الأمر يطالبون بأن «يشترك» الشعب أو ممثلوه المنتخَبون انتخابًا حرًّا في تحمُّل المسئولية؛ بحيث لا يعتمد نظام وطني كنظام مبارك على مسئولين «معينين» ومن حكم سابق ساد فيه ما ساد، بل لا تكفي ثقة الرئيس مبارك فيمن يختارهم ليُحملهم المسئولية، وإنما لا بد للمسئولين على كافة مستوياتهم أن يكون موثوقًا بهم من الشعب الذي سيحكمونه.

وأنا إن شئت رأيي مع الذين يطالبون بالتشعيب — إن صحَّ التعبير — وليس بتغيير مسئول غير شعبي بمسئول آخر غير شعبي، لا بد من إشراك الشعب؛ فهو المفروض أنه يُعين الحاكم وهو المسئول عن «اختيار» أو تعيين رئيس الجمهورية، ومن حقه — ما دام هو المسئول الأول — أنه يطالب بأناس يرضى عنهم ليستمع لآرائهم وينفذ أوامرهم. وليس هناك سبيل آخر لزيادة الإنتاج — قضية الرئيس مبارك الأولى — إلا بإطلاق حرية الاختيار الشعبي؛ فلا أحد ينتج وهو مرغم على السكوت عن شخص أو أخطاء أو تاريخ رئيسه.

والقضية لا يمكن الانتهاء منها في فقرة من مقال، القضية قضية وجودنا الحاضر بأكمله، قضية حياتنا أو موتنا والكلام فيها لن ينتهي.

سؤال: ونحن بصدد قضية الوجود المصري، جدير بنا أن ننظر بعين الاعتبار إلى دور الشباب في تلك المرحلة. نحن نعاني وليس هذا إجحافًا أو تنصلًا للواقع

الذي نعيشه، إننا نعاني بالفعل من عدم وضوح الرؤية السياسية، والأمثلة على هذا كثيرة، وبحسِّ الأديب وعقلية المفكر نريد توضيح ذلك.

سالم عطا الله عطية
هندسة، الإسكندرية

سؤال ملحق: ما تفسيرك لحالة اللامبالاة والإحباط التي يعيش فيها جيلنا؟

(…)

سؤال ملحق: لقد وصلت مصر إلى ما وصلت إليه الآن من انهيار بفضل جهودكم أنتم جيل الكبار، فما رأي سيادتكم لو تتركونها لنا فقد ننجح في إصلاحها نحن جيل الشباب وكفانا ما فعلتم بها وبنا.

محمد راغب
رابعة جغرافيا

وأبدأ بالاقتراح الأخير، ليس أحب على قلبي شخصيًّا يا أخي محمد وقد جاوزت الخمسين من أن أترك البلد، وحتى بيتي، ولي أولاد في مثل عمرك وأرحل، ولكن ماذا تقترح ليفعل الكبار؟ هل نضعهم في الصحراء الغربية أو الشرقية ونلقي فوقهم قنبلة ذرية؟ أم نُرحِّلهم كالخبراء السوفييت في ظرف ٢٤ ساعة، أو نفعل مثلما فعلوا بالمقاومة في بيروت ووزعوها على أنحاء الوطن العربي؟ ماذا تقترح؟

إنني آسف إذ أقول لك إنك ضحية شعار ساد — لأسباب سياسية محضة — ليبرئ المسئولين حقيقة عن كوارث مصر بإلصاقها بجيل بأكمله من الكبار، سواء في الأدب أو في السياسة أو حتى في الجامعة، وبذلك وبدلًا من تحديد المفسد أو المسئول عن الفساد في كل جيل وتحميله مسئولية ما أفسده وعقابه، تذوب التهمة والمسئولية وتوزع على الجيل كله سواء أكان جيل الكبار أم جيل الشباب، و«يتوه» المذنب ويروح البريء ضحية المجرم. لا يا أخي ليس جيل الكبار بأكمله هو الذي أدَّى لما نحن فيه من انهيار، إنه بعض الناس المعروفين جميعًا في جيل الكبار، وليس جيل الشباب هو المسئول عن اللامبالاة والهجرة وعدم الانتماء … إلى آخر هذه التهم التي تُلصق ظلمًا وعدوانًا بجيل الشباب، فما أشهده بنفسي من انتماء جيلك لشعبنا وبلادنا لشيء يفرح القلب ويسعده حقًّا، ولكن ليس معنى

هذا أن هناك «أفرادًا» في جيل الشباب لا مبالين وغير منتمين، ولا تهمهم سوى مصالحهم الذاتية بطريقة سيئة تمامًا مثل سوء بعض الكبار. إن محاسبة الأجيال لذنب ارتكبه بعضها أحد الشعارات المغلوطة التي يحلو للبعض أن يتشدق بها، إن الرجل لا يبدأ يعطي وينضج بحيث تستفيد منه بلده وشعبه إلا بعد كفاح طويل وعنيف في بلد مثل بلادنا تنتمي مشاكله العويصة إلى مشاكل العالم الثالث، إلا بعد الأربعين وربما بكثير. ويقضى كلَّ ما قبل هذا يحاول أن يغرس جذوره في واقعه ويُعلِّم نفسه بنفسه ويؤهل ذاته للعطاء الأكبر، ورسالة الإسلام الكبرى لم تهبط على محمد ﷺ إلا وهو في الأربعين، وقد كنا في زماننا نعتبر الأربعين سن النضج الحقيقي ونحترم السن والخبرة والريادة، ولكن بعض أبناء جيلك يريدون أن يترك لهم الكبار — أي من هم فوق الأربعين — البلد ويرحلوا ليحتلوا هم المناصب والمسئوليات بل والمواهب أيضًا، وكأن مجرد اختفاء «كبير» سيجعلهم هم الكبار وكأن «الكبر» مسألة ملء فراغ. إن الكبير ليس من صنع جيله، ولا يميته اختفاء جيله نفسه؛ فشوقي وحافظ وطه حسين وعلي مصطفى مشرفة وعلي إبراهيم وأم كلثوم وعبد الحليم ومختار وسلامة موسى والنحاس وحسن البنا وأحمد حسين، لا يزالون أحياء إلى الآن وموجودين، ولم نطالب كبارًا أو شبابًا بترحيلهم وإفراغ مصر منهم لنوجد نحن الأحياء، بالعكس، نحن نطالب بأن تُثرى مصر أكثر وأن يكون فيها عشرات وعشرات، ومئات من أمثالهم لو أمكن، فلا يمكن أن «يكبر» شاب، باختفاء كبير، بالعكس سيصغر لأن شعبًا لا يملك كبارًا وتراثًا وحملة تراث هو شعب فقير متخلف لا يمكن أن ينتج شبابًا غنيًّا كبيرًا، ربما ينتج «أكِّيل» عيش أو مسترزقًا يرى في الآخرين مجرد مزاحمين له في أكل العيش، ولكنه أبدًا لا يمكن أن ينتج إنسانًا كبير القلب، يحتوي الشعب وتاريخه وكل أجياله في قلبه ويحيا قضية الشعب كله قضية خاصة يوليها كل حياته. ترى أهكذا كان يتساءل إنسان كطه حسين في مثل سنك ويطالب بإفراغ مصر من لطفي السيد والسلطان حسين (اللذين أنشآ الجامعة التي تتعلم أنت فيها) قطعًا ما كان يقول هذا، ولم يقله أبدًا، بالعكس هو الذي طالب أن يصبح التعليم كالماء والهواء، ليخلق «منافسين» له من المتعلمين الذين قد يزاحمونه في أكل عيشه ولكنهم سيملئون مصر ثراءً، وروح أبنائها غنًى. وهكذا أصبح هو طه حسين. أما أنت فعشمي أن تفكر، مجرد تفكر في موقفك؛ لتصبح أعظم وأغنى من كل الكبار الذين خرَّجهم قسم الجغرافيا.

أما عن السؤالين الأولين، فالإجابة عنهما، هي كل ما كتبته وأكتبه ويكتبه غيري؛ فالضياع وعدم وضوح الرؤيا مسألة فراغ فكري وثقافي، وقد كانت سياسة مصر الرسمية في حقبة طويلة هي خلق ذلك الفراغ كي لا تتسرب إلى عقول الشباب إلا الآراء الرسمية، ولأن الآراء الرسمية بقيت رسمية ولم يؤمن بها أحد فقد أصبح الشباب في حاجة ماسة إلى جرعة ثقافية وفكرية مكثفة تعوِّضهم عن المجاعة الفكرية التي عانوها. جرعة تدلهم دون تحريض على ما يمكنهم أن يؤمنوا به، وعلى ضوئه يهتدون، فإذا جاءهم الإيمان جاءتهم البصيرة وجاءهم النور والانتماء.

سؤال: دور الإعلام أخطر من أي قنبلة على الأمة؛ ففي الستينات والسبعينات خرج جيل لم يعد يستطيع أن يعي ماذا يُراد منا، وتضليل لكل قيمنا ونحن أصبحنا في دوامة فلم يعد لدينا «قدوة» نحتذي بها وكل الأبطال انهارت بعد موت شخصية أو زعيم ماذا نحن فاعلون في هذا الخضم؟

ط. س. ع
كلية الهندسة

وسؤال ملحق: ما رأيك في القدوة؟

دكتور حسن الشرقاوي
مدرس الفلسفة الإسلامية، كلية الآداب

أعتقد أن سؤال طالب الهندسة، يجيب إلى ما على سؤال أستاذ الفلسفة؛ فالقدوة بمعنى أن يقتدي الناس بحاكميهم أو بأولياء أمورهم أو حتى بآبائهم مسألة كما نرى نسبية تمامًا؛ فالحاكم أو الأب أو حتى الأستاذ مهما كان بحرًا في علمه أو أداء وظيفته هو قدوة نسبية بمعنى أنه قدوة بقدر ما نعلم عنه من تصرفات علنية، أما ما يفعله حقيقة وما يُضمره فذلك علمه عند ربي، أما الإيمان الأعمى بالمسئول الديني أو الدنيوي أو حتى الأستاذ أو الكاتب أو الأب، فذلك هو الذي يقود الشباب إلى كثير من إحباطاته حين يكتشف أنه كان يعبد صنمًا أو أن لأستاذه أو لكاتبه مثالب كثيرة، حينذاك يتخبط الشاب حائرًا وقد ضاعت منه «القدوة» وقد تقوده حيرته تلك إلى الإيمان بقدوة أخرى يكفر بها بعد حين، وتكون النتيجة كارثة.

لقد قلت في الندوة، إننا في مجال السياسة والحكم لا يمكن أن نكتفي بنموذج «المواطن الصالح» كمسئول سياسي أو كحاكم؛ لأن المواطن الصالح قد لا يفهم في السياسة أو في طريقه الحكم وبالرغم من اكتمال شخصيته، أمامنا فقد تكون له عيوب خفية لا يعلمها سوى الله، وإن الطريقة الوحيدة للحكم على الشخصية السياسية هي في البرنامج السياسي الذي يتقدم به الحاكم أو المسئول والذي نستطيع أن نسائله عليه ونحكم له أو ضده، أما إقامة الأمم على أساس القدوة وحدها فذلك ما لا نجد له مثيلًا في التاريخ، وحتى في تاريخنا الإسلامي العظيم؛ فالخلفاء الراشدون اختيروا على أساس إيمانهم بالإسلام وعلاقاتهم الوثيقة برسول الله ﷺ أي على أساس برنامج ديني وسياسي أيضًا باعتبار الإسلام طريقة حكم، وأعود أكرر «اختيروا» بالبيعة ولم يفرضوا أنفسهم «قدوة» على الناس أن يؤمنوا بها سواء أرادوا أم لم يريدوا بل وحتى بعد اختيارهم هذا لم يسلموا من النقد، وما قاله الصحابي أبو ذر الغفاري في حكم أمير المؤمنين عثمان وعائلته ممكن الرجوع إليه لإدراك أن لا قدوة بشرية في الإسلام الذي جاء ليهدم عبادة الأصنام وأنه إذا كان الله سبحانه قد قال في كتابه العزيز: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ (الأحزاب: ٢١) صدق الله العظيم.

فإن الحكمة الربانية هنا أوجبت أن يؤكد الله سبحانه على كلمة «رسول الله» لم يقل محمدًا ﷺ وإنما قال رسول الله؛ لأنه يريد أن يقصر القدوة على رسول الله، أي النبي وليس على البشر حتى لو كان شخص النبي.

وإن يأتي بعد هذا من المسلمين من يدَّعون القدوة أمام الآخرين ويفرضون عليهم هذا الادِّعاء بالعنف أحيانًا أو بإطلاق الرصاصة في عين الشيخ الذهبي اليسرى فذلك هو ما يرفضه الإسلام وكافة الأديان وحتى منطق الأطفال البسيط، إن المشاكل التي خلقها هذا الزعم من أن مسائلنا كلها تحل «بالقدوة» بمجرد القدوة، قول مغلوط من أساسه «فنحن أعلم بأمور دنيانا» ونحن نستطيع بعقولنا أن نميِّز بين الطيب والخبيث، ونحن جميعًا بشر عرضة لأن نخطئ وأن نصيب، والطريق الوحيد لأن نحل مشاكلنا هو أن نلتزم جميعًا بقيم عليا سامية وببرنامج عمل، وعلى ضوء تنفيذنا لبرنامج العمل هذا والتزامنا به أو البعد عنه يتم تعيين المسئول أو إقصاؤه، وتكون «القدوة» هنا هي الالتزام سواء من المواطن أو من المسئول بهذا البرنامج والحماس في تطبيقه. أما أن يكون المسئول متراخيًا في عمله والمواطن متراخيًا في محاسبة المسئول، وكلاهما على خُلق، وأناس طيبون، أي كلاهما «قدوة» أخلاقية حسنة، فإنهم لا يُعتبرون في نظري قدوة أبدًا لأنهم حينذاك

يكسرون قاعدة أخلاقية وضعها الإسلام العظيم ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥).

أما القدوة الجامعية فلا أعتقد أنها تمنح لأستاذ حين أراد فرض رأيه تصدى له الدكتور عاطف غيث عميد كلية الآداب ورئيس الندوة ورفض أن يعطيه الكلمة حتى لا تتحول إلى سوق عكاظ خطابية، فلا يكف الأستاذ عن محاولاته ولا يرتاح إلا حين تنشر له الأهرام ثم الأخبار مقالين يضع فيهما على لساني ما لم أقله، وينسب إليَّ أني حاولت إنكار الأبوة والأمومة أولًا ثم تمزيق الأسرة ثانيًا، ودعوى إلى التحلل من الأخلاق والقيم والآداب الرفيعة ثالثًا، ثم يزعم أني أنكرت الرسالة الخاتمة التي أبلغها رسولنا محمد ﷺ ولم يكن ناقصًا إلا أن «يأمر» سيادته بإقامة الحد على شخصي، وحسنًا أن هذا النوع من التفكير لا يحكمنا وإلا لكنت الآن في عداد الأموات ظلمًا كما ترون، إني أنصح مدرس الفلسفة الفاضل أن يكون له من وزارة الداخلية عندنا «قدوة» حسنة؛ فهي تحاور من يكفرون مثله ومن كانت لديهم الجرأة للقيام بأفعال لتطبيق أفكارهم تلك، تحاورهم ولا ترميهم بالردة أو تتهم الأبرياء منهم ظلمًا وتطالب بإقامة حد الردة عليهم. إن آفة البعض منا هي محاولة فرض آرائهم بالقوة، ومن هذه النقطة تنبع وتتشعب كل آفات التطرف وجرائمه.

فليكن لك رأيك يا أخي وليكن لي رأيي، أهذه جريمة؟

حرية التعبير في الظلام

الحوادث المؤسفة، في رأيي، لم تبدأ كحوادث مُؤسفة، وكذلك لم تبدأ من فراغ. لعلنا لاحظنا جميعًا، وشيئًا فشيئًا، تسلل التعليقات الحادة والألفاظ العلنية البذيئة إلى أي تجمع جماهيري يحدث، وبالذاتِ التجمعات التي «يتوه» الفرد فيها ولا يمكن التعرف عليه جسديًّا، مثل حفلات المسرح والسينما ومدرجات الكرة ... إلى آخره.

كتب كثيرون وتحدثوا عن هذا «السلوكِ المشين» في حينه، ولا يزالون يتحدثون عنه إلى الآن وأيضًا باعتبار أنه شيء «عيب» و«لا يصح».

وهذا في رأيي حكم «أخلاقي» ولأن الأحكام الأخلاقية باستمرار أحكام ناقصة؛ لأنها تعالج ظواهر الأشياء ولا تنفذ إلى أعماقها، فقد كان من الأفضل أن نقف لبعض الوقت متأمِّلين هذا الأمر باعتباره «ظاهرة» وليس باعتباره مجرد قلة أدب؛ فالشعوب كلها والتجمعات البشرية كلها، فما بالك بنا أقدم الشعوب وأعرقها حضارة، ليست بطبعها سيئة السلوك أو قليلة الأدب، بالعكس، إن لقاءاتنا العامة وتجمعاتنا وكل تلك الظواهر الاجتماعية كانت على الدوام تحفل بأدب زائد أكثر من اللازم، بل وبتأدب يصل إلى حدٍّ ما كنا نسميه بالنفاق الاجتماعي، أي تظاهر الشخص في المحافل العامة أنه أكثر أدبًا من طبيعته، أو على الأقل من تصرفه حين يكون بمفرده أو مع خاصته: ماذا إذا حدث وأدى إلى عكس هذا تمامًا؛ أي أصبحت هذه الاجتماعات العامة تحفل بسلوك وآراء وتعليقات أسوأ بكثير مما تحفل به الجلسات الخاصة؟

السبب فيما أعتقد أننا كنا وما زلنا نمر بأزمة تعبير حقيقية، أو بمعنى أصح أزمة انفصام بين حياة الإنسان وما يحسه فعلًا وبين الانعكاسات العلمية لهذه الحياة سواء في وسائل الإعلام، أو في الاجتماعات السياسية أو ما تذكره الصحف والكتب والمجلات، بل حتى الأحاديث التي تدور داخل الجدران المغلقة. اتَّسمت كل هذه الوسائل العامة

للتعبير بنوع غريب من التحفظ والمحافظة و«الأدب». دائمًا تجدها حافلة بما «يجب» أن يُقال، وبما «يجب» أن يفعل. لا مكان فيها لإبراز تفرد ما أو شذوذ ما عن المألوف، أو رغبة خاصة تفيض بها نفس الشخص ويجد صداها فيما يدور أمامه سواء على المسرح السياسي أو على المسرح الحقيقي، سواء في صالات الاجتماعات أو في صالات السينما. حياتنا مثلًا تحفل بالاختلاف في الرأي وبدرجات كبيرة من التنوع والتنافر حتى بين الألوان والتفكيرات والمِلل، وما نراه ماثلًا أمامنا، ومفروض أن يعبر عنا، مجرد رأي واحد وإجماع واحد وكلمات تكاد تكون في كل الأمور متشابهة متراصة لا تختلُّ فيها كلمة، وكأن ثمة رأيًا رسميًّا، حتى ولو لم يكن رأي السلطة، إنما هو الرأي «الشرعي» الواجب الإظهار والإبراز وحده يحتل المنصة ولا وجود لغيره من الآراء. ولعل الكارثة كانت تخف كثيرًا لو كان هذا الرأي مطاطًا أو واسعًا إلى الحد الذي يحتمل معه التلوين والتشكيل، أنه رأي في الغالب «محافظ» جدًّا، محافظ على «القيم» كما يقولون، ولكن أية «قيم» تلك التي يحافظ عليها هذا الرأي الشرعي؟

إن القصة طويلة ومتشعِّبة، ولكن حسبنا أن نلخصها في كلمة ونقول إن الثورة قامت لتصنع مصر وتنقلها من العصر الزراعي بكل تقاليده ومتوارثاته وقيمه إلى العصر الصناعي والآلي بما فيه من تطوير كبير لكثير من هذه القيم، و«تفرد» واختلاف، وصِدق أكثر مع الذات الفردية وعدم تركيز دائم على الذات الجماعية المفروضة، أو ما يُسمى بالناموس العام بكل قاموسه السلوكي والأخلاقي وحكمة الشعبية وقصص أفلامه ولك يوم يا ظالم، ذلك القاموس الحافل بكلمات: الصبر طيب والصبر جميل، والظالم له يوم وترك سنة الحياة تقتص من المخطئ وتثيب المصيب. في العصر الصناعي الوقت له ثمن، ولا مكان للصبر، والحق آخذه بيدي ولا أترك ظالمي لتقتص منه الحياة وتعاقبه أخطاؤه نفسها ... إلى آخره.

كان مفروضًا أن يُصاحب هذا التغيير المادي الهائل من الزراعة اليدوية بعصورها الطويلة التي مضت إلى الصناعة الآلية، تغيير روحي وفكري يوائم هذا التغيير المادي بحيث يحدث التوازن لدى الإنسان الذي انتقل إلى هذا العصر فعلًا، وأصبح يزاوله حياة وإنتاجًا وعلاقات وتجارب يومية مستمرة، ولكن هذا للأسف لم يحدث، أو بالضبط لم يحدث بالشكل والحجم المطلوبَين، ولم تشمل «الثورة الثقافية» الواجبة كل نواحي الحياة في حين كان المفروض ليس فقط أن تحدث ولكنها تحدث مضاعفة بحيث لا تنقلنا روحيًّا وفكريًّا إلى العصر الصناعي فقط وإنما — وهذا هو الأهم — إلى العصر الصناعي

الاشتراكي، تلك النقلة التي حدثت لإنتاجنا فعلًا ومصانعنا ومؤسساتنا وكثير جدًّا من أسباب وجودنا.

وهكذا عشنا هذا العصر الصناعي الاشتراكي بقيم زراعية ورثناها من قرون. قيم بالطبع ليست كلها سيئ؛ ففيها أشياء نبيلة وعظيمة ولكن كثيرًا منها كان من الممكن أن يتغير؛ فسُنة الحياة أن لكل عصر أبعاده الفكرية والنفسية، التي تلائمه والتي إذا لم تحدث، تحدث للإنسان حالة تمزق؛ إذ هو يحيا بطريقة ويجد حياته غير معبر عنها فيما يسمعه أو يقرؤه أو يراه، إنما هو يجد ذلك الرأي «الشرعي» «المحافظ» أي الذي ينزع إلى شده دائمًا إلى قيم مضت وأنماط سلوك سلفية وحتى إلى قصص حب قديمة، بما فيها من «خطيئة» قديمة، و«أخلاق» مُثْلى قديمة، لا يجد أبدًا في ذلك الطور الجديد الذي انتقل إليه هاديًا يهديه ونماذج وأبطالًا وتعبيرًا جديدًا عن واقع جديد أصبح يحياه.

ولعل من أهم السمات التي تفرق بين الناموس العام في المجتمع الزراعي والناموس العام في المجتمع الصناعي والمجتمع الصناعي الاشتراكي هو الموقف من الفرد، فبينما الزراعة لا تقترن بالفردية ولا مجال للتفرد أو التميز والتمايز بين العاملين بالزراعة؛ فالصناعة والتجارة والأعمال اليدوية والكتابية والذهنية قائمة أولًا وأساسًا على التفرد والتميز في نطاق الجماعة طبعًا.

وهكذا أحس الإنسان المصري أنه وإن كان موجودًا كوسيلة عمل وإنتاج وحامل مسئوليات ومنفذ واجبات إلا أنه ليس موجودًا مطلقًا ولا معترفًا برأيه أو حتى له حق الرأي سواء فيما يقال أو فيما يسمع، سواء في السياسية أو الأدب أو الفكر. كنا وما زلنا إلى حدٍّ ما نتفرج على ما نراه في أفلامنا — أو معظمها — ومسرحياتنا وكتبنا وجرائدنا وكأننا نقرأ عن شعب آخر أو نرى حياة أناس غيرنا.

والإنسان في هذه الحالة يلجأ إلى السلبية، ويتحول الرأي العام والمجتمع العام، والاجتماع العام إلى نفاق عام لا يمثل أبدًا حقيقة الإنسان أو رأيه أو وجهة نظره.

ورأي الإنسان ليس زينة ولا من قبيل الكماليات الديمقراطية، إن الإنسان هو رأيه، فإذا ألغيت رأيه ألغيت وجوده، وإذا اصطنعت له رأيًا عامًّا سائدًا فإنه لا بد أن يكون له رأي خاص سري؛ ذلك أنه لا يمكن أن يعيش دون رأي حتى لو شاء هو — تخلصًا من أعباء الرأي — أن يعيش بلا رأي، لكنه لا يستطيع أبدًا أن يفعل ذلك. فمفروض ما دام الإنسان منتجًا أن يكون له رأي فيما ينتجه وطريقة إنتاجه وإلا ما استطاع أن ينتج، بل لا يكفي أن يكون له رأي، لا بد أن يستتبع رأيه نفاذ هذا الرأي. فإذا بقي حقه في الرأي

قائمًا ولم ينعكس هذا وفورًا على الواقع وبغيره ليتلاءم مع هذا الرأي؛ فالإنسان يُصاب حينذاك بقلق عظيم وبحالة إحباط قصوى.

وهكذا لم يستمر الرأي الخاص السلبي القابع في صدر صاحبه طويلًا، كان لا بد آجلًا أو عاجلًا أن يتحول إلى رأي «مُعلَن».

وهكذا أيضًا، متخفيًا في الجماعة الكبيرة أو في الظلام أو المدرجات، ضامنًا السلامة، بدأ الإنسان المصري يعلن رأيه المخبوء. وكانت أول آرائه بالطبع رفضًا قاطعًا. لكن هذا الذي حدث ومفروض أن يُعبر عنه وله. رفض بأقبح الهفوات والصفات. كلمة «لا» مكتوبة ومقالة بكل لون وطريقة وأسلوب، حتى أسلوب العنف أحيانًا.

ربما أخيرًا جدًّا بدأ الإنسان المصري يحس ببعض رأيه. يظهر في بعض الصحف وعلى ألسنة وأقلام بعض الناس، وربما المسافة بين الرأي والنفاذ لا تزال طويلة وغير محسوسة، ولكنها أزمة التعبير أولًا وأخيرًا. إن الإنسان المصري لن يستريح حتى يرى الكلمة التي يقرؤها والتي يسمعها والرأي المخبوء داخل نفسه، يرى هذا كله وقد أصبح السائد، بل وأصبح من حق كل فرد أن يقول رأيه بنفسه ودون وكالة، ويقول الرأي في كل شيء.

كنت في الأسبوع الماضي في إحدى دور السينما أتفرج مدهوشًا على فيلم «الإخوة الأعداء»، فلقد سمعت عن «النجاح الساحق» للفيلم فذهبت أتفرج على هذه الظاهرة، وعرفت حتى قبل أن ينتهي الفيلم، والصالة الكاملة قد ران عليها الصمت العميق الذي لا تتخلله كلمة نابية أو تعليق واحد لماذا نجح هذا الفيلم، ليس كعمل فني فقط وإنما نجح في إسكات هذه الجماهير التي كانت تتمرد دائمًا على معظم ما تراه من أفلام مصرية، فالقصة، قصة الفيلم، قصة عظيمة، تكاد تكون أعظم قصص العبقري الروسي دُستويفسكي، مليئة بالحياء والحيوية، كتبها دستويفسكي والمجتمع الروسي ينسلخ فعلًا من القيم العبيدية والإقطاعية ويدخل قيم القرن التاسع عشر، قرن الصناعة، قصة حافلة بالرجال الرجال، وليس الرجال المخنثين الذين أصبحوا العلامة التجارية لأفلامنا وقصصنا، وعنف التشابك بين النوازع والرغبات والصراع بين الطيبين والشريرين، قصة تأخذ المشاهد المصري فجأة من فراش الخيانة الزوجية حيث تلكأت قصص أفلامه طويلًا إلى أرض الواقع، فهو في غربته عنا يعبر عن إنسان أقرب ما يكون إلى الرجل، وامرأة أقرب ما تكون إلى المرأة، وليس عن أنصاف الرجال وأنصاف الزوجات وأنصاف القيم.

المشكلة إذن أن نجد — ولو عبر التغريب والتعريب — شيئًا يُعبر أقل تعبير عن البراكين المستقرة داخلنا.

من أجل نصف قدم

تسمَّرت في مكاني أتأمل الرجل وهو يجري، محطة أوتوبيس في شارع الجلاء يقف عليها مئات الرجال والنساء والأطفال، صفٌّ أوتوبيسات يقف الواحد وراء الآخر، الأوتوبيس الأخير الذي وصل (وبالتالي وقف بعيدًا عن المحطة) اندفعتْ للركوب فيه مجموعة كبيرة من الناس، من بينها ذلك الرجل، أفندي عجوز في الخامسة والستين، تقريبًا نفس السن التي مات فيها أبي، وله تقريبًا نفس الملامح. في الخامسة والستين يصبح للرجل بطءُ سَيْر الأطفال، ليس عن قصر في الأرجل، وإنما عن قصر في الطاقة والمجهود، وكان أبي وهو يسير بجواري في سنواته الأخيرة، أحسُّ بكثير من الحرج وأنا أضطر للتمهل حتى يستطيع ملاحقتي والسير بجواري. هذا الرجل حين انطلق مع الآخرين تجاه الأتوبيس، كان يجرى، ليس مثل جريي أو جريك، ولكنه جري إنسان يريد أن يلحق بقارب النجاة في خضم محيط؛ فالجو حارٌّ قاتل، ومحطة الأوتوبيس وكأنها مجمَّع لجهنم موقدة من الشمس، والذباب والعرق ورائحة الصيف البَشِعة في شارع الجلاء. يجري الرجل بكل ما بقي فيه من طاقة وحياة، يجري، يلهث، يموت، بصعوبة يستنشق الهواء، ولكنه يجري ويجري، وأنا مُسمَّر مكاني أتصوَّر أبي وقد اضطر إلى جري كهذا، جريِ إفلاتٍ من الموت أو لحاقٍ بالحياة، بحر العرق كساه، وجهه أحمرَّ حتى يكاد الدم ينفجر من عينيه، شعر صدره الأبيض ناخر عرقان من قميصه. لم تكن المسافة طويلة، وأيضًا لم تكن بالقصيرة، دقائق قليلة من الجري، ولكن المهم ليس الجري، المهم نوعه، جري الشيخ الذي من الممكن أن يقتله جري كهذا. وقفت أتأمل الرجل، وفجأة وجدت نفسي تحتقن عيناي بالدموع وأكاد لولا الحياء أبكي؛ أحسستُ أني أريد أن أندفع كالصاروخ أحمل الرجل فوق أكتافي، أجفِّف عرقه، أقبِّل يده وجبينه وقدميه وأعتذر له، أعتذر له أننا مصر،

وأننا بعدُ في سِنه نضطره أن يقتل نفسه جريًا ليركب، مجرد يركب، لا، بل حتى لم يركب، حين وصل الأوتوبيس كان الأقوياء قد سبقوه وملئوه، حتى بابه ملئوه، فتشبَّث بيد واحدة وبنصف قدم وبجسد بارز تمامًا معرَّض أن تصدمه وتبقره أية عربة مارَّة أو أي عمود. أُقبِّل قدميه ويديه ووجنتيه وأبكي وأعتذر، يا آباءنا الذين لا يزالون يحيون هذه الحياة، ويجرون هذا الجري، فقط من أجل قبضة يد ونصف قدم، ماذا يا إلهي نصنع من أجلهم ومن أجل غيرهم؟ يا إلهي، ماذا بحقك نصنع؟!

من أجل حفنة نساء

تأتيني من الكويت بالذات، ومن بعض البلاد العربية الأخرى وعلى رأسها بالطبع بيروت، بعض الجرائد والمجلات. ولكن ليست هذه هي المشكلة؛ المشكلة هي هذه التقليعة التي أُصِيبت بها بعض الجرائد، ومنها جرائد أحترمها كثيرًا وأحترم أصحابها ورؤساء تحريرها، تقليعة إصدار «ملاحق» يسمونها ملاحق «فنية». والملحق لا يكاد يختلف عن الآخر إلا في نوع «الفنانة» التي تحتلُّ صورتها وهي شبه عارية نصف الصفحة الأولى أو ربما الصفحة كلها. الملحق الأخير الذي استوقفني ملحقٌ أصدرته جريدةٌ أحترمها تمامًا، والمانشت العريض يُزيِّن الصفحة الأولى للملحق، مانشت يقول: سهير صبري تبحث عن ملحن. وتحت المانشت صورة للسيدة أو «الآنسة» — لا أريد أن أعرف — سهير صبري بنصف قميص نوم وسيقان عارية من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، ووراءها شاب (اتضح لي أنه ممثل كوميدي مصري معروف) يقيس قميص النوم من الخلف، وواضح من المتر الذي يقيس به أن طول القميص لا يتعدى النصف متر، صورة هائلة ضخمة بشعة. الدعارة وبالألوان، مع أن الملحق على ورق جرائد عادي! شكرًا لاستغلال التقدم التكنولوجي في بلاد العرب الغنية هذا الاستغلالَ العظيم.

تصوَّرت أن الست سهير صبري هذه لا بد أن تكون مطربة من الدول العربية، فأنا لم أسمع، ولا أعتقد أن أحدًا آخر سمع عن مطربة في مصر اسمها سهير صبري. ولكن اتضح أنها فعلًا «تغني» أو مفروض أنها «تغني» في مصر، وأن الصورة الفاخرة لها تلك هي صورتها وهي تبحث عن «ملحن»، والله إنها لفعلًا مشكلة عويصة، كيف لم تستطع الست أن تجد هذا الملحن؟! مشكلة تستحق من الجريدة التي لا أزال أحترمها أن تخصِّص لها كل هذا الحيز من الملحق، وأن تبتكر لتصوير تقاطيع الست الموسيقية ما شاءت عبقريةُ الطابعين من ألوان.

إنه إعلان دعارة واضح وبشِع الوضوح.

وطبعًا أنا لا ألوم الست سهير صبري على هذه الصورة، فمن الواضح أنها صوَّرتها بالحجم وبالملابس الطبيعية التي تستعملها في أشياء أخرى تمامًا غير الغناء والفن. ولكن ألوم هذه الجريدة، وألوم غيرها من الجرائد، فما من ملحق إلا وستجد فيه سهير صبري أو إيناس شفشق أو عزيزة خورشيد أو ما شئت من أسماء وأشكال ومشاكل مثل مشكلة البحث عن «ملحق» كسب — أي سبب — لنشر صور عن عاريات أو أشباه عاريات.

ماذا أيها السادة — بهذه الصور — تريدون في النهاية؟ أن تقولوا إن مصر أصبحت هي هذه السهير والعزيزة والغادة … إلخ؟ تريدون أن تقولوا: هذا هو «الفن» الوحيد الذي أصبحت تجيده مصر وأصبح له «جمهوره» في بلادكم الغنية.

لا يا سادة!

إن مصر ليست سهير وغير سهير.

إذا كان بعض نسائها يَبِعْن شرفَ أجسادهن، فليس هذا معناه أنها تحوَّلت إلى ذلك الماخور الملون الذي تصدرونه في ملحقاتكم الفنية. مصر هي الجامعة التي تعلَّمَ فيها معظمكم، والمدرِّس الذي يُربي أبناءكم في بلادكم، والعامل الذي يبني فيلَّاتكم، مصر هي الربع مليون قتيل وشهيد دفاعًا عن عروبتنا وانتمائنا لكم.

وستبقى مصر هكذا مهما صدر عنها من ملاحق دعارة.

وأخيرًا قشرة ولو رقيقة من الحياء يا مدَّعيات «الفن» في مصر، فصحيح أن صورًا كهذه قد ترفع السعر، ولكنها تأخذ من بلاد تأويكن أيتها البغايا — أكثر مما تحرص عليه أمة من الأمم — كرامتَها وتقتل روحها.

إنني أطالب السيد ممدوح سالم رئيس الوزراء الجاد أن يتقدَّم إلى مجلس الشعب بمشروع قانون بإسقاط الجنسية المصرية عن أية امرأة من هؤلاء تضيِّع بما تظهر به على صفحات الجرائد وفي الأفلام جهودَ أمَّةٍ مجيدة، منذ مائة وخمسين عامًا وهي تناضل نضال الأبطال كي تصنع الكرامة لشعبها وأمتها.

أما الزملاء المحرِّرون والمسئولون عن مجلات العُري وملاحقها، والذين من الغريب أنهم لا ينشرون أبدًا إلا العرايا المصريات، فإنني أقول لهم إذا كانت هذه العيِّنات من نساء مصر يقبلن الظهور في فتارينكم الصحفية من أجل دخل أعلى، أو تطلُّع طبقي فني، أو غيره، فهؤلاء لهن صفة معروفة تمامًا لا حاجة لأن أقولها، ولكن ما هي الصفة التي

نطلقها على مَن «يُورد» هذه الصور للقراء باسم «الفن» وباسم «الصحافة»؟ أعتقد أنها هي الأخرى صفة معروفة جدًّا لكم ولنا، ولكني في هذا المجال أربأ أن أستعملها لأنكم حقًّا غير واعين أنكم تقومون — شئتم أم أبيتم — بها.

فلنتعاون أيها الزملاء لرفع بعض البلاء عن كرامة أمة لا تستحق والله كلَّ ما أُصيبت وتُصاب به.

من أجل افتعال بعض الضحك

أشهد أنني لم أرَ إلا جزءًا من مسرحية مدرسة المشاغبين المشهورة عُرِض بالصدفة في التليفزيون، ولقد أذهلني ما رأيته، ذلك أنني وجدت أن كثيرًا من الفساد الذي أخذ يستشري في مدارسنا الثانوية بالذات — حتى العسكرية منها — وكثيرًا من الألفاظ التي أخذت تنسال على ألسنة الطلبة، وكثيرًا من الاعتداءات التي تحدث للمدرسين، كثيرًا جدًّا من هذا كله كان مصدره هذه المسرحية التي قال لي مقتبسها علي سالم وصاحب فرقتها سمير خفاجة إن الزمام قد أفلت بطول عرض المسرحية من النص، حتى أصبح كل ممثل واجتهاده في إضافة ما شاء له من حركات وكلمات وبذاءات الْتقَطَها شبابُنا الغضُّ بمنتهى الحذق والبراعة، وراحوا هم الآخرون يقلدونهم أو يُضيفون إليها من عندهم، حتى وصل الحال ببعض مدارسنا الثانوية أن الحشيش أصبح يُدخَّن فيها علنًا في بعض الفصول النائية، بل ونشطت فيها تجارة حبوب الهلوسة والانسطال، وأن الفصول في بعض الأحيان تتحوَّل إلى فصول يصبح فيها الفصل المشاغب في مدرسة المشاغبين نعمةً من نِعَم الله. أهكذا تتحول مسرحية في أصلها تعتبر قمة تربوية عالية؟

لم أكن في الحقيقة أتصور أن يكون للمسرح ووسائل الإعلام كلُّ هذا الأثر المدمِّر إذا عرضنا ما يدمر، ولكني بدأت أُومن أننا ما كان يجب أن نسمح بدخول الشباب الصغير هذه المسرحية بالذات وغيرها، ما دام معظم تلك المسرحيات قد تحوَّل إلى ما يشبه الكباريهات وإصلاحيات الأحداث والسجون.

إننا في أكثر بلاد العالم تقدُّمًا و«انحلالًا»، ما زلنا نقرأ «ممنوع» لأقل من ١٦ سنة؛ ذلك لأنهم يدركون أنه وإنْ فسد حتى الجيل الكبير الحاضر، فالكارثة أن يفسد الجيل الجديد القادم، ومن الواجب بل من المحتَّم أن نمنع عن هذا الجيل الذي لم يمتلك بعد كل أدوات عقله وإدراكه وضميره؛ أن نمنع عنه هذه السموم الأخلاقية والتربوية لأن الأثر

عليه يكون مُضاعَفًا ورهيبًا، والنتيجة تكون كارثة؛ فساد المستقبل تمامًا؛ فالصحة ليست معدية، إنما المرض هو المعدي، وأن يمرض بيت أو شاب من بيت أو حي أو مدينة بأكملها شيء، أما أن يمرض المجتمع ونُمرِضه نحن بأيدينا فمسألة لا أعرف كيف تمَّت وكيف لا تزال تتمُّ أمام أعيننا وكأننا لا نراها ولا ندرك بلواها.

فَلْيندثر أو فَلْيتحلَّل الجيل الحالي إذا أراد، أمَّا المستقبل فَلْننقذه الآن وبكلِّ ما نملك.

واحد قانون

كانت القاهرة حبيبة، قريبة إلى القلب، حافلة بمواطن الذكريات، كانت مدينة يقطنها مواطنون قاهريون لهم طريقة خاصة في التعامل، ولغة، وبالذات على ألسنة نسائها، رقيقة، محببة إلى الأسماع. كانت عاصمة تكاد تكون جميلة، لبلاد تكاد تكون جميلة، وكان شعورنا تجاهها ونحن في مطلع الصبا شعور الأبناء نحو أمٍّ راقية حنون. الأم المثقفة، المتعطرة، المتحدثة، اللبقة لأبناء معظمهم قادم من ريف أو صعيد يتعثرون في خجل عدم الثقة بالنفس، يتطلعون بانبهار إلى جمال الأم، يحسون بالفخر أنهم أصبحوا في النهاية ينتمون إليها.

والآن، ماذا حدث؟ لكأنه الغزو الداخلي والخارجي معًا حدث للمدينة ولكل مدينة في قُطرنا. غزو حاشد رهيب. لكأنما فجأة تمخَّض رحِم مصر الولود، ومن أعماقها تفجرت وتناثرت ملايين الناس والأطفال والكلاب الضالة والقطط وأكوام الزبالة والذباب والمجاري والناموس وأكوام اللحوم البشعة المحمولة مكشوفة فوق عربات وموتوسيكلات. أعشاب وشجيرات وغابات شيطانية نبتت وامتلأت المدينة بالمستنقعات والبحيرات. جحافل البشر بالآلاف، بالآلاف، في الطوابير في الأوتوبيسات في الشوارع في المتاجر في الوزارات والمصالح والسلالم والأسانسيرات. أناس أطفال وأطفال أناس، مئات بالمئات، آلاف، عشرات الآلاف، مئات، ملايين، فوق القطارات وتحت القطارات، على سطح النيل وفي أعماق المجرى، في محطة مصر وكل المحطات والمطارات وعربات نرى الأرض ولا للشرفات، معالم المدينة الكارو والتاكسيات والمتنزهات لم تعد، ضاعت وطليت بالوجوه والرءوس والأجساد.

حسن جدًّا. ليكن أن الشعب المصري في نوبة دفاع غريزي عن النفس قد قرر أن يطلق العنان للأرحام لتحمل وتلد وتمتلئ بلادنا إلى ما فوق حافتها بالناس، بحيث أصبح برميلنا البشري وكأنما يفيض بالمخلوقات فتتأثر من حالته موجات إثر موجات، لا

هجرة تقع ولا تصدير خادمات بيوت وخادمات مخادع، ولا عمال بناء وحمَّالين وسوَّاقين ومثقفين ودكاترة ومحاسبين، موجات إثر موجات، ولكن الفوران لا يكفُّ، والبرميل على جوانبه يفيض بالبشر وداخله ازدحام لا يُطاق.

ليكن هذا قد حدث، وليكن أننا بعد أن خفنا أن ننقرض بسياسة الكيف والانتقاء، اندفعنا نثبت الوجود بسياسة الكم والإغراق، بل حتى لتكن النتيجة أن المدينة والمدن كلها شاهت، ودِيست معالم الذكريات، ولم يعد هناك مكان لجمال أو تنسيق؛ إذ أصبح ليس هناك مكان لقدم. ليكن إننا قد تحولنا إلى كمٍّ هائل من البشر، مسافر إلى أقصى الصعيد تجده، على شواطئ المنزلة والبرلس تجده، في أية حارة مصرية وزقاق ما أن تضع قدمك فيه حتى تبدأ تغرق، شرِّق تغرق داخل طوفان من مئات الأولاد والبنات والقادمين الجدد، وتتطلع حولك واجف القلب تتساءل: يا إلهي ماذا سيحدث لنا غدًا حين، أيضًا، يكبر هؤلاء، ويتحولون بدورهم إلى آباء وأمهات، وكلها خمس أو عشر سنوات ويتمُّ هذا بإذن الله.

تواردت هذه الخواطر على ذهني وأنا أقرأ كتابًا عن «ميكانيكا الكم» وهو بالضبط عن أحدث النظريات في تركيب الذرة ومن ثَم تركيب الكون. هي النظرية التي جاءت لتأخذ مكان نظرية النسبية في تفسير قوانين الذرة أو بالضبط قوانين المادة، ومع أن الكتاب يتابع — كالقصة البوليسية — منشأ النظرية وتطورها، وموقفها الآن إلا أن ما بهرني فيه ليس الحقائق العلمية الفطرية والعملية وإنما هو الفلسفة التي يمكن للإنسان أن يستخلصها من تصرف المادة تجاه المشكلة الأزلية التي تواجهها وهي مشكلة الكمِّ. فالذرة نفسها لم تعد أصغر مكونات المادة إنما اتضح أن الذرة مستعمرة بالغة الضخامة مليئة بمئات، ومن يدري، ربما سيكشفون أنها ملايين، من مكونات أخرى أصغر بكثير جدًّا من الأجسام الأدق؛ لتصل في دقتها إلى درجة يستحيل معها فصلها عن الأثير الكائن حولها، أو التمييز بين ما هو مادي وما هو غير مادي. الذرة إذن «كم» والكون «كمٌّ هائل»، والإنسان نفسه «كمٌّ ضخم» من الخلايا ومن ثم الجزيئات والذرات. لا شيء إذن فرد، كلنا ذرات، وأفلاك وأكوان وبشر، كمٌّ هائل نحيا ونتواجد على هيئة كم هائل. هذا الكم الهائل نفسه يحتم بالضرورة أن توجد له «قوانين» تحكم وجوده؛ ففي داخل الذرة نفسها لا يوجد لكل مكون من مكوناتها قانون خاص يتحرك بمقتضاه ولكن القانون الموجود هو قانون «الكم» أي القانون الناشئ عن وجود أعداد هائلة من المكونات. وانفجار الذرة أو

تبعثر محتوياتها لا يحدث إلا بتدخل خارجي في قانون «الكم» الخاص بها؛ فالذرة أيضًا لا توجد وحدها، ولكنها توجد ضمن مجموعة هائلة دائمة من الذرات تكوِّن الجزيئات، والجزيئات لا توجد بمفردها ولا المركبات الناتجة عنها، ولا حتى الكواكب والمجرات، هناك دائمًا أنت جزء من كل وجزء من «كم»، وقانون الكم هو المسيطر والحاكم.

ولكنا نعود إلى قضية الإنسان في مصر، الإنسان الذي أصبح كمًّا هائلًا من البشر. المشكلة في ذلك الكم الهائل أنه بشر وأنه مكون من «أفراد» وأن الميزة الأساسية (وربما العيب الأساسي) للإنسان الفرد أنه يستطيع أن يتحرك حركة ذاتية خاصة به لا تخضع للقانون العام. وهذا هو بالضبط ما يُحدث الارتباك؛ فلا نحن ذرات تلقائية تتصرف وفق قانون الكم ولا نحن كائنات سماوية لا تخضع أو مفروض أنها لا تخضع لأي قانون. أي أننا لسنا آلهة نصنع القوانين ولسنا جمادًا نخضع الخضوع الكامل لها. وهكذا لم تكن كثرتنا الهائلة بناءً على قانون أو حكمة وإنما هي بناء على تفكير عشوائي قطيعي لا يرى أبعد من يومه أو أسبوعه. ونحن الآن أمام الواقع الكمي الرهيب يكاد يُحيلنا إلى غزو جهادي يهدد الحياة نفسها ويأكل الحرث والزرع ويأتي على الجمال وكل ما يحيل سطح الأرض إلى مكان جدير حقًّا بالإنسان. ذلك أنه «كم» بلا نظام، بلا حتى قانون الكم الجمادي التلقائي، والنتيجة انظر إلى مشاريعنا، كم من الأقوال والوعود، أوتوبيساتنا، طريقة ركوبنا في الأوتوبيس، الانتظار في المحطات، السير في الشوارع، قطْع التذاكر، التدافع، نظام العمل ونظام الإجازة، دفع الأجور، أن نسكن، أن نطلب الحق، أن نشكو، أن نثور. كم هائل من الانفجارات الفردية بلا قانون، كم عام يُحيل التضارب والتناقض الفردي والجماعي إلى حركة مستقرة عامة إلى أمام. لكننا خمسون مليون كرة، مزدحمون في حجرة ضيقة تتضارب في كافة الاتجاهات، تضاربًا يؤدي إلى تبديد الطاقة ونشوء معارك وخلافات لا معنى لها بالمرة؛ إذ هي ليست الخلافات الرئيسية ولا المعارك الحقيقية الضرورية لتقدم الحياة إلى أمام. معطلات ومعوقات ودهوسة بالأقدام، لا يحكمها حتى قانون الجماد ولا قانون الغاب، ولا قانون البقاء، ولا أي قانون.

فلنكن تكاثرنا، فلنكن مزدحمين، نتضارب ونتهايش ونتناقض، فلنكن أي شيء، ولكن المشكلة في رأيي أننا وصلنا إلى أوضاع أصبحنا فيها نكاد نُفني بعضنا البعض حقدًا واحتكاكًا وصراعًا بلا أي معنًى، وما دام الجذب إلى أسفل وكلنا نغرق فليغرق كل شيء وكل قيمة معنا.

إن الصورة رهيبة فعلًا وكل ما نقرؤه عن «حلول» لها يبدو كأضغاث الأحلام ولم نكن بحاجة إلى أن تصبح ثورة ٢٣ يوليو ثورة حقيقية، على الأقل لوضع قانون واحد

نتفق عليه ونحيا به مثلما نحن بحاجة إليه وإليها الآن. ربما هو حظنا أننا في الوقت الذي كنا فيه بحاجة إلى سيادة القانون قامت الثورة لتلغي القوانين السائدة، وفي الوقت الذي أصبحنا فيه في أمس الحاجة إلى الثورة، يسود القانون.

لماذا لا يكون شعارنا الآن: الثورة لسيادة القانون. أو على الأقل لسيادة قانون واحد، وليكن قانون الكم، أو العدل الحاسم أو حتى قانون الجماد؟ قانون واحد نخضع جميعًا وكلنا لسلطانه ولا يكون سلطان لأحد عليه، قانون ينبع منا، ونبتر — وبحدة حسم — أي خارج منا عليه.

قانون واحد، أو مبدأ واحد فقط أو حتى شيء واحد فقط نُجمع عليه، ينظم حركتنا حتى ليجعل لها الحد الأدنى من النظام ولو كان نظام الجماد، فلو بدأ النظام ولو بحده الأدنى لبدأت كافة القوانين الأخرى في الانضباط ولبدأت حياتنا يصبح لها طعم الحياة.

قانون واحد فقط. واحد قانون.

الحل المصري لمشكلة القوة

خبر، مجرد خبر منشور في جرائد الأسبوع الماضي، ولكني لم أستطع الكف عن التفكير فيه. الخبر «رغم صياغته العقيمة» يُفهم منه أن أحدهم تقدم إلى رجل وزوجته يسيران معًا في مكان ما من مدينتنا الكبيرة، وادَّعى كالعادة أنه «بوليس سري» واصطحب الزوجين في تاكسي ثم ترك الزوجة «أمانة» لدى أحد البوابين ريثما ينهى «الإجراءات» مع الزوج في القسم. بل إن الخبر يقول إنه أخذ الزوج إلى القسم فعلًا، ودخل القسم به، ولكن الضابط النوبتجي «شك» فيه، وقبض عليه في النهاية.

تفكيري لم ينصبَّ على أن أحدهم ادَّعى أنه ضابط مباحث، فهذا أمر وارد ويحدث كل يوم، ولكن المشكلة في رأيي كانت: كيف يُسلِّم الزوج الفاضل بهذا الادعاء هو والسيدة زوجته، وكيف يوافقان، هكذا، على ركوب سيارة أجرة، ثم كيف «يُسلِّم» الزوج الفاضل في زوجته، هكذا ويتركها «أمانة» لدى أحد البوابين وكيف «تسلِّم» الزوجة الفاضلة في زوجها هكذا، وتتركه يذهب مع الضابط المزعوم وكان وجودها في حجرة البواب الغريب أكثر أمنا من اصطحابها للزوج إلى قسم البوليس؟

ولم ألبث أن قرأت في جرائد اليوم أيضًا أن شابَّين هدَّدا فتاة وزوجة أخيها بالمطاوي واصطحباهما إلى «كازينو» كروب، وبعد جلسة طويلة هناك انضم إليهما فيها ثالث، ذهب الجميع «وأيضًا كما يُقال تحت تهديد المطاوي إلى شقة في الهرم حيث كان ما كان».

أو تقرأ مثلًا أن شبَّانًا اختطفوا فتاة إلى شقة وظلت هناك خمسة عشر يومًا «تحت التهديد» إلى أن تمكنت أخيرًا من «الهرب» والعودة إلى أهلها.

كلما قرأت أو سمعت عن حوادث بهذه الصورة أقول لنفسي: إما أن ضحايا هذه الحوادث سذج إلى حدِّ البَلَه، أو مسلوبو الإرادة تمامًا، أو أن للموضوع وجهًا آخر، فلقد بدأ يشكل ظاهرة.

نحن مجتمع مسالم، ما في ذلك شك؛ أي أننا متحضرون، ننفر من العنف القبيح في كافة صوره، ولكن هناك شعرة دقيقة بين النفور من العنف تحضرًا وبين الخوف منه جبنًا وفرارًا من تفادي المواجهة. والجبن ليس موجودًا في الحروب فقط ولكنه موجود أكثر وبصورة أبشع في حياة الناس المدنيَّة. وأبسط مبادئ الحياة الإنسانية أن المبرر الوحيد لوجود الإنسان هو أن يكون قادرًا على حماية حياته وعلى حماية عِرضه إذا تعرض أحدهما لخطر. وأفهم أن يُفرط الإنسان أو الإنسانة في عِرضه إذا كانت حياته قد تعرضت لخطر حقيقي لا سبيل إلى دفعه إلا بذلك التسليم. كأن يلتقي رجل مسلح أو بضعة رجال بامرأة بمفردها في مكان مهجور، أما أن يلتقي شابَّان ولو كانا مسلحَين في قلب حي المنيل الغاصِّ بالناس وبعد صلاة الجمعة مباشرة، أي في قمة ازدحام كازينو «غاصٌّ بالناس هو الآخر» فهو أمر لم يكن ليؤدي أبدًا لا إلى موتهما ولا حتى إلى جرحهما وكأن الوضع لا يستلزم إلا أقل القليل من المقاومة، أو حتى الصراخ، ليهرب الشابان الجبانان، فليس أجبن ممن يمسك بمطواة ويهدد بها فتاة. ولكني لا أعرف، هل هو الجبن الشديد الذي ساد، وساد في قلب الجناة والمجني عليهم سواء بسواء، أم أن التفريط في العِرض أصبح في مقدمة الأشياء التي يفكر فيها الرجل أو المرأة للمساومة على «احتمال» أن يُجرح أو يُؤذى جسديًّا؟ أم أنه كان علينا أن نتصور أن الفتاة والسيدة خافتا وهما في قلب الشارع وفي قلب الكازينو وفي قلب التاكسي وفي قلب المدينة وفي قلب النهار وفي قلب الازدحام والخَلق التي تجتمع وتتدخل على الفاضي والمليان، خافتا وفي قلب هذا كله أن «يقتلهما» شابان ولهذا آثرتا التفريط في «عِرضهما»؟

وهذا السيد الزوج الذي «يخاف» من البوليس المزيَّف وهو راكب التاكسي وهناك «سائق» وهناك «بوَّاب» وهناك «ناس» بل وهناك هو نفسه، يخاف إلى الدرجة التي يودع زوجته حجرة بوَّاب وهو يعرف جيدًا أن حاميها ربما يكون حراميها. ممَّ يخاف؟ وعلى أسوأ الفروض ولو كان مطلوبًا في جناية و«قاوم» هذا الإجراء، ومهما حدث له من جرَّاء هذه المقاومة، أليس أهون بكثير مما قد يحدث لزوجته التي أودعها «أمانة»؟

إما — كما قلت — أن العِرض قد أصبح من الممتلكات التي يدفع بها الكثيرون الأذى عن أنفسهم، وإما أننا لم نعتنق بعد فلسفة هذا العصر الذي لم يعد فيه مكان للمتحضرين أن جبنًا وأن تمدينا، المعتمدين على قوانين الأمن البشري الأزلية في محافظة الناس تلقائيًّا على أنفسهم وعلى الآخرين.

حين نطق الشعب[1]

مهما طال الزمان وكثرت أو قلَّت الانتصارات.

مهما خُضنا المعارك، والمعارك علينا قَدر مكتوب، بل على الفرد نفسه مكتوب؛ فالحياة كبرت أو صغرت سلسلة معارك.

مهما حدث. فسيظل ليوم ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣م موضع خاص في التاريخ، لا يرقى إليه — مهما علا شأنه — حدث.

كثيرة هي الحروب التي تخوضها الدول، دفاعًا عن نفسها أو إحباطًا لمحاولات أعدائها أو مدًّا لنفوذها. فلم توجِد الدول الجيوش إلا لتحارب، عدلًا أو ظلمًا تحارب؛ فالجيش آلة حرب هائلة الضخامة. هذا صحيح ولكنها بأمر، مجرد أمر من القائد، تتحرك وتلتحم، وعظمة حرب ٦ أكتوبر أنها لم تكن مجرد معركة تخوضها قواتنا بأمر من القائد الأعلى، لا ولم تكن حتى حرب جيش.

خلال الأسابيع الماضية بلغ بي الضيق من التفاهات وجشع النفوس وانطلاقات غرائز التكويش والخنق والدفع بالأكتاف حتى أني فكرت أن أهاجر. ولكن الصُّدف الحسنة أوقعت في يدي كتابًا عن حرب ٦ أكتوبر أصدره عدد من محرري جريدة الصنداي تايمز البريطانية. ومن لحظتها قررت أن تكون هجرتي وملاذي إلى ٦ أكتوبر. كل ما أُلِّف عن الحرب قرأته وكنت ألتهم الصفحات — ومعظمها لكُتاب يتعاطفون تمامًا مع إسرائيل —

---

[1] كُتبت بمناسبة بداية حرب ٦ أكتوبر، أتصلح مختفية ردًّا على ما أشاعه الغوغائيون من أني قلت عنها إنها تمثيلية؟

وأنا مبهور تتقطع أنفاسي وهي تلهث وراء جنودنا وهم ينقضُّون ويصيبون ويلتحمون وينتصرون، ببساطة يستشهدون. بروعة مذهلة تختفي نوازع الفرد في المحافظة على الذات أو حب البقاء، ومن النفس المصرية المثقلة بمئات القيود والاختناقات تنتفض روح أخرى، عملاقة بطلة، روح لم نرها في حياتنا العادية ولا نراها كأنها داخلنا. وفي أعماقنا يحيا هذا الإنسان البطل القادر العظيم ونحن لا ندري، فقط تحين اللحظة، فقط يوجد القائد، معبِّرًا عن ضمير الشعب وبلسانه ينطق ويقول: اعبر، وإذا بالعملاق المصنوع من مئات الآلاف من العمالقة كالنمر يثب وينقضُّ. وفي ثانية يدكُّ قلاع كذبات كثيرة بناها الإسرائيليون وصدَّقها العالم، حتى نحن أنفسنا صدَّقناها. ما أروعهم وهم يدوسون بأقدامهم تفاهات حياتنا المسطحة، يسحقون الأنانية والأثرة والتباغض، ينهشون الظاهر المقيت، بقوًى خارقة لا يصبح للطعام قيمة ولا لياميش رمضان والمسلسلات والفوازير. تذوي من تلقاء نفسها الفقاقيع الكثيرة الكثيرة وينزاح التراب ومن الأعماق يتبدَّى الجوهر الأعظم.

في أرفع مكان من نفوسنا سيظل السادس من أكتوبر، وفي نفس المكانة سنظل نُحيي ونمجد ونعتز من أعماقنا بذلك الرجل الذي بإرادة من صلب أخذ القرار، وولدته مصر ليقودها وتبنَّاه الشعب ليجيء ذلك اليوم الذي يتبوأ فيه مكان القيادة. ومن أعماق تراثنا وأصالة إنساننا وجذور حضارتنا وصبرنا وإرادتنا يقول: اضرب.

وتفتح مصر الصامتة، ذلك الصمت المُحيِّر الطويل، فمها وتنطق، وكلمات الشعوب ليست أحرفًا أو أصوات، إنها براكين وحُمم.

في ٦ أكتوبر المجيد نطق شعبنا، فتح فاه ليصبَّ على أعدائه جهنم، وسيظل شعبنا ينطق، وليست كل كلماته جهنم. فحضارةً سوف يتكلم، وعلمًا سوف ينطق، وبمصر العظيمة القادمة بشعبها العظيم الآخذ زمام الأمور بيده لن ينتهي الحديث.

ومنذ أن نطق شعبنا في السادس من أكتوبر كلماته، تعوَّد العالم أن يُصغي. فلتمضِ أيها الشعب العظيم تتكلم فالسادس من أكتوبر لن تكون أول أو آخر كلماتك.

والحديث طويل.

امتحان

أمسكت ورقة الأسئلة، لا كوليٍّ أمر طالب في الإعدادية، ولا كمحبٍّ حتى للاستطلاع، وليس أبدًا ككاتب له عشرون عامًا وهو يزاول الكتابة وله أكثر من ثمانية وعشرين كتابًا، وإنما أمسكت ورقة أسئلة اللغة العربية كتلميذ يحاول الإجابة ويريد أن يعرف قدرته. إن اللغة العربية هي مادتي اليومية التي أتعامل معها، كما أن السمك مثلًا هو المادة اليومية التي يتعامل معها السمَّاك، يعرفه ويعرفها، وحتى بمجرد الملمس يستطيع أن يحدِّد الطيِّب من الخبيث.

قرأت الأسئلة بغير عناية كبيرة، ولكني ما لبثت أن اعتدلت في الكرسي، وزيادة في الدقة لبست النظارة، وبتمعُّن شديد أعدت قراءتها.

وقلت لنفسي واحدة من اثنتين: إما أن اللغة العربية التي أكتب بها وأستعملها وأفهم بها الناس ويفهمونني هي اللغة الصحيحة، لغتنا التي نطقنا بها أول ما نطقنا وكتبنا بها وما زلنا، وإما أنها لغة خاطئة مائة بالمائة وهناك لغة أخرى لا نعرف عنها شيئًا، لغة غريبة لم نكتشفها بعد، هي اللغة العربية الحقيقية وهي التي يعلِّمونها في المدارس، وهي التي أيضًا وضعوا لها هذه الأسئلة.

فالحقيقة أني رغم كل اهتمامي واعتصاري الخلايا عقلي لم أستطع أن أجيب على سؤال واحد.

وأمسكت بكتاب القواعد ألتمس الإجابات.

إذا أُعِلَّ حرف في الموزون لا يُعَلُّ في الميزان.

إذا كان الكلام ناقصًا منفيًّا تُعرَب «غير» حسب موقعها.

المضارع المضعَّف يُفكُّ إدغامه مع نون النسوة.

المعتل بالواو والياء لا يحدث فيه شيء مع ألف الاثنين ونون النسوة، ولكن مع واو الجماعة وياء المخاطبة يُحذَف حرف العلة ويُضم ما قبل الواو، ويُكسر ما قبل الياء.

ضمائر الرفع المتصلة وضمائر الرفع المتحركة، والناقص المعتل بالألف إذا كان ثلاثة أحرف تُرد الألف إلى أصلها ياءً مثل رميت، وواوًا مثل دعوت، أما إذا كان أكثر من ثلاثة فتُقلَب الألف ياءً مثل اشتريت، ويحدث هذا مع كل الضمائر إلا واو الجماعة، فمعها تُحذف الألف ويُفتَح ما قبلها وتُسكَّن الواو.

أزحتُ الورقة والكتاب جانبًا وأنا شاحب الوجه؛ فقد اكتشفتُ أني نصَّاب كبير، وأني ظللتُ أكتب وأكذب على الناس لمدى ربع قرن بينما أنا جاهل بهذه «اللغة العربية»، وبهذا «النحو والصرف».

وقلت لنفسي: إما أنني إنسان كالسيد البدوي، وُلِد وأسنانه النحوية والصرفية كاملة، وأن سليقته وحدها سوَّاها الله سبحانه وتعالى من عجينة من نحو وصرف، وإما أن هذا النحو كله نصب في نصب، وتفسير للماء بعد الجهد بالماء، وتعليلٌ أحمقُ ومُوغِلٌ في حماقته لتعقيد اللغة البسيطة وإحالة ما فيها من بساطة إلى ألغاز لا يدرك أسرارَها إلا كَهَنة اللغة العربية، كما كان كهنة آمون يحوِّلون الأدعية البسيطة إلى طقوس كهنوتية ينطقونها بلغة ومصطلحات لا يفقهها العامة؛ إذ بهذا وحده يظلون هم الكهنة أصحاب السلطة الروحية والنفوذ.

أقول: لقد ظللت ربع قرن أكتب ويقرؤني الناس، وأنا لا أعرف أن الحرف إذا أُعِلَّ في الموزون لا يُعلُّ في الميزان.

هذا هو السبب إذن في كُرْه الأجيال الجديدة للغة العربية؛ فنفس ما يحدث في النحو والصرف يحدث أيضًا فيما يسمونه إلى الآن هذا الاسم السخيف: النصوص. تصوَّروا! يسمون لغة الشعر الجميلة، إبداع الكاتب، تألق الخطيب، نصوصًا!

والمؤامرة، وأسميها عن عمد وصدق مؤامرة، المؤامرة على اللغة العربية تكمل باختيارات هذه النصوص؛ فهي مليئة بأسخف ما أنتجته القريحة العربية من شعر أو نثر، وبالذات إذا كان الاختيار من الأدب الحديث، فهم يختارون أولًا لأصدقائهم وزملائهم المتأدبين الموظفين في وزارة التربية والتعليم، ثم إذا بقي هناك مكان يختارون لشعراء وكُتاب من الدرجة الثالثة والرابعة والعاشرة، لم يسمع عنهم أحد؛ كلامًا ركيكًا ليس فيه حتى تشبيه واحد يدعوك للإعجاب أو يُثير انبهارك.

إن تدريس اللغة العربية لا يزال يُدرَّس كما كان يُدرَّس في الأزهر منذ خمسمائة عام، ولقد تطوَّر تدريس اللغات حتى أصبح عِلمًا يخرج باللغة وقواعدها من عقلها السحيق إلى حاضر عصرنا.

يا أهل الكهف، صحِّ النوم.

الديناصور

فقَدَ الحجمُ عصرَه الذهبي.

فالإنسان منذ أن بدأ يعي، ووعيه يجعله يدرك أنه من أصغر الموجودات حجمًا بالقياس إلى الجبال الهائلة الضخامة، والوديان الهائلة العمق والاتساع، والأنهار الخرافية الطول وكم الماء. بدأ يقدِّس «الضخامة»، أصبحت الضخامة ليست مجرد حجم هائل أو كم، أصبحت معنًى، ومعنًى رهيبًا مقدَّسًا، وهكذا حين فكر الفراعنة أجدادنا في تخليد أنفسهم، ومدِّ وجودهم إلى عصر النهاية، وجدوا أن أقدس وأروع ما يستطيعون به تجسيد هذا الخلود، هو الضخامة، وهكذا كانت، ولا تزال، الأهرام من أكبر معماريات العالم القديم والحديث ضخامة. ولا يزال السائح الأجنبي أو المصري حين يقف بجوار حجر من أحجار قاعدة الهرم ويرنو إلى هذه الكومة الهائلة التي لا يكاد العقل يعي ضخامتها، لا يزال يحس، بنفس ما أراده الفرعون القديم أن يجعل الرائي يحس حين يرى أهرامه به، يحس أنه أمام العمل الجبار المهول الخارق.

وليس التفكير في تضخيم الأشياء لإعطائها المعنى الأروع، مجرد نزوة، أو فكرة عابرة، إنها تكاد تكون قانونًا من قوانين الوجود؛ فالحياة نفسها حين بدأت على الأرض كحيوان بالغ الصغر مكوَّن من خلية حية واحدة، مضت تميل في محاولاتها الدائمة لتأكيد وجودها وبقائها وامتدادها إلى الأبد، تميل إلى تضخيم ذاتها، ومن الحيوان ذي الخلية الواحدة بدأت تنشأ حيوانات من خلايا متعددة، من ملايين الملايين من الخلايا، التي لا تُرى بالعين المجردة، بدأت أحجام الحيوانات تكبر وتكبر حتى وصلت إلى المرحلة الأهرامية من الضخامة الخرافية، إلى مرحلة الديناصورات.

ولكن، إذا كان للضخامة المعمارية مع تجسيدها لمعاني الخلود والعظمة عيوب، وهي المجهود البشري الهائل والسنوات الطوال التي تُستغرَق في إنجازها، فكذلك كان للضخامة

الحيوانية، للحياة حين تؤكد نفسها ووجودها بالضخامة، عيب يسير جنبًا إلى جنب مع هذه الميزة، ألَا هو البطء. فكلما كان الحيوان يكبر في الحجم كانت سرعته تبطئ، وحين وصلنا مرحلة الديناصورات، وصلنا إلى أقل مراحل الحياة حركة.

وهكذا كما وصل الإنسان إلى التعبير عن العظمة والروعة بالضخامة إلى درجة العجز عن إيجاد أحجام تُعبِّر عن الأروع والأروع، وصلت الحياة أيضًا بالديناصورات، أكبر أشكالها حجمًا، إلى مرحلة العجز عن إيجاد حيوانات أضخم تؤكِّد بقاء الحياة واستمرارها، فالحياة هي الحركة الإرادية الحرة السريعة المنطلقة بغير قيود، والحجم الضخم هو قيد الحياة التي وُجِدت فيه وهي تحاول أن تُعبِّر عن نفسها وتتحرر، أقسى قيد، هلكت الديناصورات عجزًا عن الحركة والالتفاف وتغيير الموقع والبعد عن مواطن الخطر، وكفَّ الفراعنة عن بناء أهرامات أضخم، بالضبط كما كفَّ الكُتاب من أمثال ديكنز وتولستوي عن إنشاء القصص الخرافية الحجم.

وكما اكتشف المهندس أن حجرًا صغيرًا منحوتًا بفن ممكن أن يُودَع فيه من الروعة والعظمة أضعافُ ما في الأهرام بضخامتها.

وكما اكتشفت الحياة أن طريق الديناصورات مسدود، وأن البقاء ليس للحيوان الأكبر حجمًا وإنما للحيوان الأذكى عقلًا وإدراكًا وسرعة.

اكتشف الكُتَّابُ أيضًا أن الروعة في الكتابة لا تُقاس بالضخامة، وإنما أصبحت الروعة في الكتابة تُقاس بما فيها من كمٍّ فني ومحتوًى إنساني. بل حتى تجاوَزوا هذا المقياسَ وأصبحت العظمة الخالدة في الكتابة لا تُقاس بمقدار ما فيها من كمٍّ فني، وإنما بنوع ما فيها من فن.

أصبحت الروعة ليست في ضخامة البناء، وإنما في نوع هندسته.

والروعة في الكائنات الحية ليست بضخامتها العضلية، إنما بذكائها.

والروعة في الكتابة ليست بعدد كلماتها أو صفحاتها، إنما ربما بجملة، ربما ببيت واحد من الشعر يحوي من روح الفن والشعر ونوعية هذه الروح ما يفوق به أعظم الأهرامات ضخامة.

الفنان

وأنا في العراق، أهدتني المذيعة التليفزيونية الجميلة ابتسام عبد الله بعد أن أجرت لقاءً طويلًا معي على الهواء استغرق ساعة، أهدتني كتابًا قامت بترجمته. وحين عدت إلى الفندق تصفَّحت الكتاب فوجدته بقلم «ميكيس تيودوراكيس» الموسيقي اليوناني المشهور، أو المشهور عندنا على الأقل بموسيقى زوربا، مع أن زوربا ليست سوى الإيريال الواهن الظاهر لموسيقيٍّ عظيم متعدد المواهب والكفايات، ذلك الذي جدَّد الموسيقى اليونانية كما جدَّد كازانتزاكس الأدب اليوناني. ولقد كنت أعرف أن تيودوراكيس له — بجانب نشاطه كمؤلف موسيقى — مواقفُ ثورية كثيرة مع الحركة الوطنية اليونانية، وحتى منذ الحرب العالمية الثانية أيام أن كان اليونانيون يقاومون المحتلين الألمان مقاومة رهيبة. كنت أعرف هذا، ولكني حين بدأت أتصفَّح الكتاب، وجدت أن هذا الجزء الموسيقي الظاهر من ميكيس أيضًا ليس سوى الإيريال الواهي لمكافح وطني عظيم، كان ولا يزال من قادة الحركة الوطنية هناك، وألَّف تنظيمًا هائلًا اسمه منظمة شبيبة لاميراكبس، قامت بقيادته بما يشبه الثورة الثقافية في اليونان، وأنشأت وبجهودها الذاتية بيوت ثقافة ومكتبات ونواديَ، وكانت أحيانًا تُنشئ الطرق والكباري، وتحل للقرية أو للمدينة مشاكلَها بنفسها ودون انتظارٍ لإجراءات وأوامر الحكومة المركزية.

ولكن حدث الانقلاب العسكري المعروف في اليونان عام ١٩٦٧م، عام الهجوم الأمريكي الشامل في أوروبا والشرق الأوسط وآسيا، وقُبِض على ميكيس.

الكتاب الذي أهدتنيه ابتسام اسمه «يوميات المقاومة في اليونان»، وهو تقريبًا تاريخ لحياة تيودوراكيس الذاتية؛ فقد اعتقله الألمان أيام الحرب ووضعوه في جزيرة أحالوها كلها إلى معسكر اعتقال.

في هذا الكتاب يتحدَّث تيودوراكيس عن قضايا كثيرة، وعن خلافاته مع الفِرَق الماركسية المختلفة، وبالذات مع قيادة الحزب الشيوعي، والغريب أني وجدت اليوميات وكأنها ترجمة ذاتية لقصة خلافي مع الشيوعيين المصريين، بل حتى كل ما كان يدور عندهم داخل معسكرات الاعتقال، كان وكأنه يتحدث عما حدث لنا هنا في معسكرات اعتقالنا في أبو زعبل وسجن مصر والقناطر والواحات.

المهم أنني في قراءتي للكتاب وصلت إلى فقرة يتحدث فيها تيودوراكيس (وهو ينتقل هاربًا من السلطة من منطقة إلى أخرى) يتحدث عن ضيقه بحياة السياسة تلك، وأمله الأكبر أن ينتهي كفاحه ضد السلطة العسكرية بسقوطها كي يستطيع أن يتفرغ للتأليف الموسيقي وللفن.

والحقيقة لقد أغرقت في الضحك لسذاجة تيودوراكيس من هذه النقطة بالذات؛ فهو طوال الكتاب يتحدَّث عن الأشعار والأناشيد التي لحَّنها والموسيقى التي ألفها، ويهرب من بدروم إلى بدروم، ومن منفًى إلى منفًى، ومن سجن إلى سجن.

ضحكت لأني تصوَّرت أن كفاح تيودوراكيس هذا لو تُوِّج بالنجاح، وكفَّ هو عن النضال لما تفرَّغ للتأليف الموسيقي كما يقول، وإنما لَكفَّ عن التأليف والتلحين كليةً؛ فالفن، وبالذات الفن الحقيقي الثائر هو فن المقاومة، لا يُفرزه الفنان إلا وهو محموم يقاوم ما يتصوَّر أنه العبودية والظلم.

الفن يا عزيزي ميكيس هو المقاومة. وها أنت الآن في باريس، في عاصمة الفن في العالم، مُحاطًا بالشهرة وبإمكانية التأليف أربعًا وعشرين ساعة في اليوم لو أردت، فكم قطعة ألَّفتها؟ واحدة، اثنتين، ثلاث. إنك باعترافك لحنت أوبريتًا بأكملها في يوم واحد أيام كنت تقاوم، وكتبتها في بدروم على ضوء شمعة.

والآن أنت في قلب النور.

ولا مقاومة.

والنتيجة ... لا فن!

مجرد ملاحظات

اجتماع اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي يُشكِّل — أو على الأقل مفروض أن يُشكِّل أكبر ظاهرة ديمقراطية — ولقد قرأت وحاولت فعلًا أن أُمعن النظر في كل قرارات اجتماعها الأول وأتفاعل معها، ولكن ثمة حزن داخلي كان يحول بيني وبين الاندماج الكامل؛ ففي الوقت الذي يتحدث فيه العالم كله عن قضيتنا الوطنية ومفاوضات كيسنجر المكوكية والانسحاب وشروط الانسحاب وشروط الشروط، وموقف مصر عربيًّا ومحليًّا ودوليًّا، في هذا الوقت بالذات الذي «يتصادف» أن اللجنة المركزية تجتمع فيه لا نجد أثرًا لهذا كله داخل اجتماعات اللجنة. العالم كله واقف على قدم وساق يناقش احتمالات النجاح واحتمالات الفشل، ولجنتنا المركزية المنبثقة عن مؤتمرنا القومي العام — أعلى سلطة في الدولة — ولا هي هنا اكتفت بفض الاشتباك بين دولة أخبار اليوم ودولة روز اليوسف، أما مسألة اشتباكنا مع إسرائيل وفضِّه فتلك مسألة يبدو أنها لا تخص اللجنة المركزية. وهذا النشاط الهائل داخل إسرائيل من اجتماعات ومناحرات ومظاهرات مع الاتفاقية وضدها حتى لو كانت تمثيلًا أو محاولة للضغط على أمريكا وعلى مصر ولكنه على الأقل رواية تتناول حدث الساعة فعلًا، أما أن يكون حدث الساعة واقعًا وقائمًا وفي سبيله لأن يصبح نصوصًا وتوقيعات ويخلو اجتماع اللجنة الأول من أي شيء أو بادرة تشير من قريب أو بعيد إلى ما يحدث، فالمسألة في رأيي تبدو محيرة فعلًا.

الكتابة مهنة شاقَّة حقًّا والدليل على هذا أن بعض كُتابنا يقومون بمعجزات لا يستطيعها كاتب من الشرق أو من الغرب أو ليس معجزة أن تظل تكتب كل يوم أو كل أسبوع ولمدة عشر سنوات أو ربما عشرين دون أن تقول للناس شيئًا. إنها لقدرة خارقة فعلًا أن تكتب دون أن تكتب، أن تقول كثيرًا دون أن تقول شيئًا، أن تصر على أن تظل صاحب قلم وأحيانًا صاحب مبادئ دون أن يُخطئ قلمك مرة ويأتي برأي مفيد أو

بوجهة نظر تورطك في قضية أو من اتجاه. إنها لعبة شبه لعبة المشي على السلك المعلق في السيرك، كل ما في الأمر أن لاعب السيرك يسير أمام عينيك فعلًا أما لاعب القلم فيُمثل أمامك، بدقة متناهية، وبتقمص زائد أنه أمامك يسير، دون أن يسير.

أتتبع بحماس زائد وبكثير من الإشفاق جهود السيد ممدوح سالم رئيس الوزراء المستميتة لاستعادة هيبة الدولة ولبدء الإصلاح في كل مكان. ولكن المشكلة هي كيف يتأتَّى لرجل بمفرده أن يقوم وحده بكل العمل. لقد قرأت مثلًا أخبار زيارته لمجمع استهلاكي وسؤاله المواطنين الواقفين في الطابور عن متاعبهم وعن رأيهم في نظام البطاقات وعن … وعن … أشياء كثيرة. أثلج صدري فعلًا أن ينزل رئيس الوزراء إلى الشارع وإلى المواطنين ويحمل عنهم المشاكل والهموم. ولكن المدهش أن يحدث هذا ونحن في النصف الأخير من القرن العشرين، وفي ظل جهاز دولة والحمد لله رهيب وذي تاريخ طويل ووظائف واختصاصات. إن معنى أن يضطر رئيس الوزراء لأن ينزل بنفسه إلى طابور المجمع الاستهلاكي، معناه أن مدير المجمع لا يقوم بعمله كما ينبغي ومفتش المجمع لا يقوم بعمله، ومفتش التموين لا يقوم بعمله، ورئيس قطاع التموين في الحي ثم في المدينة ثم في المحافظة لا يقوم بعمله، ووزير التموين لا يقوم بعمله، أو على الأقل معناه أن كل هؤلاء السادة يقومون بأعمالهم فعلًا لكنهم لا يقومون بها على ما يرام إلى الدرجة التي لا بد لرئيس الوزراء نفسه أن يترك عمله كرئيس للوزراء. وينزل ليفتش عليهم ابتداء من طابور المجمع في الحي. إنها قد تكون ظاهرة همة غير عادية لرئيس وزرائنا ولكن معناها الحقيقي أن لا أحد — دونه — يعمل، معناها أن الماكينة الضخمة التي اخترعناها وجهزناها باللوائح والشرائح والقوانين لتحمل حياتنا إلى الأمام توقفت مما اضطر السائق لأن يهبط منها ويأخذ على عاتقه مهمة دفعها ودفع ما تحمله من مواطنين إلى الأمام.

شكرًا للسيد رئيس الوزراء. ولكن المسألة فوق طاقة البشر.

وبالمناسبة، سائق شارع الهرم المشهور الذي توقف في الطريق وأبى أن يكمل الرحلة، رغم كل المآسي الكامنة وراءها إلا أنها تشكل في رأيي فاصلًا كوميديًّا في حرِّ أغسطس اللعين، تشبه إلى حد بعيد قصة الممثل حين يكتشف في منتصف الرواية أنه وحده «المحموق» الذي يحمل أعباء المسرحية كلها على كاهله، وأن كافة الممثلين الآخرين يلهون ويلعبون ويلطشون ويرتشون ويتبادلون النكات البذيئة من الجمهور فكانت النتيجة أنه فض يده من اللعبة وجلس واضعًا ساقًا فوق ساق على خشبة المسرح قائلًا: هه، مش لاعب. اشمعنى أنا!

وصحيح، هذا السائق المحبوس في كابينة القيادة لا وسيلة ولا طريقة لأن يزداد دخله. لا بواقي نقود مما تخص الكمساري. ولا سيجارة، ولا أمل أن يكسب مليمًا واحدًا فوق مرتبه، يكاد يكون الوحيد الذي يعمل في القطاع العام بانضباط وطوال ساعات العمل، وبلا أمل في أية فرصة للتزويغ؛ فهو يحمل داخل أتوبيسه وفوق أتوبيسه عشرات المواطنين على هيئة مفتشين دائمين أرواحهم في يده وروحه في يدهم.

يخيل إليَّ أن الموضوع وإن كان كوميديًّا إلا أنه لا يمكن أن ينتهي بضحكة أو بإجراءات إدارية ومجرد عقوبات، الموضوع في حاجة لمناقشة واسعة، أو على الأقل بداية مناقشة عن وضع العمل والعاملين في مصر وبالذات في القطاع العام.

أليس كذلك؟!

في الحديث الخطير الذي أدلى به الدكتور أحمد أبو إسماعيل وزير المالية في أهرام الجمعة الماضي حقائق كثيرة جعلتني أقرأ الحديث بضع مرات لأستطيع أن أستوعب ما فيه من معلومات خطيرة عن أوضاعنا الاقتصادية.

ولقد استوقفتني بضعة أرقام رهيبة في هذا الحديث.

الرقم الأول خاص بالقروض التي عقدتها الحكومة خلال عام ١٩٧٤م إذ ذكر الوزير أن الحكومة اقترضت في ذلك العام ٩٤٠ «تسعمائة وأربعين مليون جنيه» بفائدة قدرها ١٩٪، وهي تسهيلات أو ديون قصيرة الأجل يبلغ مجموع الفوائد عنها — مجرد الفوائد في العام الواحد — ١٧٨ مليون جنيه وكسور!

الرقم الثاني يقول إن القروض التي حصلنا عليها خلال الأعوام الماضية بلغت ٢٧٩ مليون جنيه من الدول الغربية و١٤٤ مليون جنيه من الدول العربية «فقط مائة وأربعة وأربعون مليون جنيه» أي حتى لا ترقى إلى قيمة الفوائد مجرد الفوائد على ديوننا. أما الكتلة الشرقية «الشيوعية من فضلك!» فقد أقرضتنا ٩٥٨ «تسعمائة ثمانية وخمسين مليون جنيه» لم نستخدمها كلها وقد تبقَّى منها ٣٣١ مليون جنيه بدون استخدام.

هذه الأرقام أبلغ من عشرات المقالات في توضيح موقفنا الاقتصادي: وأيضًا في توضيح — ليس فقط ضآلة وإنما يكاد يكون — انعدام المساعدة العربية، فإن رقمًا كهذا الرقم الذي ذكرناه إذا قورن بدخول تلك الشقيقات العربيات أو حتى إذا قورن بمجرد الزيادة الناتجة عن حرب أكتوبر في تلك الدخول يعد شيئًا تافهًا وكان مجرد «شلن» يمنحه مواطن منا لأي صبي موقف يحرس سيارته. فما بالك ببلد يحرس بدماء أبنائه وبقوت يومه حياة الأمة العربية كلها، يخيل إليَّ أن الاعتذار عن قبول هذا «الشلن» كان أكرم لنا وأجدى.

كاتبة جديدة حقًّا

ولكن الأمر لا يسلم أحيانًا من بارقة تُضيء كالشهاب في قلب الظلام، وأن تجيء هذه البارقة من كتاب يصدر عن مجلة الإذاعة والتليفزيون، مع أن مجلة الإذاعة والتليفزيون — مشكورة — ليس من عملها أبدًا أن تصدر كتبًا، وبالذات أن تصدر الكتب الأولى لمؤلفين شبان، إنما هو عمل دار النشر الحكومية التي مفروض أن «ترعى» الإنتاج الأدبي والفكري، ولكن هكذا تحدث المسائل في بلادنا.

الكتاب مجموعة قصص لكاتبة شابة تنشر مجموعة كاملة من قصصها القصيرة لأول مرة. ولقد بدأت قراءة الكتاب بحذر، ذلك أن القصة القصيرة من فرط ما تبدو سهلة وقصيرة. تشكل دائمًا منطقة جذب للكاتب المبتدئ، وحتى لغير المبتدئ، والنتيجة أن يتصور أن أية حكاية قد تصلح قصة، وفي السنين الأخيرة، أي أسلوب ملتوٍ وأي تيار للوعي يخلق أسلوبًا، وهكذا أصبحت القصة القصيرة بؤرة شديدة الوطأة «للعك» والتجارب الفاشلة والمهيضة.

ولكن فوجئت بسكينة فؤاد، صاحبة الكتاب، فلم أكن أتصور أن يتفجر النبع هكذا فجأة، وبلا مقدمات، وأن أجد أمامي كاتبة موهوبة حقًّا، بحرارة ماسَّة تكتب، وبقدرة مكثفة، وباللمسات السريعة الخاطفة ترسم وتعبر، والمهم أنها بلغة العصر تتناول الشخصية والموقف، ولغة العصر مهمة؛ فبلاغة الجاحظ ليست قصصية، ولا أسلوب القرن التاسع عشر والتتابع الرتيب للأحداث ونمو الشخصيات والأفكار — أسلوب الحكي — لا يؤثر في قارئ اليوم؛ فقارئ اليوم مزدحم الخواطر بالأزمات والتوترات ولا سبيل إليه إلا باقتحامه أسلوبًا وفكرة تفجيرًا للمشاكل. قارئ اليوم من فرط ما هو فيه من ضجيج لا يمكن أن يفيق إلا بقنبلة، والقصة القصيرة وإن كانت أقل الأحجام الأدبية، إلا

أنها كالقنبلة الذرية الأصغر ولكنها الأفعل، كل ما في الأمر أنها قنبلة لا تنتجها إلا موهبة، وموهبة من نوع خاص جدًّا لا سبيل إلى العثور عليها كل يوم.

ليس هذا بنقد — فلست بناقد — إنما هي دعوة للقراء، اقرءوا هذه المجموعة واقرءوا الكثير غيرها وإلا آمنت بذاك الذي قاله لي طبيب شيخ مستقيم الجسد بلغ الثمانين ولا يزال يتمتع بوعي كامل وبذكاء شديد وقد فسَّر لي هذا بقوله: من زمن بعيد وأنا أدرك أن شعبنا لا يحب شيئين: الرياضة، والقراءة. ومتعه دائمًا متع سلبية محضة كالطعام والشراب، وقد آليت على نفسي أن أقاوم هذه الخاصية القومية وأن أستمتع إيجابيًّا بالقراءة والرياضة، والنتيجة هي كما ترى، بلغت الثمانين، ولا أزال شابًّا.

لا أزال شابًّا. وكان الرجل على حق.

العيب ليس فينا

إحساس غريب يخرج به القارئ المصري لدى قراءته لما يُكتب في بعض جرائدنا وبأقلام بعض كتابنا عن «الانفتاح» فهؤلاء السادة يصورون الأمر كما لو أن المستثمرين الأجانب والعرب، وحكومات الدول الغنية تنتظر ومعها كنوزها الهائلة من الأموال والدولارات على حدودنا، وقد جاءت يدفعها الحماس الصادق لإقالة شعبنا من عثرته الاقتصادية، كلُّ ما في الأمر أن «بيروقراطيتنا» هي التي تمنع هذه الأموال من التدفق وهؤلاء المستثمرين عن البدء فورًا في المشروعات. إحساس غريب؛ لأن القارئ يخرج بانطباع إننا «نحن» وليس «الآخرون» هم السبب في عدم ورود أموال الانفتاح الطائلة إلينا، وفي هرب المستثمرين منا. بمعنى أن العرب الأغنياء والأجانب الأغنياء لا غبار عليهم بالمرة إنما العيب فينا نحن وفي أجهزتنا وفساد تليفوناتنا ومواصلاتنا وضيق مساكننا عن أن تتسع لمكاتب هذه الشركات القادمة أو تلك، وضيق فنادقنا أن تتسع لأصحاب رءوس الأموال القادمين وقد أحضروا معهم الجمل بما حمل.

ويستطيع أي منصف حسن النية أن يسمى تصويرًا كهذا مجرد مغالطة يرتكبها الكاتب بحسن نية، فهو مثله مثل الشعب المصري المسكين كان يتوقع بمجرد أن نقول كلمة «انفتاح» أن تغرق مصر فورًا في بحر من النقود والازدهار والعسل، وألا يكون شيء كهذا قد حدث فليس له من تفسير إلا أن أجهزتنا هي السبب، باعتبار أن الآخرين لا يمكن أن يكونوا السبب؛ فالآخرون دائمًا لا يخطئون وإنما الخطأ — إذا كان هناك خطأ — دائمًا من جانبنا.

ولكن أي شكاك قد يفسر هذا التطوع من جانب بعض الكُتاب بأنه محاولة يائسة للدفاع عن موقف أغنياء العالم — حكوماته وأفراده، عربه وأجانبه — منا.

وبادئ ذي بدء أقول ليس معنى كلامي هذا أني أدافع أو ألتمس العذر لأجهزتنا ومرافقنا؛ فهي لا شك في حالة من السوء الأقصى، ولو كان الأمر كما يصورون، وكانت الأموال الهائلة المخلصة المتحمسة رابضة على حدودنا، وتلك الأجهزة والأشخاص هي التي تمنعها لكُنا دعونا فورًا إلى تحطيم العوائق حتى بالقوة الجسدية.

ولكن المؤسف أن الأمر ليس هكذا أبدًا. فليس هناك حلم وردي كهذا، ولا الأموال رابضة على الحدود، تنتظر الإشارة. المؤسف أن شعبنا يجوع مرتين، مرة بجوعه وأزمته الاقتصادية ومرة بالأحلام الزاهية البراقة عن جنة نحن الذين — بأجهزتنا — نرفضها ونرفسها.

وأنا هنا لن أتحدث عن الحكومات والشركات الأوروبية والأمريكية فهؤلاء إن قدموا شيئًا فلا بدَّ أن يكون الأمر في النهاية لصالحهم وحدهم وليس شفقة أو تقديرًا أو من أجل سواد عيون شعبنا العظيم. إنما سأقصر حديثي على «الإخوة» العرب. ولا شك أن هناك معونات وقروضًا جاءتنا من بعض دولنا وحكوماتنا العربية، ولكنها فيما أرى جاءتنا على سبيل «أكرموا عزيز قوم ذل» ولا أريد أيضًا أن أمنَّ هنا بما فعلته وقدمته مصر في سبيل القضية العربية وأنه لولا القوة المصرية ولولا أكتوبر الخالد لما تضاعفت عائدات البترول إلى أضعاف أضعاف ما كانت عليه. لا أريد شيئًا من هذا. بل لا أريد أن أقارن بين ما قدمته هذه الدول إلى بلاد غنية كألمانيا الغربية وبريطانيا وفرنسا واليابان بل وحتى أمريكا نفسها، أريد في الحقيقة أن أتحدث من وجهة نظر البلاد العربية النفطية نفسها وليس من وجهة نظر أي طرف آخر. إن ما تقدمه الدول الصناعية من ثمن للبترول، لا يشكل في الواقع «ثمنًا» للبترول الخام إنما هو المقابل المادي «للقوة» العربية. فلو تصورنا العرب ضعافًا وجهلة ومتفرقين لما حفلت تلك الدول بتقديم أي ثمن في مقابل النفط الذي تحصل عليه أو لقدمت في مقابل الطن بضعة قروش، ولكن لأن هذا النفط في أيدٍ قوية ومؤثرة فإنها تُقدم له ثمنًا. والعرب سيظلون يقبضون هذا الثمن طالما هم أقوياء، وسيتوقف تدفق المال إذا ضعفوا.

إن حجر الزاوية إذن كما يقولون — هو القوة العربية الذاتية — والمثل قريب فحرب أكتوبر والقوة التي أظهرتها مصر وسوريا والمقاومة هي القاعدة الصلبة التي ارتكزت عليها الدول العربية في المقاطعة البترولية أولًا ثم في رفع أسعار البترول بعد هذا. والعرب حين يستثمرون أموالهم الفائضة في شراء مصانع مرسيدس بنز، أو ناطحات السحاب في نيويورك أو الكازينوهات في الريفيرا لا يقوون، وبالعكس، إنهم يبعثرون معادل القوة، وهم لن يقووا أيضًا بتقوية الدول الصناعية المتقدمة اقتصاديًّا وبمنحها القروض. إنما

يقوى العرب بأن يتحولوا إلى مجتمع منتج يحول الأوراق المالية والسندية إلى إنتاج مادي حقيقي وليس مجرد أرقام في البنوك. إن الغرب يأخذ المادة الخام — النفط — مادة حقيقية كالدم ويعطيك في مقابلها دولارًا أو ينًّا أو إسترلينيًّا ولكنه مجرد ورقة، ورقة لا يمكن أن تكون لها قيمة إلا إذا تحولت إلى بضاعة أو مصنع.

وحين رفعت مصر شعار الانفتاح لم ترفعه لمجرد أن يأتيها بعض الطعام وتنشأ فيها بعض العمارات. الانفتاح مفروض أن يكون أصلًا لزيادة «الإنتاج» أي لإقامة مؤسسات وشركات «تُنتج» ويأكل المصريون ويأكل العرب من حاصل الإنتاج. وبالإنتاج الصناعي يقوى العرب ونقوى نحن فالإنتاج أيضًا هو المعادل الكامل للقوة العسكرية.

وأنا لا أعرف بالضبط ماذا يحدث على الصعيد الاقتصادي العربي، ولا معنى كل هذه اللقاءات والمؤتمرات الاقتصادية العربية.

ولكن الواضح أنه للآن لم يبدأ تنفيذ أي مشروع عربي إنتاجي حقيقي، لا في مصر فقط ولكن في أي بلد عربي آخر، أيكون الأمر لا يحدث صدفة أبدًا، وإنما مخطط مستهلكي البترول أن يضعفوا على الدوام منتجيه وبالذات يُضعفوا أكبر إمكانية إنتاجية يملكها الشعب العربي، مصر؟!

ذلك هو الواضح إلى الآن، وذلك هو السبب الحقيقي، وفي رأيي أن الأموال ليست رابضة على الحدود — كما يحلو لبعض كتابنا أن يصوروا الأمر.

إن السياح العرب لم يجدوا صعوبة أبدًا ولم يشتكوا من عطل أية أجهزة تليفونية مصرية أو مواصلات، إنهم، ها هنا، مئات الآلاف، يقومون بالاستثمار الجسدي خير قيام، لماذا إذن نجح هذا الانفتاح البشري بالذات، وتلكَّأ طويلًا الانفتاح الإنتاجي الحقيقي. الآن هذا الانفتاح البشرى بما يصاحبه من آثار سيئة جدًّا على مجتمعنا المتماسك يساهم في إضعاف الإمكانية الإنتاجية المصرية وبالتالي يضعف أكثر وأكثر من قوة العرب، بينما الانفتاح الإنتاجي الحقيقي يقوينا ويقويهم؟

إن أخطر ما يمكن أن يحدث لنا في هذه الأيام الصعبة ألا نرى بوضوح وأن يساهم نفر منا في إفقادنا القدرة على الرؤية، ولا شك أن هؤلاء الذين يصورون لنا تقهقر المال العربي عن أن يتقدم بكم هائل لدعم «الإنتاج» في مصر وفي كافة الدول العربية أولًا وربما أخيرًا باعتبار أن العيب فينا وفي أجهزتنا واتصالاتنا، إنما يخدعون أنفسهم ويخدعوننا، بل ويخدعون رأسمال العربي نفسه عن أن يرى ما يفعله بنفسه وبنا.

إن كل العون الذي عُرض علينا — بل والمعروض حاليًّا — لا يتعدى ذرة مما يجب أن يكون. وليس هناك إلا تفسير واحد لهذا؛ إما إنها سياسية مرسومة لإضعاف العرب، وإما أن نظرتنا من القصر بحيث لم نعد نعرف ماذا يضرنا وماذا ينفعنا، ليعذرني الاقتصاديون أن أتحدث عن الاقتصاد، فعذري أنني مواطن كأي مواطن أصبح الاقتصاد هو شغله الشاغل، وأيضًا، كأي مواطن، أصبح لا «يأكل» الأحلام، خاصة إذا كانت فاسدة وكاذبة.

صحوة الإسكندرية

في هذا الخضم الهائل من العواطف المتناقضة والمشاعر المتباغضة والأفواه المفتوحة لا تعرف العدو من الصديق، وسط الطوفان هذا يسعد الإنسان حقًّا حين يعثر على لمسة تقدير أو وفاء أو حنان. ولقد هزني الحدث حقًّا؛ فرغم أنه كتاب، إلا أنه في رأيي حدث. الكتاب عن الفنان السكندري الموهوب سعيد العدوي، ذلك الذي اختطفه الموت من عامين شابًّا لم يتجاوز الخامسة والثلاثين، والذي، رغم هذا العمر القصير، ترك ثروة من الأعمال التجريبية والطليعية في حقل الفن التشكيلي في بلادنا. الكتاب حدث لأنه في الحقيقة كتاب فاخر. وأن يصدر هذا الكتاب الفاخر عن وزارة الثقافة أو أية هيئة رسمية أخرى مسألة لا تدعو للدهشة، أما أن يصدر بقروش وجنيهات أصدقاء الفنان الراحل ويتكلف في رأيي ما لا يقل عن الألف جنيه، أصدقاء لا بد يعانون كما نعاني جميعًا من الأزمة، ومع هذا، يُصدرون الكتاب، على ورق جيد، ويقومون، وفي الإسكندرية نفسها، بهذا الجهد في سبيل عمل الأكليشيهات وطبع اللوحات، شيء لا بد يدعو للفرحة، فما زلنا رغم كل شيء نحيا، وما زلنا نستطيع، في سبيل الهدف، أن نعتصر أنفسنا حينًا ونمضي نفرض على الحياة وجودنا.

لقد بهرتني فعلًا بعض لوحات سعيد العدوي، تلك أول مرة أرى له إنتاجًا من سوء حظي. شعبي خارق إلى درجة العالمية، عميق إلى درجة البساطة وحتى السذاجة، تلقائي إلى درجة الصوفية، وحسن أنه كان يعيش في الإسكندرية، وجميل جدًّا أنه كان مُحاطًا بهؤلاء الأصدقاء، وله مثل تلك الزوجة المتفانية في رعايتها ووفائها. إن الفن، قبل أي شيء، رسالة خاصة جدًّا، من إنسان لإنسان، إنه نوع من البوح والاعتراف، ولا يمكن أن يصل الفنان لهذا التواصل العميق إلا وهو محاط بهذا الحب العميق، ورائع جدًّا أن يظل يحاط بهذا الحب وهو لم يعد يوجد، فأعماله هي الفنان، وكتاب «سعيد العدوي» الذي صدر

عن أسرته وأصدقائه هو سعيد العدوي الذي يجب أن يظل حيًّا. ليس هذا فقط، بل أن يأخذ مكانته الجديرة به في سماء حياتنا الفنية. أليس هذا دور الثقافة ووزارة الثقافة؟

رائعة أخرى تلقيتها من الإسكندرية، مجلة شكلها — صحيح — ليس كما يجب، ذكَّرتني بالمجلات التي كنا نُصدرها في ثانوي ونجمع ثمنها سلفًا من تلاميذ المدرسة لقاء إيصالات. ولكنها حافلة؛ حافلة بزهور حقيقية (وليست كزهور الهلال صناعية محنطة). براعم كُتاب يتلمسون طريقهم بأصالة وتفرُّد للتعبير عن الذات. شعراء يعزفون ذلك العزف الرقيق الأصيل الذي لا بد كان سيضيع تمامًا في ازدحام القاهرة وضجتها.

المجلة اسمها «الصحوة» وأعتقد أن مجموعة الكُتاب والفنانين الذين أصدروها لا يريدون بتعبير «الصحوة» أن يخاطبوا أنفسهم، إنما هم في الواقع يريدون لأمتنا كلها أن تصحو. وحقيقة، أمَا آن لأمتنا أن تصحو؟

إن أزمة نشر الإنتاج الأدبي في مصر لا تزال مستحكمة، وأنت لا تستطيع أن تنشر كتابًا في القطاع الخاص إلا إذا كنت توفيق الحكيم أو نجيب محفوظ أو على الأقل تهاجم «العصر البائد» إذ قد بدأت دور النشر عندنا تعتمد على مصادر تمويل خارجي تؤثر بل وتختار ما يُنشر وما لا يُنشر، وأخوف ما أخافه أن تنقلب إلى بيروت أخرى. والأجيال المتعاقبة الجديدة تنمو وتصطدم رءوسها بالسقوف المسلحة ويحبط بعضها ويهاجر بقلمه من يستطيع أن يهاجر أو حتى يرحل بنفسه وجسده من يستطيع أن يرحل والغيوم شديدة الوطأة، ودور النشر في القطاع العام مشغولة تمامًا بالتجارة في كتب التراث، والبخار يتكاثف داخل الصدور بشدة، بخار التعبير المكبوت عن النفس والعصر، أمَا من طريق لنزع الفتيل عن القنبلة — قبل أن تنفجر — على حد التعبير الأساسي؟!

فـ «الصحوة» الإسكندرانية ليست هي الحل الأزمة التعبير في بلادنا؛ فنحن إذا كنا جوعى اقتصاديًّا، فظمؤنا الثقافي والتعبيري أكبر، وحلوقنا مشققة بالرغبة والحاجة، ولا بد من حلٍّ.

من سِفر الحياة والموت

وقفت في ميدان طلعت حرب مبهورًا أتطلع إلى الوجوه، كان المفروض أن أعبر ولكني في وسط الطريق أدركت فجأة أني كالمارين المسرعين في الميدان لا نرى ما يجب أن نراه، كل منا في عالم داخلي شديد الظلام والتعقيد، العيون مفتوحة، ولكن ما في الأنفس من ضباب يحجب الرؤية. العصر ذهب. المغرب حلَّ. نسمات الغروب تُعيد إلى القاهرة إنسانية فقدتها طول النهار من فرط القيظ والزحام، الأضواء، الألوان، الحركة، الابتسامات، الأيدي الممدودة في رفق تُطبق على الأيدي، الحياة. أجل الحياة. بعمق رحت أتنفس، آخذ الشهيق بسرعة وعلى عَجَل وكأني أخشى ألا آخذه، ثم ببطء وبإرادة وباستمتاع على مهل أخرجه، وأتحكم فيه، وأُثبت لنفسي أني فعلًا أتنفس، وأني ما دمت أتنفس فأنا أحيا، ولأني حي فالحياة جميلة جدًّا، حتى ما فيها من عذاب جميل. ضجة الأصوات والأبواق والحركة تدغدغ أذني، الوجوه من فرط ما هي حية أحس أنها تبتسم، ومن فرط ما أتخيل ابتسامها حقيقيًّا أحس أنها سعيدة، ولكنها لا تبدو سعيدة تذكرني بتلك القصة الصينية القصيرة جدًّا الهامة جدًّا.

قصة الرجل الصيني الذي كان سائرًا مرة في الشارع جوعان، حافيًا لم ينم، ولم يجد مكانًا للمأوى. نظر إلى السماء وقال: يا إلهي، إني أتعس مخلوقاتك. ومضى الرجل في طريقه ولكنه بعد لحظة رأى شخصًا آخر قادمًا في الاتجاه المقابل، ساقه مقطوعة ويحاول بكل ما يستطيع أن يسير على عكاز. والسير متعب ومرهق ومعذب، وهنا نظر بطلنا إلى السماء من جديد وقال: يا إلهي، اغفر لي، أنا أسعد مخلوقاتك. إن مالك الشيء لا يحس به من فرط امتلاكه، والأحياء يبدو أنهم من فرط امتلاكهم للحياة وإحساسهم بامتدادها يفقدون الشعور بها، بل يفقدون، وهذا هو الأهم، الشعور بمتعة أنهم أحياء.

ولست هنا في مجال أن أروي القصة كاملة؛ فهي في الواقع أغرب وأبشع، والمدهش أنها أيضًا أروع وأمتع قصة أُتيح لي ليس فقط أن أُعايشها وإنما يتعلق وجودي نفسه بخيط واهٍ دقيق بين أبهج ما في الحياة من إحساس وبين سكوت الموت والعدم، قصة لحظات مواجهة القوة الإلهية المهولة الحالقة البانية والقوى الشريرة الأخرى الهادمة، قصة طويلة ليس هذا أوانها على أية حال؛ فأنا لا أريد أن أكتب الآن قصصًا، وليس هذا وقت اعتصار النفس لإفراز الفن، يكفي أني أنتزع نفسي من الإحساس البريء العظيم أني حي بين أحياء، وأضيق الفتحة كي لا تسري الحياة إلا من خلال مِداد القلم. لحظة لا أملك فيها إلا دردشة أحس فيها بحنين جارف إلى القارئ حتى ولو لم يحس هو بحنين لي. لحظة رسالة لا أبعثها من عالم آخر، أو من على شفا عالم آخر، وإنما أبعثها من قلب هذا العالم الموجود، لا أقول فيها — لمن يهمُّهم الأمر — إن الحالة طيبة، والقوى الظالمة لم تجتح كل شيء بعد. لا تزال الحياة قوية نابضة رائعة وارفة الظلال، ولا زلنا، والحمد لله، أحياء أقوياء قوة الخير والحق والجمال وإنما أيضًا أقول للأحباب وللأصدقاء وللقراء: لا تخافوا، ليس بالتحديد من الموت؛ فالخوف من الموت غريزة قبل أن تكون دعوة أو نصيحة، الخوف من الموت هو بالضبط الحياة في أدق تعريفاتها، إنما أقول، لا تخافوا حتى وإن جاء.

والحق أني أقولها كمجرب، وكمجرب لا تزال التجربة بالنسبة إليه طازجة لهيبها يلفحه. تجربة المواجهة الغريبة بيني وبين الموت. وكلنا لا بد قد مرَّ بالتجربة بطريقة أو بأخرى و«كُتب لنا فيها عمر جديد» ولكن الفرق أنها تجارب تحدث رغمًا عنا ولا نوقن أنها حدثت إلا بعد مرورها. أما أن ترى الموت القادم رأي العين، ليس لومضة وإنما لساعات طوال، أن تراه ويراك، هكذا نِدَّيْن غريمين غريبين تتأملان بعضكما البعض في شيء غير قليل من الاستنكار والشماتة. إذن فهذا أنت أيها الموت الذي طالما خوفونا بك، وطالما أرعبتَنا في صحونا وفي نومنا، طالما سبَّبت لنا من ذعر، بل أنت الذعر الأكبر نفسه ولا شيء سواه، فتلك قضية أخرى، بل ربما لأنه الذعر الأكبر تربى في نفوسنا أو في نفسي أنا بالذات حب استطلاع شديد تجاهه، وأحيانًا كثيرة كنت بخيال الكاتب، وبلا تشاؤم أو اكتئاب أتطلَّع إلى اللحظات الفاصلة، حين تجيء النهاية، كيف ستجيء وماذا بالضبط سيحس الإنسان حين ينتقل من كونه حيًّا إلى حالة العدم، أيظل يعي، أيتحول الوعي إلى روح تدرك وتتصاعد وتظل محلقة تفهم وتشارك دون أن تملك القدرة على التأثير والحركة؟ كانت أسئلة كثيرة كهذه تدور ببالي وكان الخوف الغامض في الغالب يوقفها ويدفع الإنسان دفعًا إلى أن يفكر في شيء آخر.

ولكن الأمر هذه المرة لم يكن أمر أسئلة، وإنما كان أمر واقع حي أواجهه وأحس أني قد أموت حتى من رعب المواجهة، ولكني لا أملك لها منعًا أو دفعًا فقد أصبحت حقيقة من المستحيل تجاهلها.

ولا أعرف لماذا حدث هذا، أو كيف؟ فلست ذلك الشجاع الذي يرقب قدوم شيء مخيف كهذا وعلى فمه ابتسامة استخفاف، بل أنا لا أعتقد أن أشجع الشجعان لا يخاف الموت، إنما هو شجاع لأنه يرتعب خوفًا من الحدث القادم، ولكن إرادته تفوق رعبه ربما يكون السبب أن المواجهة جاءت نهاية قصة صراع طويلة، بيني وبين الحياة، وبين الحياة والموت، وبين الشك واليقين، وبين التسليم والمقاومة.

أن ترقد في فراشك وعيناك معلقتان، رغم أوامر الأطباء والسسترات المشددة بعدم النظر، ولكن ماذا نفعل في هذه النفس البشرية المحبة للاستطلاع الكامنة فيك؟ عيناك معلقتان برسام تليفزيوني كهربي بجوار الفراش يسجل كهرباء القلب ويرسمها ويوضح جيدًّا ما يحدث لها من ارتباك ويشير إلى لحظة الخطر القادمة. الحياة. كل حياتك معلَّقة بذلك الخيط الدقيق من النور الصناعي يعلو ويهبط في رتابة مطمئنة أحيانًا، أحيانًا يتوقف لومضة، وأحيانًا تركب دقة فوق دقة. غابة من الرعب يحتويها الجهاز الصغير المركب بجوارك. تأمر نفسك وتنهرها بشدة أن تكف عن النظر ولكنك لا تكف إلا للحظات، فكيف تكف عن متابعة مصيرك يتحدد وبمنتهى الوضوح أمام عينك؟ تزحف العينان ببطء إلى حيث الجهاز.

هذه الدَّقَّة قد تكون الأخيرة، آخر دقة يدقها القلب. ماذا يحدث إذا حدثت؟ هل يغمى عليَّ؟ وما هو الإغماء؟ وما الفرق بين إغماء العافية وإغماء العدم، إغماء تعود منه وإغماء لا رجعة فيه، ما الفرق؟ أم تكون، حتى الآن قد مت فعلًا وروحك هي التي تتابع الموقف، وما الذي يحدد إن كنت حيًّا لا أزال؟ قرص جلدي؟ ولكن القرص والإحساس يحددان اليقظة من النوم. أية علامة أخرى أو دليل يحدد الحياة من الموت؟ إني أتنفس؟ ولكن ماذا لو كنت «أعتقد» أني أتنفس؟ ما الفرق بين الحقيقة والوهم هنا؟ وكل شيء يبدو حقيقيًّا تمامًا وكل شيء يبدو وهميًّا تمامًا، بل ليس هناك حد فاصل بالمرة؟ فبجواري مباشرة الفِراش الذي توفيت عليه سيدة الغناء العربي أم كلثوم، بل إن الأجهزة التي استُعمِلت في إبقائها حية لا تزال موجودة ومركونة، حية رغم أن الحياة منها كانت قد ذهبت قبل أن تصل المستشفى، حية بالأجهزة، الفارق كبير بين حالتي وحالتها، أيكون

إدراكي لهذا الفارق هو العلامة الوحيدة الدالة على أني لا أزال أحيا، أم أنا أحلم؟ وهذا كله لا يدور في الحقيقة، إنما هو كابوس مرعب، مليء بالأشباح، ونحن الرجال لا نزال نخاف كالأطفال من الأشباح، ولكن الأشباح التي تخيفنا ليست كالأشباح في الحواديت والأساطير؛ فتلك كانت ولا تزال تُخيف الأطفال، الأشباح التي تخيفنا اليوم من صنعنا نحن، أشباح بيضاء معدنية مليئة بعشرات المؤشرات، أجهزة، تكنولوجيا، جملة قصيرة في تحليل طبي، اسم لاتيني علمي، ديابيتس، كانسر، إبثيليوما، كلمة ترد في تقرير طبي أو فحص أشعة، أحس بالثقل الشديد في أجفاني، أريد النوم، أليس هذا علامة أكيدة على أني حي أو على الأقل على أني لا أحلم؛ فالإنسان لا يحلم بأنه يريد أن ينام. الإنسان لا ينام في الأحلام، ولكنه دائمًا يحلم أنه يستيقظ من نومه، ولكن، لماذا لا أكون أحلم أني أريد أن أنام، وأن النوم يُناديني بإغراء يُفكِّك المفاصل ويرخي العضلات، وأني لم أعد أدري؟

وإلى الآن، وأقول لكم الحق، إني لا أزال لا أدري، ولا أزال غير متأكد أني اجتزت البرزخ، ومن أي اتجاه، هل إلى متسع الحياة أم إلى متسع الأبدية، أصافح وأسلم وأتكلم، وأحس وأشعر، ولكن من قال إن هذا كله دليل حياة، من قال حتى إنه دليل يقظة؟

ولكن إذا كانت هذه — ولتسمحوا لي بتحفظ آخر — هي الحياة، وأننا لا نزال في عِداد الأحياء، فلا أعتقد أن الفضل في هذا يعود إلينا، ولا بالتحديد لأي منا، وإنما الفضل لخالق كل شيء وخالقنا، وبقينا أحياء أو موتى هذا لا يهم، المهم أننا في ملكوته لا نزال. ولكن لأننا جزء منه وهو أيضًا منا، فإرادتنا هي الأخرى من إرادته، وإرادات كثيرة قد ساهمت في أن أظل معكم، ربما آخرها جميعًا إرادتي أنا.

اسمحوا لي أن أسأل

أعتقد أن من حقي كمواطن أن أسأل، فإذا كنت أنا الذي أدفع فمن حقي، بل في المجتمعات الحديثة من واجبي، أن أسأل. والمشكلة أني لست أدري إلى من أوجه السؤال؛ فالناس مثلي الذين لا يتمتعون إلا بالمعلومات العامة عن الاقتصاد أعتقد أنهم أصبحوا في حيرة؛ فزمان كان السؤال يوجَّه إلى وزير المالية أو الخزانة ذلك أن أمور الاقتصاد كلها كانت تُديرها وزارة المالية، وكان وزير المالية هو العقل المفكر والمنفِّذ لكل ما يتعلق بأمور الاقتصاد والنقود في بلادنا. الآن أصبحت هناك وزارات للاقتصاد وللخزانة وللتجارة الخارجية وللتجارة والصناعة حتى لقد أصبح الأمر أمر «مجموعة» اقتصادية لا تعرف — إذا كنت مثلي — إلى مَن بالضبط تُوجِّه سؤالًا بسيطًا كالسؤال الذي أريد توجيهه. والسؤال يتعلق بثلاثة وأربعين جنيهًا وعشرين قرشًا أصبحت أدفعها زيادة في ثمن السجائر التي أدخنها كل عام. فمنذ بضعة شهور زاد سعر علبة السجائر التي أُدخنها فجأة ستة قروش مرة واحدة، ولأني أدخن علبتين في اليوم فقد أصبح عليَّ أن أدفع اثني عشر قرشًا زائدة في اليوم؛ أي ذلك المبلغ الذي ذكرته في العام. هذه الزيادة في أسعار السجائر قررتها وزارة الخزانة أو الاقتصاد أو التجارة لا أعرف ولكن ما أعرفه أنني أدفعها. والسؤال هو: لمن أدفع هذه الزيادة؟ ومَن الجهاز الذي يُحصِّلها؟ وهل هذه النقود تذهب لخزانة الدولة أم هي تذهب إلى جيب تجَّار السجائر المحلية والمستوردة؟ إذ ما دامت شركات السجائر — الأجنبية على الأقل — لم ترفع سعرها الأساسي في زيادة في ثمنها ستذهب: إما مكسبًا زائدًا للشركة المنتجة أو المستوردة أو ستأخذها الحكومة لنفسها. ولأن رفع الأسعار، أو على حد التعبير الجديد، تحريك الأسعار قالت الحكومة في تبريرها له أنه قرار اتُّخذ لمصلحة الاقتصاد القومي، وبما أني حريص تمامًا كأي مواطن صالح على الاقتصاد القومي وعلى تنمية موارد الدولة فأعتقد أن لي الحق أن أسأل على الأقل الجهة التي رفعت الأسعار،

عن مصير هذه الزيادة في السعر، وإذا كانت تذهب للخزانة العامة، فكيف تذهب، وكيف تُحصَّل، وهل هناك جهاز يقوم فعلًا بمهمة تحصيل هذه الزيادات التي طرأت على الأسعار وتوريدها لخزينة الدولة، أم أن الزيادة كانت لمصلحة تجار السجائر وغيرها من السلع التي لا تحتكرها الدولة.

إنني أقلب علبة السجائر بين يدي فلا أجد أنها تحمل ختم الجمارك والذي بواسطته وحده يمكن أن تُحصي الحكومة كمية السجائر المبيعة وبالتالي كم الجمارك المستحقة عليها، فكيف تتولى الحكومة هذا الحصر ما دام المستورد يستطيع أن يبيع ما يشاء من كميات ويحاسب الجمارك على ما يشاء؟ كيف تتم عملية الضبط أو الانضباط هذه والدليل الوحيد عليها — علامة الجمرك — غير موجود، بل ولا حتى ذلك الشعار الذي تشترطه كل وزارات الصحة في العالم وتُجبر الشركات على الكتابة على كل علبة: التدخين قد يكون ضارًّا بصحتك.

هذا هو السؤال.

فقد واتاني ليلة الأمس كابوس أن يكون مبلغ الأربعين جنيهًا والزيادة التي أدفعها — وهي بمثابة ضريبة شراء باهظة جدًّا — تذهب ليس إلى خزانة الدولة كما تصوَّرنا جميعًا وإنما إلى جيوب التجار والمستوردين. بل وتأكد لي الكابوس حين قلبت العلبة أمام ناظري ولم أجد دليلًا واحدًا يدل على أنها مرت من جمرك ما أو كانت هدفًا لأي حصر أو إحصاء. وأني، ومعي ملايين المواطنين، ننتظر الجواب.

التثقيف اللاسلكي أيضًا

ختامًا لموضوع التثقيف اللاسلكي، أحب أن أقول إن ما يمكن كتابته حول هذا الموضوع لا نهاية له. فالموضوع ليس فقط موضوع الدراما في الإذاعة والتليفزيون (وبالمناسبة عاتبني بعض الأصدقاء لأني لم أذكر بعض المسلسلات ذات المستوى التي أُذيعت خلال شهور ماضية مثل: الأيام، وهي والمستحيل وسهرة استقالة عالمة ذرة وتحقيق وغيرها) ولقد عجبت من العتب والعتاب، فما من شك أن هذه أعمال كانت جيدة. ولكن، ماذا تكون؟ قطرة في بحر؟ أنا لم أكن بصدد «نقد» ما يقدمه التليفزيون والإذاعة من أعمال درامية، لقد كنت بصدد مراجعة شاملة للمادة الدرامية التي وصلنا إلى أنها في حاجة إلى ١١٣ مؤلِّفًا مسرحيًّا متخصصًا باعتبار أنها في حجم مئات المسرحيات. وهذا شيء مختلف تمامًا عن تقييم بعض ما قدم. كنت أريد أن أقول إن المساحة المخصصة للدراما في الإذاعة والتليفزيون أكبر بكثير من إمكانياتنا التأليفية والإخراجية والتمثيلية. والدليل بسيط: إننا لا نستطيع أن ندلل إلا بضرب أمثلة لمسلسلة أو مسلسلتين أو سهرة أو سهرتين بينما الساحة تُشكل مئات المسلسلات والسهرات والتمثيليات.

وليس المساحة الدرامية فقط. إن خارطة البرامج للإذاعة والتليفزيون في حاجة قصوى إلى إعادة نظر؛ فبعد ظهور التليفزيون أصبح الراديو في العالم كله مصدرًا لشيئين رئيسيين: الموسيقى والأخبار. كل إذاعات العالم الآن لا تعتمد إلا على هاتين المادتين، أما بقية المواد، ومن بينها الدراما، فإنها توضع على الخارطة بحساب دقيق وبحشد هائل لإمكانيات فنية تُحتِّم على المستمع ألا يغلق الراديو أو يتحول لمحطة أخرى، وما أسهل ما أصبح في استطاعة المستمع أن يتحول لمحطة أخرى.

مطلوب إذن من أي خارطة جديدة للإذاعة أن تحفل بكثير جدًّا من الموسيقى، وقليل جدًّا من الكلام، كثير جدًّا من الأخبار وقليل جدًّا من الأحاديث والتعليقات. كثير جدًّا من الحقائق وقليل جدًّا من الحقائق الموجَّهة (إن صح التعبير).

أما التليفزيون فإن ما نحتاجه في الحقيقة هو، بعد تغيير مفهوم الرقابة والأُسس التي تُختار عليها المادة الدرامية سواء أكانت مسلسلات أم أفلامًا قديمة أم حلقات مستوردة فلا بد من مفهوم جديد تمامًا للأحاديث وللمقابلات التليفزيونية وبالذات للبرامج الدينية. برنامج المسلم الصغير مثلًا الفكرة ممتازة إذ المطلوب أن يعرف الأطفال كثيرًا من أمور دينهم. ما نفعله أننا حولناه إلى مسابقة في «حفظ» الآيات والأحاديث. وجانب الحفظ هذا ليس إلا جانبًا واحدًا من جوانب كثيرة نربي بها الطفل، فإذا اقتصرنا على «تحفيظه» الدين، «وتحفيظه» مواد الدراسة من لغات وعلوم، و«تحفيظ» الهندسة والطب وغيرها؛ فالنتيجة أننا سنحصل على «أشرطة تسجيل» ممتازة، ولكن أن نحصل فعلًا على مواطنين أطباء ومهندسين وعلماء وعمال وعاملات ومدرسات وعالمات فمسألة أخرى مختلفة تمامًا. أذكر وأنا في نيويورك أنني شاهدت برنامجًا في التليفزيون منقولًا عن لوس أنجيلوس، كان برنامجًا غنائيًّا، فتيان وفتيات جميلات جدًّا، سنًّا ووجوهًا وقامات وصحة، يرتدون أزياء بسيطة رائعة الألوان (كان البرنامج ملونًا) وتصاحبهم على البيانو عازفة زنجية سمحة الوجه والملاح، وكان الغناء يدور كله حول معنى واحد: الحب. كيف يبدأ الإنسان بحب نفسه ثم حب أبويه وأقاربه وأصدقائه ثم الناس جميعًا، الحب بمعناه المطلق، حب الإنسان والحيوان والنبات، حب الوطن والناس، حب الجار والجارة والزميلة والزميل. كانت الشمس رائعة تذهب المشهد والألوان مبهرة، والموسيقى تجسد الحب كلمات صافية وألحانًا، وتتسع زاوية التصوير لترينا بانوراما للمشهد، وإذا به فناء كنيسة في لوس أنجيلوس، واليوم أحد، والبرنامج برنامج ديني عن الحب.

أن نغرس في نفوس أطفالنا الدين حبًّا وإيمانًا وتضحية وشجاعة في الحق وصدقًا مع الآخرين والنفس وعطفًا على المسكين وإدراكًا لمعنى أن يكون الإنسان فقيرًا أو محتاجًا. أن يتحول الدين من «كلمات» إلى «معانٍ» و«قيم» لا يمكن أن يحدث بأن يأتي شيخ مُسنٌّ فاضل و«يأمر» الناس بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى. ولهذا فالأحاديث المباشرة والنصائح الجافة المباشرة والردع بالكلمات المهولة المخوِّفة ليس هو الطريق إلى قلب لا الأطفال ولا الكبار، والدين والقيم والمُثل مكونات لا بد أن «تتسرب» إلى النفس البشرية كالبذور لا يمكن «بالأمر» أن تنبت، وإنما بالماء والسقيا والرعاية والكلمة الموحية تزدهر وتنبت.

حديث الروح مثلًا. أتوقع أنا وأنت أن يظهر لنا عالم شاب غارق إلى أذنيه بين أدوات معمله يرفع رأسه فجأة ويفتح لنا طاقة من نفسه تطل منها روحه ويشركنا معه في ذوب وجدانه الغارق في ماديات العلم والعالم. أن تلتفت لنا ربة بيت أنهكتها شقاوة الأولاد ومرض البنت والوقوف في طابور الجمعية، ومع هذا، تترك ما في يدها، وما يشغلها، وتسمو بنا فجأة إلى حيث روحها الغنية، تقف وراء هذا كله، وتمدها بالطاقة لتحمل هذا كله.

ولتعرف الفارق، أُحيلك إلى برنامج حديث الروح في التليفزيون، وانظر أنت وقارن.

ويجرنا هذا إلى الأحاديث السياسية في التليفزيون.

لا بد أن نعرف أن «تصديق» المشاهد للمتحدث وللحديث أهم ألف مرة من محتوى المتحدث أو الحديث. ومشكلة العصر هي مشكلة التصديق. ولا فائدة في أعظم الأحاديث والبرامج إذا لم يصدقها المتفرج أو أدار لها ظهر وعيه. وكان التليفزيون قد ابتدع برامج سياسية شدت انتباه الجمهور حين كانت تحتوي على الرأي والرأي الآخر، ولكن المتفرج ما لبث أن أزورَّ عنها حين أصبحت لا تحتوي إلا على الرأي دون الرأي الآخر. ذلك أن المتفرج لا يفتح التليفزيون ليجعل من نفسه تلميذًا في مدرسة ولو كانت مدرسة سياسية، إنه مستعد أن يفتحه «ليفكر» وليس فقط لأن «يتلقَّى» والرأي وحده يحيله إلى متلقٍّ، بينما الرأي والرأي الآخر يحيله إلى «مفكر» وشتان بين الموقفين.

والمتتبع للبرامج التي تناقش حياة الناس يفجعه أنه لا يسمع في هذه البرامج إلا تصريحات المسئولين عن هذه المشكلة أو تلك. وكأن «مناقشة» المشكلة تتقلص إلى أن تصبح مجرد «عرض» لوجهة نظر المسئول عنها. المطلوب أن «يُناقَش» المسئول فيما يقول، وفي مسئوليته، وأن تُوضَّح العقبات، ولهذا فيعتبر برنامج لو كنت المسئول خطوة على الطريق، إنما هي خطوة واحدة لا بد أن تليها خطوات تصل في النهاية إلى أن نكون مستعدين، تليفزيونًا وحكومة، أن نسمع الصوت المعارض فعلًا وإلا لاعتبرنا التليفزيون — كما هو حادث حاليًّا — احتكارًا لحزب الأغلبية، في حين أن التليفزيون مِلك للمواطنين جميعًا، أغلبية وأقلية، أو هكذا يجب أن يكون.

وفي النهاية نجيء إلى البرامج الثقافية. الغريب أو المضحك أننا في الوقت الذي نشكو فيه من ضحالة ما يقدمه التليفزيون من ثقافة نفاجأ ببرامج مثل عالم الباليه وصوت الموسيقي لا يمكن أن يُقدَّما إلا في بلاد كالسويد مثلًا أو البرنامج الثاني من هيئة الإذاعة البريطانية، فالباليه والموسيقى الكلاسيكية نماذج للثقافة الرفيعة التي لا

يحفل بها إلا إنسان شبعان ثقافيًّا، قبل أن نستمع لكونشرتو البيانو رقم ٢ لرحمانينوف ونستمتع به، أعتقد أنه من العدل أن نقدم أولًا برنامجًا نعرف به الفرق بين الموسيقى الشرقية والموسيقى الغربية، ثم الفرق بين السيمفونية والكونسير، والفرق بين كونسير الفيولينة وكونسير البيانو، وبين المدرسة الكلاسيكية الروسية مثلًا والألمانية، ثم نعرف تطور الموسيقى الروسية ثم نصل إلى الخمسة الكبار وأخيرا إلى رحمانينوف وإنتاجه ثم في النهاية كونشرتو البيانو رقم ٢. وهكذا الأمر في باليه بحيرة البجع وغيره. بمعنى أنه إذا كان على جهاز شعبي كالتلفزيون أن يتعرض للباليه وللموسيقى الرفيعة فهو لا بد أن يتعرض لها كإلمام بها وكتعريف، وليس أبدًا كاستمتاع، فمن غير المعقول أن أقدم على قناة جمهورها أربعة ملايين برنامجًا لن يفهمه وبالتالي لن يستمتع به إلا واحد في الألف من جمهوره. إن هذا هو التخبط بعينه. هذه عينات من الثقافة الخاصة التي تقدم لجمهور خاص لا يمكن أن يزيد أبدًا عن جمهور البرنامج الموسيقي الإذاعي، ولندع الاستمتاع به إن شاء الله للخطة الخمسية الثقافية التالية بعد أن نكون قد عرفنا، مجرد معرفة، موسيقانا على الأقل وهضمناها.

من أجل هذا، ولأن الموضوع أضنُّ بوقت القارئ أن يضيع فيه؛ إذ مجاله مؤتمر محدود، نقول فيه للمسئولين عن الإذاعة والتليفزيون ولوزير الدولة برئاسة الجمهورية الأستاذ منصور حسن المسئول الأول عنهما ما نراه، وما يراه غيرنا، مؤتمر «تفكير» وليس مؤتمر نقد ولوم، تفكير جماعي نحاول به أن يساهم كل منا برأي أو اقتراح أو وجهة نظر فليس من المعقول أن نترك لموظف واحد أو بضعة موظفين وإن كانوا يحملون أعلى المؤهلات أن ينفردوا بالتفكير والتخطيط وامتاع وتثقيف وتسييس الملايين.

فإني أُحيل الموضوع كله لمؤتمر محدود كهذا، أرجو أن ينعقد في القريب.

عزف وهَّابي منفرد

الأسلوب العبقري الجميل يخلق لصاحبه أسلوبًا أكثر عبقرية وجمالًا، والصوت الجميل يظل يجمل الصوت حتى ليبلغ به الإعجاز، الجمال يجمل، والقبح يقبح، والصفاء يؤدي إلى الصفاء، جميل أن تسمع عبد الوهاب المتحدث، مثلما هو جميل وأنت تسمع أغانيه، وما الفارق؟! لا فارق إلا أنه حفل ذو جمهور واحد، وأسطوانة لك وحدك. وهات يا عبد الوهاب ما عندك والحديث كان عن الندوة الحكيمية التي أقامها الشاعر الجميل فاروق شوشة وحشدنا فيها حتى أصبحنا «فرجة» يخيل إليَّ أن ربع الساعة الأولى من الندوة انقضى في عملية تأمل لما سماه فاروق بـ «العمالقة» أرقى الكائنات في حديقة الإنسان، يتطلع إليها الجمهور، كائنات غريبة «تفكر» ويقولون إنها «تنفع»، تُرى كيف يؤلف هؤلاء القصص والروايات، ويسرحون تلك السرحات التي تملأ المجلدات وتسوِّد بنَمَش مُلحٍّ غريب صفحات بأكملها من أوراق الصحف.

قلت لعبد الوهاب: افتقدتك في هذه الأمسية الثقافية.

قال عبد الوهاب بتواضعه الذي أعرف أن له ما بعده: وما لي أنا والثقافة يا عم؟ أنا راجل بتاع موسيقى.

هو يعرف تمامًا رأيي، ويدرك بشعيرات ذكائه الإلهي أطراف أطراف انفعالي به. يعرف أن النموذج الأعلى للثقافة في رأيي أن يكون الإنسان موسيقارًا؛ فالثقافة ليست معلومات تُحشر في أدمغة الناس، وليست دراسات عليا وإنسيكلوبيدات، الثقافة ببساطة متعة عليا جدًّا من متع النفس البشرية. تشبه إلى حد كبير مرحلة «النيرفانا» في عبادة اليوجا، حيث يظل الإنسان بروحه يصعد ويصعد إلى قمة بلا جبل، وإلى حيث تصبح الحياة بكل متطلباتها ومتعها ومباهجها قاعًا بلا بحيرة، يظل عليها إنسان ملك الدنيا إذ ملك نفسه، ملك السعادة لأنها أصبحت بإرادته بل لأنها أصبحت تأتي حتى بلا إرادته؛

إذ إرادته تكون موجهة للكمال الأعلى، وكلما صعدت وصعد بها تجتذب نسمات الاكتفاء السعيد «السعادة» كما تجتذب الزهرة، بلا إرادة أو جهد نحلها، وفي هذا الجو المشبَّع بالمجد والذوبان تحمل النحلة حبات اللقاح، ويحبُّ الكون نفسه من خلال الذكر والأنثى تلك الحيلة التي ابتدعها ليخلق اللذة من ذاته وبذاته ولذاته، ما أروعه من كون مخلوق خالق، وما أروعها من ثقافة!

فعلًا افتقدت الموسيقى مجسدة في عبد الوهاب في تلك الأمسية الثقافية ورحتُ، وأنا أحدثه، ونستعيض بالحديث عما كان ممكنًا أن يكون، رحتُ أستعيد تاريخي الغنائي من خلال هذا الرجل — الموهبة — الحنجرة أغانيه من خلال «ماكينة الغناء» الوحيدة التي نملكها في العزبة، ثم من خلال الراديو الزينيت هائل الضخامة الذي اشتراه أبي واشتركت القرية كلها في الترحيب به وحمل بطارية العربة الثقيلة التي يعمل بها. في الليل لما خلا إلا من الشاكي، الصوت يأتي، تحمله نسمات الصيف وأتصور هذا الذي يغني، أجمل إنسان ممكن أن تقع عليه عينك، شاب شعره من فضة ووجهه من ذهب وعيونه من ماس، يغني لليل فأذوب عشقًا لليل، وللحبيب فأخلق وأختلق الحب والهجر والعذول. ويقول: يا دنيا يا غرامي فأذوب في الدنيا غرامًا وهيامًا، ويضيع في الأوهام عمره، فبكل ما أملك من كرم وبذخ أضيع معه أنا الآخر عمري وحلمي وأتمنى استحالة صباي أوهامًا أبعثرها في مدينة أسطورية يجوبها جندول حالم، ومعي هذا المستحيل الحبيب الذي كلما قلت له خذ، قال: هات. يا حبيب الروح. يا حبيب الروح فعلًا يا عبد الوهاب. حتى اسمك، حين يقوله الصوت الأجش في بداية الأسطوانة: الأستاذ محمد عبد الوهاب. تشرئبُّ أعناق انتباهنا، ونستعذب، ونجلُّ ونعشق الاسم وحتى كلمة الأستاذ: حديث. والصوت جميل والموضوع عذب. لحظة من تلك اللحظات القليلة التي يستمتع الإنسان فيها أنه قريب من ذلك العالم المجهول، عالم الفن، وأن الفن أولًا أساسًا وبادئ ذي بدء، ليس همًّا فوقه هم، وليس مسئوليات وأكوام هباب أسود وأزرق، وإنه إذا لم يكن عمله الأول أن يسعد النفس، نفس منتجه ونفس مستقبله فلا كان الفن ولا كان الفنانون.

يبدو أننا فعلًا كثيرًا ما نقسو على ذواتنا بلا داعٍ أو معنًى، وبدلًا من أن نخفت من نار الجحيم الذي أحيانًا ما نعيش فيه نزيد ناره اشتعالًا نتعذب بعض الشيء فنعذب أنفسنا ونعذب الآخرين، وعذابًا بعذاب فلتستحيل الحياة إلى جهنم لا تطاق.

وليته جحيم الحركة لأمام، أو جحيم حل، ولكنه جحيم محلك سر، وزئير «الجير بوكس» والفيتيس في حالة «مور» ذلك الذي يهري الموتور ويبري الحديد. وما نحن بحديد. إن نحن إلا خلايا حية بالغة الرهافة. أرواحنا أرق وأدق من حفيف الفراشات، ما أسهل، بضغطة من هنا، وضغطة من هناك، أن تختنق، وتموت ونموت، حتى لو بقينا أحياءً، فما فائدة البقاء بلا روح، أو بروح غير بشرية من حجر أو فولاذ.

«أعد يا عبد الوهاب.»

السؤال إجباري

في الأسبوع الماضي وجهَّت سؤالًا مباشرًا إلى المسئول أو المسئولين عن رفع أسعار السجائر وغيرها من احتياجات المواطنين؛ فقد حسبتها كما قلت، ووجدت أني كمواطن بدأت أدفع أكثر من أربعين جنيهًا في العام زيادة في ثمن ما أستهلكه من سجاير. ولأنها زيادة باهظة، ومبلغ لا يُستهان به على مستوى الفرد والدخل، وإذا عرفنا أن أمثالي من المدخِّنين من المواطنين للأسف لا يقلون عن عشرة ملايين، فمعنى هذا أن الزيادة تُقدَّر بمئات الملايين من الجنيهات.

ولقد تساءلت: إلى مَن تذهب هذه الزيادة؟ فلقد قبلتها، وقبلها المواطنون باعتبار أنها من المؤكَّد تذهب إيرادًا جديدًا إلى الدولة تُنفِق منه على المشروعات العامة وحلِّ مشاكل الناس. ولكن، حين خطر لي أنها قد لا تكون تذهب إلى الخزانة العامة، وإنما إلى جيوب التجار والمستوردين؛ فقد بادرتُ كأي مواطن بريء بسؤال: مَن تفضَّل ورفَعَ أسعار هذه المواد؟ ليهدِّئ خواطري وخواطر الملايين، ويطمئننا إلى أنها فعلًا تذهب إلى خزينة الدولة.

في الأسبوع الماضي تساءلت، وكنت حَسَن الظن فعلًا؛ فقد جلست أنتظر الجواب، ولم يأتِني أي جواب؛ لا من وزير الخزانة، ولا من وزير الاقتصاد، ولا من وزير التجارة الداخلية، ولا من وزير التجارة الخارجية، ولا من أي إنس أو جان.

والحقيقة دهشت؛ فإني أقرأ باب البريد في الصحف والمجلات، وأجد أن الوزير المختص أو الوزارة المختصة كثيرًا ما تُبادِر إلى الرد على شكاوى المواطنين أو تساؤلاتهم. فالمبدأ إذن موجود؛ مبدأ أن يردَّ الوزير أو الوزارة على تساؤلات المواطنين. المبدأ موجود ولكن يبدو أنني حَسَن النية تمامًا؛ فالوزير أو الوزارة أو المسئول مستعدون أن يردوا إذا كان الأمر يتعلق بعلاوةِ غلاءٍ استحقَّها موظف ولم تُصرَف له، أو بشكوى أرملة من عدم صرف معاش، أما حين يتعلق الأمر بملايين الجنيهات وبقضية تمسُّ ملايين المواطنين،

فسذاجةٌ منا أن نعتقد أن أي مسئول سيبادر بالرد. إن «التطنيش» هنا مسألة واجبة، وبما أننا سنُفرِد فقرة تالية للتطنيش وخلافه، فمن المستحسَن هنا أن أتساءل: كيف لم أتلقَّ ردًّا على سؤالٍ وجَّهته من خلال صحيفة كالأهرام واسعة الانتشار على ما أعتقد ليس في مصر فقط وإنما في العالم، وحتى لو كان المسئول لا يقرأ الأهرام أو لا يقرأ بابي، فالمؤكد أن في كل مكتبِ وزيرٍ سكرتيرًا صحفيًّا خاصًّا مهمته البحث في كل صحفنا ومجلاتنا عما يُكتَب عن وزارته وعَرْضه على الوزير أو المسئول.

السؤال إذن وصل.

فلماذا لم أتلقَّ جوابًا؟

ربما لأني سهَّلت الأمورَ على مَن لا يحب الرد وذكرتُ أن الوزارات المسئولة عن نقودنا واقتصادنا أصبحت كثيرة بحيث لم يَعُد ممكنًا لإنسانٍ مثلي أن يُحدِّد بالضبط الجهةَ التي ترفع الأسعار، والأُسسَ التي عليها ترتفع.

وربما لأني بالاستقصاء عرفتُ أني كنت على حق في تساؤلي؛ إذ ثبت لي أن نسبة كبيرة من القروش الستة الزيادة في ثمن كل علبة سجائر ذهبت إلى جيب التاجر والمستورد فعلًا، وإنْ ذهب منها إلى خزينة الدولة نسبة محدودة.

إذن الزيادة في السعر لم تكن كلها لمصلحة الخزانة العامة، ولا من أجل الإنفاق على حل المشاكل والمشاريع، نسبةٌ كبيرة منها ذهبت ربحًا، ولا أستطيع أن أقول حلالًا، لجيوب تجار السجائر ومستورديها. وليس هناك مانع أن يربح تاجر السجائر، وأن يرفع أسعاره كما شاء.

وعلينا نحن المستهلكين أن نستعين بالحكومة وبأجهزة الرقابة لكي نغلَّ يده عن رفع السعر ونمنعه، ولكنَّ هذه الزيادة، الحكومةُ أو وزارة الخزانة هي التي قرَّرتها، وهي التي رفعت السعر. ومن الغريب أن تتولَّى وزارة رسمية رفْعَ سعر بضاعة لكي يربح تاجر من وراء هذا الرفع؛ إذ ما دامت النقود العائدة لن تذهب كلها للمصلحة العامة، فما دخل الوزارة هنا أن تتولَّى هي رفع السعر لمصلحة التاجر؟

إني ما زلت مصرًّا على سؤالي؛ فهو ليس سؤالي وحدي، إنه سؤال يتوجَّه به على الأقل خمسة عشر مليون مواطن — للأسف — يدخنون، عليهم أن يدفعوا أكثر من خمسين مليون جنيه خلال هذا العام فقط «زيادة» في سعر السجائر، ويهمُّهم تمامًا أن يعرفوا

إلى أين تذهب هذه الزيادة، وما الداعي — إذا كانت تذهب لجيوب التجار أو تذهب نسبة كبيرة منها — ما الداعي أن تتولى الوزارة رفع هذا السعر لمصلحة تاجر السجائر؟

وبما أن علامة الجمرك غير موجودة على كثير جدًّا من علب السجائر الموجودة في السوق، فكيف تحاسب الحكومة تجار السجائر على هذه الزيادة؟ وما هي الضمانات التي اتخذتها الوزارة لتُحصي بدقة عدد المطروح من السجائر وتتأكد من توريد الزيادة التي طرأت إلى خزانة الدولة؟

وليست السجائر فقط، كل البضائع التي «تحرك» سعرها، وتولَّت الأجهزة الرسمية تحريكَ هذا السعر، لمن تذهب الزيادة في سعرها، وضمانات تحصيلها وعدم تسرُّبها إلى جيوب المتلاعبين بأقوات الشعب؟

أسئلة، ها هي ذي علنية واضحة وتنتظر الجواب.

وليت الذي كانت لديه الشجاعة لكي يرفع السعر.

أو ليت الجهة التي رفعت، تجد لديها الشجاعة لتُجيب.

والسؤال — ليس اختياريًّا — إنه سؤال إجباري.

المسهلات اللغوية

شرُّ البلية ليس ما يُضحِك، وإنما هو في أحيان ما يجعلك تقف موقفَ المتفرج. صحيح، ليس أشر من موقف المتفرج، خاصةً إذا وصل الأمر حد التفرج على أشياء وأشخاص هم أعزُّ عليك من نفسك. ومنذ بضعة أسابيع وأنا أتابع ما آل إليه أمر «الجمهور» عندنا، ضحية الواقع وضحية ما يُعرَض عليهم، ضحايا التعليم والمعلم، وضحايا التربية في المنزل والملعب والمدرسة والشارع.

فجأةً يفيق الإنسان فيجد وكأنه أصبح موجودًا وسط مجتمع غريب عمره ما رآه أو سمع به أو كان يتصور إمكان حدوثه ووجوده، أو يجد نفسه هو الغريب وسط مجتمع منسجم تمامًا مع نفسه، متآمر تمامًا مع ذاته، حتى لغته أصبحت ألفاظًا غريبة مُتَّفقًا عليها كلغة التجار زمان حين كانوا يتآمرون خلسةً على الزبون فيسمونه «الديفش»، ويحذرون منه بقولهم «حزي» أيْ «خلي بالك منه» و«حزي الديفش» يعني «خلي بالك من الزبون» وهذا «فريك» يعني لص ... وهكذا. اليوم تسمع الرجل أو الشاب فتجده يتكلم عن «اللي مش هوه» أو عن «اللي هيه» وعن «طنشه قوام» ولا يهمك «ده وهم ع الآخر»، أو وطلعت العملية «سكَّة»، أو ما «تشوفه» يا أخي، يعني: ارْشُه أو ... أو ...

إلخ. تجد نفسك في النهاية كالأطرش في الزفة، يتسلل ماء التفاهم التام تحت أقدامك، ومن الممكن أن يسلبوك، وأنت محترم جالس، أعزَّ ما تملك وأعزَّ قِيَمك وما قضيت الحياة تنزف الدم والعَرق والدموع من أجل أن يتحقق، وفي النهاية «يطلع نقبك على شونه»، ويطلع حلم المجتمع العظيم الجديد «سَكَّة على الآخر».

في أحيان تلجأ المجتمعات للضحك على نفسها بطريقة في غاية الدهاء؛ فهي بدلًا من أن تستعمل الكلمة الدالة على العملية الجنسية مثلًا مثلما هي موجودة في قواميس الشعب من قديم الزمان، تخترع كلمة مخفَّفة جدًّا أو حتى لا علاقة لها بالموضوع لتخاطب نفسها بها، ليس لكيلا تخدش الكلمة حياءها، وإنما ليخدع المجتمعُ نفْسَه ويتوهَّم أنه إنما يتناول موضوعًا لا غبارَ عليه بالمرة، في حين أنه يكون مغروسًا إلى عنقه في قاع موضوع فاحش. وما استعمال «النكسة» لتسمية الهزيمة، و«تحريك» الأسعار لتسمية رفعها عن سبق إصرار وترصُّد، إلا محاولة موازية من أجهزة رسمية هذه المرة لخداع النفس أو خداع الجماهير أو خداعهما معًا.

لكأنما وجد الإنسان المصري نفسه أمام أوضاع لا قِبل له بمواجهتها. إن أسعار المواد الضرورية للحياة تُخرِج لسانها لمستوى الأجور، ولا يمكن لإنسان يعتمد على دخله الرسمي فقط أن يعيش به، ولا بد أن يحدث شيء من اثنين: إما أن يموت الإنسان انتحارًا أو عجزًا أو جوعًا، وإما أن «يُحرِّك» قِيَمه ومبادئه تحريكًا، وليبدو بسيطًا جدًّا، إلى أسفل. وهكذا على الإنسان العادي أن يُسهِّلها على نفسه، وبما أن النفس جُبِلت على النزوع إلى تقديس القِيَم وتكريس الصدق والشرف والأمانة، فلا سبيل لهذا إلا بلعبة لغوية ماهرة. إن «إهمال» كلمةٌ سخيفة يُعاقب عليها الإنسان نفسه إذا ارتكبها، ولكنَّ «التطنيش» كلمةٌ غامضة المعنى تمامًا، وإن احتوت على معنى الإهمال فهو احتواء ضمني لا يمكن أن يعاقب عليه قانون الضمير، وهكذا وحياتك ... وطنشته ... وبراءة يا عمنا المتحدث، محترم أنت وجالس «بيه» في كامل ثيابك الجسدية والعقلية لا يجرؤ أحد على خدش شخصك، فأنت لم ترتكب شيئًا، أنت قمت بعمل مشروع تمامًا لا يعاقب عليه لا المجتمع ولا النفس. وهكذا في كلمة «رش»، إن رش الماء ورش الحب ورش البذور، تعني الخير، تعني أن يفيض الخير ويتسع ليشمل أكبر عدد ممكن من الناس و... أليست الرشوة نقودًا وخيرًا يُصيب بعض الناس، فلنسمِّها رشَّة بدلًا من رشوة، فتستريح الضمائر والقِيَم ولا يغضب أو ينزعج أحد. وفعلًا كان المُشرِّع اللغوي الجديد بارعًا في اختياره؛ فالرَّشَّة قريبةُ الشبه جدًّا من الرشوة من حيث أسماء الحروف وعددها، صحيح أن المشرِّع اللغوي اختلس

«واوًا» من الكلمة، ولكنه لم يختلسها والعياذ بالله من الكلمة الجديدة «الرشة»، وإنما اختلسها والحمد لله من الكلمة البغيضة القديمة «الرشوة»، والاختلاس من البغيض حميد، والسرقة من السارق حلال، وهكذا وحياتك … و«رشيت» … ويئوب «البك» المحترم إلى بيته المحترم وأولاده وزوجته المحترمين، وهو لم يفعل طوال يومه أكثر من أنه «طنش» على بعض الأشياء، و«رش» بعض الأشياء، و«حرَّك» بعض الأشياء، والنتيجة: كله وحياتك خير، والحمد لله على هذه نعمة، فقط ربنا يكفينا شر «القر» وشر حقد «السِّمَّاوي»، وما أكثر السِّمَّاوية في هذا البلد الذي يمتلئ حقدًا على الناس «الناجحين» من أمثالنا. كله وحياتك لخير البلد، هم يكرهون الخير لمصر، و«يحقدون» بعيونهم الزرق والسود والحمر والبنية، ولكن «القافلة» ماضية، وإلى الأمام تسير، مهما عوت الكلاب وجأرت السِّمَّاوية والكمبورات، وسلِّمْ لي على أحمد رجب والدرش مصطفي حسين.

أتبكي أم تضحك؟

الملحوظ الغريب هو الشجاعة التي انتابت بعض القراء الأعزاء فجأة؛ إذ فجأة بدأ يتسلل إلى خطابات القراء، خطابات غُفل عن الإمضاء أو ممضاة «مواطن» أو «مصري» أو «أيوب صابر» … وأنا عادةً أبدأ الخطابات من آخرها؛ لأعرف مقدَّمًا من المرسل. وهكذا كلما عثرت على توقيع كهذا، حسبت أنني سأقرأ في الخطاب أسرارًا خطيرة، أو هجومًا ساحقًا ماحقًا، أو تفاصيل فوارة لقلب نظام الحكم. والمذهل أني، في أغلب الأحوال، لا أجد شيئًا بالمرة. قارئ يكتب مثلًا ويؤيدني في نقد برامج التليفزيون تأييدًا هادئًا تمامًا ورزينًا ولا يحتوي حتى على كلمة نابية، ما معنى ألَّا يكتب اسمه أو يخفيه أو يتستر وراء أيوب المصري أو الفلاح الفصيح.

كعادتي لم أخذ الموضوع ببساطة؛ فتكرار الظاهرة، عندي وعند غيري، جعلني أحس أن الثقة بين القارئ وصحافته، بل ربما بينه وبين أجهزة إعلامه كلها، تكاد تكون مفقودة. معناه أن قطاعات كثيرة من الناس قد بدأت إما تسكت، وإما تتخفَّى وكأنْ لم يَعُد لها أدنى ثقة بالنور. وهذا أمر خطير.

«أرجو من السادة المصحِّحين ترك الخطاب كما هو.»

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأديب الكبير الدكتور يوسف إدريس

تحية طيبة وبعد:

من مدينة السويس الباسلة يسرني ويسعدني أن أهنئكم لعودتكم إلى باب «المفكرة» وبعد.

أنا المواطن أحمد عبادي محمد موظف بالعلاقات العامة بمديرية السويس التعليمية، ولي محاولات في كتابة المسرحيات القصيرة حازت على الجوائز الأولى والثانية في مسابقات النادي الاجتماعي بالسويس، كما أكتب القصة السينمائية وأريد عرضها على المختصين بعالم الفن السينمائي من منتجين ومخرجين، إلا أنني أريد قبل هذا العرض أن أتشرف برأي إحدى الشخصيات الأدبية الكبيرة في إنتاجي السينمائي حتى يشدَّ من أزري نحو سعيي بإنتاجي إلى عالم الفن السينمائي، وشخصياتكم والحق يقال تعتبر من أوائل الشخصيات الفنية والصادقة في عالم الأدب والصحافة والنقد البنَّاء.

فأرجو والأمر كذلك الموافقةَ على السماح لي بعرض أحد إنتاجي السينمائي عليكم شخصيًّا أو بريديًّا، حسب رأي سيادتكم وبالشروط التي ترونها، بما في ذلك عدم ذكر اسمي عليها في حالة رضاكم عنها ويكفيني شرفًا حينما أجد ذلك الإنتاج السينمائي وقد أخذ طريقه إلى النور، تحت رعاية شخصية تعتبر من أوائل الشخصيات الأدبية والفنية في مصر، أَلَا وهي شخصيتكم العظيمة.

فهل يجد لديكم رجائي هذا القبول؟

أرجو ذلك، كما أرجو قبول اعتذاري لهذه الطوابع، فأنا لا أقصد من ذلك شيء سوى عدم تكليف جريدتكم وجريدتنا المحبوبة جريدة الأهرام أيَّ شيء.

وإلى أن نلتقي مع إيفادتكم والرد علينا بالموافقة من عدمه، لكم مني أطيب التمنيات بالصحة والسعادة والتوفيق.

وتفضَّلوا بقبول فائق الاحترام.

المخلص

أحمد عبادي محمد

مديرية السويس التعليمية

وإني إذ أشكرك أيها الصديق القارئ على ثقتك، لا أملك إلا أن أعقد حاجبي مندهشًا من خطابك هذا — واعذرني — غاية «الاندهاش»، فسيادتك تعرض عليَّ هكذا علنًا، ودون أن تهتز لك شعرة استغراب أنْ ليس لديك مانعٌ أن يظهر إنتاجك السينمائي «تحت رعاية» شخصي «العظيم» دون أن يُذكَر اسمك عليه. أتعرف يا سيدي الفاضل الموظف بالعلاقات العامة بـ «التربية» والتعليم، ماذا يعني عَرْضك «العظيم» هذا؟ هل تدرك — أم أنك لا تدرك — أنك تعرض عليَّ أن أضع اسمي على إنتاجك (يعني أختلس إنتاجك أو أسرقه أو أقتبسه) وأرضى أن أضع اسمي أنا عليه بينما سيادتك قابع في السويس تشاهد بشغف إنتاجك العبقري وعليه اسم الكاتب الكبير، بينما أنت — مؤلِّفه الحقيقي — يا عيني جالس تتفرج على «الروائع» التي أبدعتها قريحتك وهي تحمل اسمَ واحدٍ من أولئك الذين يسمونهم الكُتاب الكبار؟!

أنا لا أعرف من أين استوحى ذلك القارئ هذه الفكرة، هل رآها في مسرحية أم قرأ عنها قصة، فكرة الكاتب الكبير الذي يتولَّى أناسٌ مغمورون تزويدَه بالقصص العبقرية التي يضع عليها اسمه ويقبض ثمنها نقودًا ومجدًا، بينما مؤلِّفوها الحقيقيون يعيشون في ظلام المجهول.

لا أعرف من أين استقى هذه الفكرة «الحسن إمامية» تمامًا، ولكني أذكر أن الفنان محمد عوض له مسرحية تتناول موضوعًا كهذا الموضوع، وأعتقد أني رأيت مرةً في مسرح تحية كاريوكا مسرحية لموضوع مشابه كتبها على ما أذكر الفنان فايز حلاوة. لا أذكر، ولكن الذي أعرفه تمامًا أني أحيا في حركة أدبية مصرية وعربية وعالمية منذ أكثر من عشرين عامًا، ولم أصادف أو أسمع عن أشياء كهذه تحدث في الواقع، ولكن ربما لأن المسرح أو التليفزيون تناولها مرة أو مرتين اكتسبتْ صدقًا ربما أقوى بكثير من الواقع، بدليلِ أن قارئًا كهذا، ليس قارئًا عاديًّا، ولكنه قارئ «يكتب» و«يؤلف» للمسرح والسينما (واعذروه على أخطائه الهجائية) يعرض، ليس في مسرحيةٍ هذه المرة أو في سيناريو فيلم، ولكنْ في الحقيقة والواقع على كاتبٍ يُكِنُّ له هو كما يقول كلَّ الاحترام، أن يقبل منه هذه المكافأة، ويعتقد أنها فعلًا مكافأة يكافئ بها كاتبًا يُقدِّره.

والمضحك — بل المؤلم — أنه لا يدرك، هو الذي يزعم أنه يؤلف، لا يدرك أن في الأمر جريمة خُلقية كبرى؛ فهو، كما هو واضح، ببراءة شديدة يفعل هذا ولا يحس أنه يرتكب شيئًا، أو أن في الأمر أي إهانة، إنها شيء بسيط وعادي جدًّا، بل ربما أراد بهذا إسعادي وظنَّ أن عرضًا كهذا سأتقبَّله بالفرحة والشكر.

هذا هو المؤلم، وإذا كنتَ في الفقرة السابقة قد تكلَّمت عن اللغة المسهلة التي بدأت تنزلق على ألسنتنا لنخفِّف بها من هول ما نستعملها لتسهيله، ابتلاع الجرائم وزلطها وتخفيف مفعولها إلى مجرد «الرش» و«المماينة» و«التطنيش»؛ فالنتيجة هي هذا، أن صاحبنا، مُواطنًا من آلاف وملايين المواطنين، لم يَعُد يرى في السرقة «الأدبية» وربما غير الأدبية، التي يقوم بها الإنسان عن عمد وتدبير وسبق تفكير وإصرار، ولا الإغراء والتحريض على ارتكاب الجريمة، شيئًا يؤاخذ الإنسان عليه أو حتى يستحق المؤاخذة، بالعكس، يرى فيه عرضًا ظريفًا مستحبًّا، بل وربما مَدْعاة شكر، وماله، بتحصل في أحسن العائلات وأعتى المؤسسات والوزارات، وعلى مستوى وزراء ونوَّاب رؤساء، والمؤلم أكثر أن يرسل لي، طيَّ خطابه، خمسةَ طوابع بريدية من فئة القرشين احترت لماذا أرسَلَها خمسة، بينما الرد عليه إذا قرَّرتُ قبول عرضه المغري ودخول التاريخ، لن يأخذ سوى طابع واحد، وحين أعدت قراءة خطابه، أدركت «الفولة»، وأنه قرَّر أن يبدأ الاتفاق منذ الآن و«يرش» عليَّ وعلى «جريدتنا المحبوبة» بأربعة طوابع، أليس يبدأ الطريق إلى «المجد»، وما دام المجد سيكون سرقة، فلِمَ لا تكون بداية الطريق إليه رشوة ورشًّا؟!

والمؤلم أكثر وأكثر أن تحمل الطوابع صورة شاعرين عملاقين: محمود سامي البارودي وعلي الجارم، جادا بأعمارهما حفاظًا على قِيَم شعبنا وحريته واستقلاله، أفنيَا عمرَيْهما تحريضًا على العِزة والكرامة والنبل والشرف.

تُرى، ماذا يقولان إذا عرفا أن طوابعهما نستعملها الآن أدوات «رش»؟

ألف سلام لك يا أخ، وألف تحية، وألف شكر على عرضك المغري، وألف اعتذار لأني من السذاجة بحيث لن أقبله.

وأرجوك سامحني؛ فهذه المرة لن أستطيع أن أسلِّم لك على المترو.

شكرًا يا دكتور ولكن ...

اطَّلعت باهتمام بالغ على كلمتك التي نشرتها جريدة الأهرام بعددها الصادر في ٢٢ / ٢ / ١٩٨٠م تحت عنوان «اسمحوا لي أن أسأل» والتي تساءلتم فيها بشأن الزيادة في أسعار السجائر الأجنبية عن كيفية تحصيلها ولمن تُدفع وإلى أين تذهب، وضمانات تحصيلها، وعدم تسربها إلى جيوب التجار، وعن وجود كثير من علب السجائر الأجنبية بدون علامة الجمرك الدالة على سداد الرسوم الجمركية عليها.

وقد اطَّلعت كذلك على كلمتك التي نشرتها جريدة الأهرام بعددها الصادر في ٢٩ / ٢ / ١٩٨٠م تحت عنوان «السؤال إجباري» والذي تُبدي فيها دهشتك لعدم الرد على النقاط السابق الإشارة إليها.

وأودُّ في البداية أن أؤكد لك أنني أبادر دائمًا بالرد على كل ما يُنشر في الصحف وليس فقط ما يتعلق بعلاوة الغلاء أو عدم صرف معاش على حدِّ ما جاء في مقالك.

وإنني إذ أعترف أن ردِّي على مقالك الأول قد تأخر أسبوعًا كاملًا إلا أن ذلك كان لأسباب خارجة عن إرادتي حيث كنت بالإسكندرية في بداية الأسبوع الماضي للمشاركة في أعمال المؤتمر الضريبي الذي نظَّمته جامعة الإسكندرية كما كنت يوم الثلاثاء في اجتماع اللجنة الوزارية للخطة والإنتاج، ويوم الخميس في اجتماع الحزب الوطني الديمقراطي.

ولما كان الموضوع الذي تحدثتم عنه في مقالكم على جانب كبير من الأهمية ويحتاج إلى جمع العديد من البيانات فقد تعذَّر الرد عليه في حينه، وليس أدل على سرعة رد وزارة

المالية على كل ما ينشر بالصحف من وصول هذا الرد إليكم بعد أقل من ٢٤ ساعة من قراءة كلمتكم الأخيرة، ونبدي فيه ما يلي:

أولًا: لقد صدرت القرارات المتعلقة بفرض رسم إنتاج على السجائر المحلية بواقع ٣٠ مليمًا للعلبة ٢٠ سيجارة وزيادة رسم الاستهلاك المقرر على السجائر المستوردة بواقع ٦٠ مليمًا على أن تسري هذه الزيادة اعتبارًا من ١٥ / ١٢ / ١٩٧٩م.

ثانيًا: تقوم مصلحة الضرائب على الإنتاج والأعمال التابعة لوزارة المالية بتحصيل الرسم المفروض على السجاير المحلية من المنبع لدى شركات القطاع العام المنتجة، ولا يوجد أي تهرب في هذا المجال.

ثالثًا: تقوم مصلحة الجمارك بلصق طابع البندرول الدال على سداد رسم الاستهلاك على السجائر الأجنبية عند دخولها في مختلف مواني الجمهورية.

رابعًا: إن حصيلة هذه الزيادة تذهب إلى الخزانة العامة للدولة باعتبارها أحد الموارد السيادية لها.

خامسًا: إن نسبة المستهلك من السجاير الأجنبية مقارنة بالمستهلك من السجائر المحلية لا تتعدى ٥٪.

سادسًا: إن ما يظهر بالسوق المحلية من سجائر أجنبية لا تحمل طابع البندرول الدال على سداد الرسوم الجمركية هو نتيجة بيع بعض القادمين من الخارج للسجائر الواردة معهم مستغلين في ذلك الإعفاء الذي يتمتعون به، كما أن بعض الهيئات المتمتعة بالإعفاء الجمركي بنص القانون تبيع أيضًا ما لديها من سجائر أجنبية في الأسواق، وإزاء ذلك فقد اتخذت وزارة المالية من الإجراءات والتدابير ما يحكم قبضة الجمارك على كلِّ ما يتسرب إلى السوق من بضائع دون سداد الرسوم الجمركية عليها، وعلى سبيل المثال:

(أ) قانون ترشيد الإعفاءات الجمركية التي تتخذ الوزارة إجراءات استصداره الآن.

(ب) قانون بتحريم التهرب الجمركي الذي أعدَّته الوزارة ووافق عليه مجلس الشعب وسيصدر خلال الأيام القليلة القادمة، وهو يعطي لأول مرة

الحق لرجال الجمارك في تتبع البضائع الأجنبية المهربة بقصد الإتجار خارج المناطق والدوائر الجمركية.

هذا ولا يفوتني أن أنوِّه عما اتُّخذ بشأن المخزون من السجائر الأجنبية لدى التجار فور صدور قرار فرض الزيادة سالفة الذكر. فلقد أصدرت توجيهات — صباح يوم الجمعة ١٤ / ١٢ / ١٩٧٩م بالتنسيق مع زميلي السيد وزير التموين والتجارة الداخلية إلى مصلحة الضرائب على الإنتاج والأعمال، وهي المعنية بتحصيل هذه الرسوم، وإدارة مباحث التموين وإدارة مكافحة التهرب الضريبي للتنسيق واتخاذ كافة الإجراءات التحصيل هذه الزيادة على السجائر الأجنبية الموجودة والمخزنة بالسوق المحلية في ١٥ / ١٢ / ١٩٧٩م حتى لا تثري فئة قليلة من التجار نتيجة صدور قرار بهذه الزيادة، وقد تم تشكيل حملات مشتركة انتقلت على أثرها كافة قيادات مصلحة الضرائب على الإنتاج والأعمال إلى مختلف محافظات الجمهورية حيث بدأت عملها اعتبارًا من الساعة السابعة صباح السبت ١٥ / ١٢ / ١٩٧٩م واستمرت هذه الحملة لمدة ثلاثة أيام مما أسفر عن تحصيل ٢٦٥ و٣٠٢ جنيه كرسوم استهلاك على السجائر الأجنبية المستوردة من الخارج، ولقد أعلنت الصحف اليومية النتائج التي توصلت إليها هذه الحملة في حينه على جماهير المواطنين لما لذلك من أثر يرتبط أساسًا بمكافحة الحكومة لمحاولات الإثراء غير المشروع على حساب الشعب وتحقيق العدالة الاجتماعية بين المواطنين.

وفي النهاية نود أن نطمئنكم بأن الوزارة لا تدخر جهدًا في مكافحة التهرب بكافة صوره وأشكاله مستخدمة في ذلك كافة الطرق والتدابير القانونية وصولًا إلى القضاء على هذه الظاهرة، وتحقيقًا للعدالة الاجتماعية.

وفقنا الله جميعًا إلى ما فيه الخير للوطن والمواطنين.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

وزير المالية
«دكتور علي لطفي»
في ١ / ٣ / ١٩٨٠م

أسعدني أن أتلقى هذا الرد من الدكتور علي لطفي وزير المالية فور صدور مفكرة العدد الماضي، وإني إذ أبادر بشكر الدكتور علي لطفي لأسجل هنا أنه فعلًا كان عند حسن ظني وقد سما؛ فهكذا يبدو لنا من خلال أحاديثه شجاعًا ومحل ثقة. بل إني لأقول بصراحة إنه لولا رأيي هذا فيه، ولو كان الرد من غيره لما اطمأن قلبي، ذلك أن المعروف على المستوى الشعبي أن نسبة من الزيادة الأخيرة في أسعار السجائر، وفي حالة المستورد قرشان على وجه التحديد عن كل علبة تذهب إلى التاجر والمستورد، ولكن ما دام علي لطفي بالذات قد ذكر أن الزيادة كلها تذهب إلى الخزانة العامة فيكون الموضوع فعلًا قد انتهى.

أما الذي لم ينتهِ ولا يمكن أن ينتهي فهو الرقم الغريب الذي أورده السيد وزير المالية في الفقرة الخامسة من هذا الرد والتي تقول إن نسبة المستهلك من السجائر الأجنبية مقارنة بالمستهلك من السجائر المحلية لا تتعدى ٥٪. ذلك الرقم أؤكد أن السيد وزير المالية نفسه لا يمكن أن يُسلِّم به، فما يعرفه أي تاجر أو متعامل في السوق أن السجائر الأجنبية لا تقل عن ٨٠ أو ٧٥٪ من كم السجائر المتداولة والموجودة في السوق. وإذا كانت النسبة المسدد عنها الجمارك تشكل ٥٪ فقط فمعنى هذا أن ٧٠ أو ٧٥ بالمائة من السجائر الأجنبية المطروحة في السوق والمتداولة لا تسدد عنها الرسوم الجمركية.

وواضح تمامًا أن نسبة كبيرة كهذه لا يمكن أن يبررها أن هناك بعض السفارات يبيع موظفوها حصتهم من السجائر المعفاة من الجمارك أو أنها نتيجة بيع بعض القادمين من الخارج لما معهم من سجائر.

واضح تمامًا أن هناك مصدرًا هائلًا يملأ السوق بسجائر أجنبية غير مسدد عنها رسومها الجمركية، هذا المصدر الهائل لا يمكن إلا أن يكون مصدرًا يملك إمكانيات وطاقات وكميات أبدًا لا تتوفر إلا لجهة واحدة، هي المستورد أيًّا كان اسمه ومهما علا شأنه.

ولذلك فالمطلوب ليس فقط الإمساك ببعض البائعين المساكين ضحايا المعلمين الكبار، ولكن المطلوب ليس من وزارة المالية هذه المرة ومفتشيها، مع احترامي الكامل لجهودهم، المطلوب من وزارة الداخلية من أجهزة المباحث تلك التي تنصب الكمائن المغوارة لضبط موظف يتقاضى رشوة خمسين أو مائة جنيه أن تتبع هذه الخيوط الواضحة تمامًا لكل ذي عينين، ومن البائع الصغير إلى التاجر الأكبر إلى رءوس الأفاعي أولئك الذين لا يدفعون فقط ضرائبهم ويتهربون منها بشتى الحيل، ولكن أولئك الذين يشاركون الدولة نفسها في

فرضها للضرائب ويدفعون للسوق بكميات هائلة من السجائر دون البندرول أو تسديد الزيادة المهولة لخزينة الدولة.

إني لا أُلقي التهم جزافًا ولست جهاز ضبط أو اتهام، ولكني مواطن يرى ويسمع ولديه الحد الأدنى من القدرة على الاستنتاج، وإني لأهيب بالدكتور علي لطفي، ذلك الذي أتوسَّم فيه الجرأة في الحق والشجاعة حيث ينكص الجبناء، أن يذهب بنفسه كأي مواطن إلى محل لبيع السجائر، أي محل في أي مكان من مصر، وبنظرة منه يرى بنفسه كمَّ السجائر الأجنبية وكمَّ السجائر المحلية، إذ معنى الرقم الذي ذكره في البند الخامس أن المحل لا بد يحتوي على خمس وتسعين علبة سجائر محلية مقابل خمس علب سجائر مستوردة أنا ضامن مائة في المائة هذه المرة أنه لن يجد الأمر هكذا أبدًا، وأنه ربما يجد العكس تمامًا، وبأبسط سؤال ممكن أن يعرف من البائع من أين جاءته مئات العلب التي يحفل بها محله، وبأبسط سؤال إلى الجهة التي اشترى منها البائع، ممكن أن يصل إلى الأكبر فالأكبر فالمصدر الأساسي الذي يهرب السجائر إلى السوق ويتهرب من الجمرك، والمسألة ليست في حاجة إلى نصب كمائن أو دس أجهزة تسجيل.

إنها مئات الملايين من الجنيهات لا تضيع على خزانة الدولة فقط، ولكنها تُستقطع من قوت الشعب وعرقه لتذهب إلى جيوب عامرة بالنقود وربما عامرة بالنفوذ أيضًا؛ ولهذا فهي للآن لم تُضبَط، بل إن الأمر لم يكن بحاجة إلى قانون جديد لتجريم التهرب الجمركي، فما أكثر القوانين التي يحفل بها قانون العقوبات لدينا. يخيل إليَّ في أحيان أننا أكثر بلاد العالم في عدد القوانين وربما نحن لأجل هذا أقل بلاد العالم احترامًا للقانون. لم يكن الأمر بحاجة إلى قانون جديد يطبق على مئات المهربين الصغار نحن في حاجة أولًا إلى ضبط المهربين الكبار وتكفي حتى العقوبات الموجودة بالقانون الحالي، المشكلة هي في الضبط؛ فالمضبوطون دائمًا في كل تهريب سواء أكان تهريب مخدرات أم بضائع هم «الكادحون» من المهربين بينما الكبار لم أسمع عن أيٍّ منهم قد ضُبط.

في النهاية لا يسعني إلا إزجاء تحيتي وتقديري لجهود الدكتور علي لطفي، وبقيت في جعبتي تحية أزجيها للسيد اللواء نبوي إسماعيل حين يضبط بعض مهربي الملايين وهم أيضًا «بلابيص» كما قال عن بعض الصحفيين في مجلس الشعب.

وأعتقد أن الدكتور علي لطفي سيضم حينئذٍ صوته إلى صوتي في إزجاء شكرنا وتحيتنا وتقديرنا للسيد وزير الداخلية.

أقوى من الأسود

ما من مجلس يضم أناسًا من أي مستوًى أو لون إلا ويبدأ كالعادة يناقش أمورنا العامة، وما من نقاش لأمورنا العامة يتم إلا ويئوب في النهاية إلى عملية نقد لاذع لجمهورنا وشعبنا وإنساننا، تبدأ عيوبه تتفتق، ومِن قائل إن النظافة طبع ويبدو أنها ليست في طبعنا، ومِن قائل إننا لا نملك شجاعة المواجهة، ومِن قائل إن آلاف السنين من الاستعمار ومن حكم الأتراك والمماليك قد علمتنا السلبية والجبن أمام السلطة والنميمة خلف الظهر والتقارير السرية والنفاق، النفاق بكمٍّ ونوع وبابتكار، نفاق نبزٌّ به شعوب العالم أجمع ولا يتمتع بالقدرة عليه أي أناس على وجه الأرض ... و... لا تنتهي قائمة العيوب.

أرى كل ذلك، وأرتد بذاكرتي إلى حقبة مضت، كنا نراهق فيها مع الثورة ونكاد نقول إننا نحن شعب الله المختار، أذكى الناس وأصل الناس وأشجع الناس وأقوى الناس وأحكم الناس وأمجد من وُجد.

وهكذا الأمر في رأينا في أنفسنا يتذبذب بين أقصى التمجيد ساعات الامتلاء بشعور النصر ولو كان كاذبًا، ويهوي إلى أسفل قاع أيام الإحساس بالضعف أو الشعور أن المشاكل أكبر منا. بمعنى أن نظرتنا إلى أنفسنا أبدًا ما كانت في لحظة من لحظات وجودنا نظرة موضوعية.

أن نأتي إلى إدراك أننا لسنا أشجع الناس ولسنا أجبن الناس، لسنا أذكى الناس ولسنا أغبى الناس، لسنا أنظف الناس ولسنا أقذر الناس، أن نأتي إلى شيء كهذا مسألة غير واردة بالمرة أو تلك هي الحقيقة، ومواجهة الحقيقة ليست في حاجة إلى شجاعة خارقة أو حتى جبن خارق وإنما هي في حاجة إلى الاتزان، سمة النضج، سمة البلوغ مبلغ الرجال، سمة ترك مرحلة الصبيانية والمراهقة ودخول عالم الواقع، الدنيا الكائنة خارج النفس، دون انفعال، تلك هي مشكلتنا.

ورغم هذا، ورغم أن الشعوب إذا اختلت نظرتها إلى أنفسها بمثل ما اختلت نظرتنا، تئوب في العادة إلى ضياع، إلا أننا لم نضع، وبالقياس على ما كان وما هو كائن يبدو أننا لن نضيع.

إننا نمرُّ بمحنة وجود. هذا حقيقي. وأنا شخصيًّا أُفاجأ حين أزور موقعًا أو مؤسسة وأجد أعمالًا كثيرة تنجز، وتقدمًا حقيقيًّا يحدث، ذلك أننا، بالطريقة التي نحيا بها، كان مستحيلًا أن نعمل أو ننتج أو ننجز. يصحو الإنسان من النوم، وارم القلب بما دار بالأمس، مثقلًا بالمطالب التي يحملها يوم آخر قادم، يوم رهيب آخر، يترك بيته لا بد بمشادَّة أو بخناقة أو بتهديد أجوف يزعق به هابطًا السلم أنه لن يعود. وهو عالم تمامًا أنه سيعود.

في العمل تجتمع القلوب الوارمة وتتحادق الأجفان الوارمة وميل غريب إلى تسفيه أي شيء وتتفيه كل شيء. وأي إنسان هو بالضرورة سيء وبالضرورة ملعون. أبدًا ما تسمع كلمة طيبة تقال في حق غائب أو غائبة؛ إذ ما تكاد تبدأ طاحونة السيرة تدور إلا وتطحن في طريقها كل من يلقي به سوء حظه في طريقها. آراؤنا في بعضنا سُمٌّ زعاف يهري أي نموذج طيب ويدمر أي نية لسلوك طيب. في الشارع في الترام والأوتوبيس وركوب التاكسي وبين السيارات، الزقّ والدفع والزغد والشد والجذب، لم يعد احترام في الجامعة أو حتى في أرقى المواقع في القضاء، في أعلى المجالس، المقالب والمفاجآت السيئة بتصرفات كريهة الرائحة فاقعة الدناءة. ماذا حدث؟ مفروض أن تقوم القيامة قبل الوصول إلى هذا بكثير، ولكنا وصلنا إلى ما هو أدنى ولم تقم بعدُ القيامة، ولا هناك علامات للساعة، ما سبب كل هذا الاختناق إذن؟ لماذا نخربش بعضنا البعض بأظافر من صفيح جارح لا يرحم وكأن كلًّا منا زوج أُمِّ الآخر أو ابن الحرام لإخوة أشقاء حلال؟ كمية الغيظ التي يحملها أي منا لأي منا أكبر بكثير من أن يحتملها قلب بشر. الابن مغتاظ بلا سبب من أبيه، والأب من الأم، والأم من الأب والدنيا وحتى الأولاد. في حياتنا لم نشهد إلا كل عشر سنوات مرة أن تقتل أمٌّ طفلها، ما لهذه الحمى من أمهات خلال شهر واحد تخنق الأطفال، لم نعد نقرأ حوادث تُنشر عن الرشوة فقد أصبحت القاعدة والنشر إذا حدث لا بد أن يكون عن الشاذِّ الذي رفض. لم تعد هناك أخبار عن انتحارات، والانتحار الوحيد الذي تم ونشرت عنه الصحف كان عن غيظ دفين من الناس ورغبة عارمة في تدميرهم وتفجير عشر أنابيب بوتاجاز لتنهار فوق رءوسهم العمارة. ليس انتحارًا وإنما رغبة دفينة في القتل، قتل الآخرين، وقتل النفس غيظًا من الآخرين. إنني، أحيانًا، وفي لحظات وضوح الرؤيا القليلة،

أرفع عيني عن الواقع، وأتساءل: أليست معجزة حقيقية أننا نحيا؟ ألسنا جبابرة، إننا رغم كل ما نحمله داخلنا وخارجنا يستطيع، بعضنا على الأقل، أن ينتج، ويدير عجلة حياتنا الهائلة!

أليست البطولة الحقة هي أن لا تفعل كما يفعل المتوحشون في أمكنة أخرى من العالم وتمسك بالسلاح الأبيض أو الأحمر وتفرغ من عدوك أو وضعك وإنما، هكذا، تتحمل، وتمضي بالحياة قدمًا وأنت مدرك، بحكمة عليا قلَّ أن يمتلكها شعب، إن مصير السواد إلى زوال، وحتمًا إلى بياض.

ومع احترامي لكل المتحمسين لشعبنا ولرفعه فوق كل الرءوس، وكل الناقدين له وحارميه من أية ميزة، أقول، أنتم بعد لم تفهموه.

ولكي تفهموه، انظروا ماذا تفعل الحياة به الآن، وماذا يفعل هو بها. إني لأنحني أمام قدرتك الخارقة أيها الشعب. أتعلم منك ومن صبرك، أتلمس حكمة سكوتك وحكمة لطفك؛ فلا أصدقاؤك عرفوا مواطن عظمتك ولا أعداؤك فهموا سرَّ تصرفك، وبرعونة وصفوك بالأوصاف الجاهزة، فسرُّك أيها الشعب من سر الحياة. أنت أول من أدرك أن الحياة ممكن خلقها واستنباتها فكانت الحياة، ومنذ ذلك التاريخ السحيق، صنعتك، بينما كانت الخناجر والسيوف والديناميت والطعن — ولا تزال — صنعتهم.

ما أسهل وأحمق ما تحل الرصاصة مشكلة عاطفة أو إحساس.

وما أصعب أن تحل الإحساس بالإحساس، والظلم بالعدل والإهانة بالترفع.

ولهذا فالضغائن الصغيرة الكبيرة التي تحفل بها صدورنا حلول مصرية تمامًا لمشاكل يحلها الآخرون بالمدفع.

والحل الإنساني بالتضاغن أرفع ألف مرة من حل وحشي بالتقاتل فالإهانة أكبر، الإهانة ليس أن يهينك أحدهم أو يظلمك، ولكن الإهانة الحقيقية لك أنت ولكرامتك ولإنسانيتك أن تقتل الآخر، أن تواجه الظلم بأن تظلم حل ليس من شيمنا، ويبدو أننا نفضل أن نمرض من أن نلعن أو نضرب. حل مصري آخر وليس تبريرًا، ولكنه حل واحد من كثير من الحلول غير التقليدية التي نواجه بها عالمًا لم يفهمنا، ولم يدرك مثلًا حكمة الأمثال الشعبية التي قيلت عن «الغز» أي المماليك وقت حكم وظلم ولاة الترك والمماليك.

ربما لو تأملنا، بدل أن نسخط على أنفسنا، أو نمجِّد أنفسنا أو ننهش أنفسنا بأنفسنا، ربما لو تأملنا لأرحنا واسترحنا، على الأقل أرحناها من رأي الآخرين فينا، أولئك الذين لا يفهمون، والذين يؤرقهم أننا لا نحل المشاكل على طريقتهم، وحين نتبنَّى رأيهم فينا نتعذب، وانتهت الصفحة، ولكن الخواطر لم تنته، فماذا أفعل؟!

الأزمات بالطول أم بالعرض؟

الآن، وبعد أن انزاح كثير من الهمِّ أعتقد أنه قد آن الأوان لمناقشة مشكلة الأولويات في حل مشاكلنا، فهناك اتفاق يكاد يكون عامًّا — ولا أدري ما الذي جعله كذلك — على مبدأ أن نحل مشاكلنا بطريقة الأولويات، فبعد أولوية مشكلة الجلاء عن سيناء تبدأ «أولوية» حل مشكلتنا الاقتصادية ثم بعدها تأتي «أولوية» حل مشكلتنا السكانية، ثم يليها حل مشكلة التضخم السكاني وهكذا.

وكأننا نريد أن نصف مشاكلنا طابورًا ونحلها بادئين بالأكثر حدة فالأقل وهكذا. والغريب أن أحدًا لم يناقش للآن هذه الطريقة في حل المشاكل وكأنها قضية مسلَّم بها مع أنها في رأيي طريقة أبدًا لا يمكن ومن المستحيل أن تنجح، فلو افترضنا الوضع السابق، وجعلنا من المشاكل طابورًا، فإن الذي سوف يحدث أننا حين نكون قد انتهينا من حل المشكلة رقم «٣» مثلًا في هذا الطابور تكون المشكلة رقم «١»، وقد خُيِّل إلينا أننا انتهينا منها بإعطائها الأولوية في الحل، تكون قد عادت للظهور وبطريقة أحدَّ، وهكذا بالنسبة للمشكلة رقم «٢» ذلك أن رصَّ المشاكل على هيئة طابور قد يصلح في علاج مشاكل الفرد الواحد أو العائلة الواحدة — رغم أنه في هذه الحالات الفردية أيضًا لا يصلح، ما دامت المشاكل موجودة معًا فالطريقة الوحيدة لحلها هو أن تحلَّ معًا، وفي آن واحد، ولا تحول حدة مشكلة وبين أن نولي نفس الاهتمام للمشاكل الأقل حدة، فالعلم يؤكد لنا أن مشاكل الشعوب كلها جميعها مترابطة ومتسابية وكل منها يؤدي إلى الآخر بحيث لا يمكن أبدًا الفصل بين المشكلة النتيجة والمشكلة السبب؛ فالمشكلة الاقتصادية تُعتبر مشكلة زيادة السكان في وجهها الآخر، والمشكلة الاقتصادية والانفجار السكاني، هما بعينهما المشكلة الإسكانية، ولا يمكن أن يُحلَّ أيٌّ منهما بمعزل عن حل الأخريات.

أقول هذا بمناسبة التركيز على حل المشكلة إلى حد البدء بعقد مؤتمر خاص لها، فمؤتمر كهذا كان واجبًا أن يكون مجرد لجنة من مؤتمر قومي عام، تُطرح فيه كل مشاكلنا دفعة واحدة، وتتدارس العلاقات بينها، ونصل أولًا إلى حلول «عامة» لكافة المشاكل ثم نبدأ في عمل لجان تخصص لإضافة ما تستلزمه كل مشكلة خاصة من إجراءات خاصة للحل.

وما ابتكرت كلمة «ثورة» للدلالة على هوجة سياسية عنيفة تجتاح البلاد، إنما الحل «الثوري» هو في حقيقة أمره حل كافة المشاكل دفعة واحدة؛ إذ إن الإجراء الثوري ليس هو الإجراء الأحمق أو الأهوج أو المتسرع وإنما هو الإجراء العلمي الذي تمتد آثاره إلى مُختلِف المجالات ليحدث التغيير في وقت واحد.

والإجراء الثوري تلجأ إليه الدول حين تتساند المشاكل وتتكاتف وتتكاثر بحيث لا يمكن رصها في طابور، وإنما لا بد من رصدها رصدًا عرضيًّا وإيجاد الحل الواحد الذي يقضي عليها معًا وفي وقت واحد.

وأنا لا أعني بالحل الواحد الحل الوحيد وإنما قد يكون الحل الواحد عدة حلول تُنفَّذ معًا.

وأيضًا أنا لا أتحدث هنا عن «مضمون» الحل، ولكني أتحدث عن شكل المعالجة؛ إذ مضمون الحل لا يمكن أن يضعه قلم واحد أو إنسان واحد وإنما هو مؤتمر واحد لا يناقش «مصر الغد» وإنما أولًا يناقش «مصر اليوم» لنعرف أين نحن أولًا قبل أن نعرف إلى أين نسير.

أليس هذا هو المنطق في أبسط صوره؟

ماذا نفعل بياميت؟

أنا ضد أن نضرب بمِعول واحد في أنقاض «ياميت» لإحيائها. فلنتركها كما تركها الإسرائيليون، ذكرى لمعنى أن يحتل أجنبي أرضنا؛ إذ هو لا يحتلها كما يتصور بعض الحمقى ليعمرها، وإنما هو يحتلها ليخربها. إن الاحتلال كشمشون الجبار، إما أن يكون المعبد له وحده، لا يشاركه فيه أحد، وإما أن يهدمه، لا عليه وإنما على أصدقائه وأعدائه فقط.

وقد هدمت القوات الإسرائيلية ياميت على سيناء فما دامت قد أصبحت بالجلاء عنها مصرية، فلتنهدم على مصريتها.

فلنترك الأنقاض، تمثالًا حيًّا لطاقة العدوان حين لا تجد لها متنفَّسًا سوى المباني تخربها، والأشجار تقتلعها، والخضرة تحرقها.

كثيرًا ما سمعنا عن إسرائيل القطعة من أوروبا التي غُرست في شرقنا العربي المتخلف، إسرائيل الحضارة والديمقراطية والاشتراكية، إسرائيل التي طالما عايرونا بديمقراطيتها وطالما حدَّثونا عن روعة فرقها السيمفونية وعظمة علومها ومستشفياتها ورقي إنسانها.

إني لأعجب لشعب بهذا الرقي أن يملك هذا الكم من الطاقات المخرِّبة والعدوانية.

إني أعتقد أن هذه الطاقة العدوانية كانت موجَّهة ضد فكرة السلام نفسها. وكأن النفوس حين تهجع، والإنسان حين يرتد إلى طبيعته السمحة يصبح عدوًّا من أعداء هؤلاء المهووسين بالعنف ومنطق القوة. ولهم الحق.

فالسلام عدو العدوان والذين يحتوون داخل صدورهم على كل تلك الطاقة العدوانية يكرهون بالضرورة فكرة السلام نفسها لأن السلام هو الكفيل «بقتل» تلك الطاقة. هو الكفيل بإعادتهم بشرًا سويًّا.

وهكذا بينما نحن فرحون حقيقة بالسلام لأنه امتداد لطبيعتنا السمحة فهناك الكثيرون على الجانب الآخر ضيقون به.

وأطلال ياميت خير شاهد.

فلنتركها لتذكرنا دائمًا بأيام الحقد الأسود، ولتجعلنا نحذر أن تستيقظ هذه الطاقة المدمرة من جديد.

أو على الأقل فلنبنِ نحن نصفها لندلل على نوايانا.

ولنُبقِ النصف الآخر كما أبقت اليابان جزءًا من هيروشيما المدمَّرة نُصبًا تذكاريًّا لطاقة العدوان الذرية.

فكم كنتُ أودُّ لو تصرفت القوات الإسرائيلية تصرفًا حضاريًّا ووازنت بعقل لا غلَّ فيه بين المرارة الناتجة عن الجلاء أو الإجلاء، وبين المعنى اللاإنساني الذي تتركه مذبحة الأشجار والنباتات والبيوت.

ولكن، هل الأشجار والبيوت أغلى من المعابد والمساجد؟

الضجيج الداخلي والخارجي وحالة التولة

لا أعتقد أنني وحدي الذي ألمس هذه الظاهرة؛ ظاهرة شبه «التوهان» التي يلاحظها الإنسان إذا استعرض وجوه السائرين في الشارع، أو منتظري الأوتوبيس أو حتى الجالسين على المقاهي أو الواقفين في طوابير، بل ربما حتى السائقين والعابرين للطرق والشوارع. ظاهرة غريبة ليست بنت اليوم ولكني أتابعها خلال السنوات العديدة المتوالية، حتى قبل هزيمة ٦٧، وألحظ أنها في ازدياد مستمر، ومرة في أوائل السبعينيات كتبت قصة وسيناريو فيلم عن توت عنخ آمون، وكنت إذ ذاك في لندن وجاء المخرج ومعه الممثلون الإنجليز الذين اشترك معهم النجم عزت العلايلي وصوَّروا الفيلم ما بين القاهرة والأقصر وأسوان، وحين عاد «ستيفن سكوت» المخرج، وكانت تلك أول مرة يزور ويُقيم ويعمل في مصر، سألته عن رأيه في شعبنا آنذاك فذكر لي أنه معجب جدًّا بأداء المصريين الفردي، ولكن — هكذا أضاف — ثمة حالة من الـ APATHY الجماعي موجودة بين الناس بحيث لا بد أن تذكر الشيء مرتين على الأقل لينتبهوا لسماعه، وأحيانًا بعد ذكره ثلاث مرات لا بد أن تسأل المتلقي عنه، وفي أحيان كثيرة تجد أنه — أيضًا — أخطأ في الانتباه وفهم أو أدرك نصف ما قاله، أو على الأقل لا بد قد نسي شيئًا، والـ APATHY كلمة لاتينية الأصل لا يوجد لها ترجمة عربية دقيقة؛ إذ هي في الأصل حالة مرضية، ولكنها ممكن أن تُترجم بعدم الإدراك أو عدم الوعي الكامل، أو المسافة الكائنة بين التوهان وعدم الانتباه ونقص الإدراك. ولأن الرجل كان يحب مصر والمصريين تمامًا وشديد الإعجاب بهم فقد أخذتها على محمل ملاحظة صديق متعاطف مع شعبنا، وليس هذا فقط؛ فقد كان انطباعي حتى قبل أن أسمع منه الملاحظة هو نفس الانطباع.

ولكن تلك كانت بذور الحالة، ومنذ ذلك التاريخ وإلى الآن أعتقد أنها قد زادت بطريقة أصبحت ملحوظة تمامًا حتى لمن هم مصابون بها، إنك تذهب إلى الموظف وباختصار شديد تشرح له المشكلة والمطلوب، فإذا به يستعيدك ما قلت مرة أو مرتين، وتلاحظ أنه أيضًا لم يبدأ يسمع، إلا حين فقط تبدو عليك معالم الغضب فيسمع ليجمع أسبابًا يرفض بها طلبك أو يزجرك. كثيرًا ما ذهبت إلى وِرش وشاهدت عمالًا يقومون بأعمال، ولا تركيز هناك، لفة مسمار، ثم زعقة هنا، وشتيمة هناك، وطلب شاي مرة، ولعن للصبي مرة أخرى، والكلمة التي على لسان السائر في الشارع: نعم؟! بتقول إيه؟!

لا أحد يسمع أو ينتبه من أول مرة.

لكأن هناك طاحونة داخلية ذات ضجيج عالٍ، تطحن وتلف وتدور، ويدور معها وبها التفكير، لتستغرق الحواس المفروض أنها تستقبل الإشارات من الخارج، في الاستماع إلى صوت الداخل المليء بالضجة والكلاكسات والميكروفونات الباطنية المعذبة والخطب والحكم والنواهي والأسعار والأزمات، فلا تعود تسمع أو تتلقى من الخارج شيئًا، وكفاها ما بها، وفعلًا كفاها ما بها.

ولكن أود أن أضيف هنا بضعة أسباب من اجتهاداتي، فالواقع أن الإنسان المصري خلال الحقبة الأخيرة قد بدأت تتراكم حوله وداخل عقله كثير من المشاكل الصغيرة جدًّا، أن تشتري طابع بريد، أن تركب أوتوبيسًا، أن تقطع تذكرة قطار، أن تعبر شارعًا، أن تقود عربة، أن تستخرج رخصة، أن تدفع فاتورة تليفون، أن تسدد أجر مكالمة للخارج، أن تُجري المكالمة، أن تطلب ترنك بنها أو بني سويف، أن تكشف عند دكتور أو في عيادة خارجية، أن تزور الشهر العقاري لسبب أو لآخر. باختصار أن تفعل أي شيء في مصر، مهما كان تافهًا، وأعود وأكرر أن تفعل أو تحاول أن تقوم بأي شيء، مشكلة؛ إذ لا شيء أبدًا يحدث تلقائيًّا أو بسهولة، حتى الحصول على ساندوتش طعمية، مضايقون يضايقون بعضهم، وقوانين صغيرة ولوائح وضعها متضايقون كي بها يضايقون، مئات من المشاكل اليومية الصغيرة إذا رفعت كل مشكلة منها ضغط دمك ملليمترًا فسيصل ضغطك إلى الثلاثمائة قبل حلول موعد الهول الأكبر، العودة من العمل. وصحيح أن العقل البشري مخلوق ليحل المشاكل الصغيرة والمشاكل الكبيرة أيضًا، وليظل طوال الوقت، ومع هذا منتبهًا تمامًا للعالم الخارجي، ولكن كثرة المشاكل الصغيرة التافهة وصعوبة حلها في كثير من الأحيان تطغى على الخلايا العقلية وتغرقها أو تخنقها في تراكمها الراكد المخزون، وبهذا لا يبقى ثمة وقت لمعالجة الأحلام الكبرى وحل المشاكل الأعوص، وأيضًا يفقد الإنسان قدرته على استقبال ما هو أهم، حتى بالنسبة لحياته، وبنفسي أرى أناسًا

يقذفون بأنفسهم أمام العربات المجنونة الأنانية ويتركون مهمة الحفاظ على تلك الحياة — حياتهم — للسائقين الذين هم أيضًا غير كاملي الانتباه، والنتيجة حوادث وكوارث.

هذا سبب.

السبب الثاني الذي أود إضافته أن الأقدار لم تتركنا للمشاكل الصغيرة نصارعها وتصارعنا ولكنها أيضًا قدَّرت علينا مفاجآت مذهلة نصحو عليها، حربًا مرة، وصدمة كهربائية مرة، وقرارات تزلزل الكيان، حتى الكيان الشخصي مرة، وقانون يصدر فجأة دون أي دراسة أو مرونة، وتصرفات وإجراءات، كالحيوانات النمرية المفترسة تنقضُّ علينا وسط توهاننا في غابة مشاكلنا الصغيرة فلا نعرف كيف نتصرف وهل نتسمع إلى أعلى أو إلى أسفل، وهل يأتينا القضاء من أمامنا أم من خلف الظهور، وهل نمشي في هذا الطريق أو ذاك وربما يكون أحلاهما.

وفي وسط هذا كله نزدرد اللقم، من لحم ميت لا نفرقه عن الطازج، وسمك لا نعرف إن كان فسيخًا أم صيد اليوم، وبيض لولا أنه يُعلِن على الملأ بتغير لونه فسادَه، لأكلناه هو الآخر، وجبن، أهناك جبن معلب مبستر في العالم يفسد يا ناس. يبيعونه لنا فاسدًا ويأكله الأطفال ولا يعرفون، وحتى قراءة الجرائد أو التفرج على التليفزيون لا نعرف منها الطيب من الخبيث؛ فاهو كله كلام، وكلها فرجة، فعملية الطحن الداخلي شغالة تمتص انتباهنا كله.

لهذا فإني أطمح، أصبح كل طموحي الآن، ليس أن نغزو القمر أو نغير في بعض القيادات، ولكني أطمح في شيئين:

أولهما: أن تُؤلَّف بشكل جادٍّ عاجل لجنة غير حكومية تدرس كل المشاكل الصغيرة التي يتعرض لها المواطن المصري صباح مساء وتستأصلها تمامًا، وملعون ذلك الروتين الذي يتوه شعبًا عن أن يعيش بوعيه وأن تقتل روحه مشاكل بالغة السفاهة والتفاهة، ما معنى إذا أردت أن أدفع مبلغًا في قسم بوليس الدقي غرامة أو ثمن تجديد بطاقة أن أذهب إلى العجوزة لأبحث عن شقة مهجورة أدفع فيها النقود ثم أعود إلى القسم ومعي الإيصال، مسألة تستغرق — حسب مواصلاتنا العادية — يومًا بأكمله، لماذا لا يكون التحصيل في القسم نفسه وفي المكتب المجاور تمامًا لمكتب إنهاء الإجراءات؟ وهذا مَثل واحد من نصف مليون مَثل يعانيه كل مواطن ويئنُّ ويتلوى والروتين ينظر إلى بلواه ويخرج له لسانه ويتلمظ. قلنا الإسكان وارتفاع الأسعار مشاكل كبرى في حاجة

للجان ومقررات ودراسات ومليارات، ولكن هذا الإجراء البسيط، ماذا نحن في حاجة إليه أكثر من وزارة أو بضع وزارات تتحرى حالة الـ APATHY التي نعانيها، وتنتبه وبشدة إلى ما يعانيه المتعاملون معها.

ثانيًا: ألا يصدر أي مشروع أو قرار إلا بعرضه على الرأي العام لمدة خمسة عشر يومًا على الأقل بحيث يقال ما له وما عليه حتى يصدر وقد استوعب الواقع ورأي الشعب فيه، لكيلا يتحول إلى حاجز جديد على الشعب أن يتعلم القفز فوقه وكأن الشعب ليس أمامه من الحواجز ما يكفي.

ثالثًا: إلغاء الميكروفونات تمامًا من حياتنا وإلغاء السيرينات والكلاكسات واستبدال أجراس الحنطور بها لو أمكن، فالضجة في شوارعنا تلك التي تنفذ بإجرام إلى أسرَّة نومنا وحجراتنا تعمي آذاننا عن أن تسمع أو تستمع.

وقد يستخف بعض الناس بما أقول ويتساءل عن هيافة هذه المطالب الحادة العاجلة، ولكني متأكد تمامًا أنها الإجراءات الأولى التي لا بد منها لتتوقف الضجة الشديدة الداخلية والخارجية التي نعانيها بحيث يسود شبه سكون نستطيع خلاله أن نعي إن كنا أحياءً أم أمواتًا، وأن نفكر وأن نرى حتى نرى ماذا علينا أن نفعله لنحل المشاكل الكبرى.

إنها مثل طرقات القاضي أو رئيس أي جلسة التي يُسكت بها الضجة في القاعة حتى يسود السكوت، أو نعرف من المتكلم، وماذا يقول وحتى لا نظل نحملق في حالة ذهول لا نعرف هل الضجة التي تصم آذاننا قادمة من الداخل أم من الخارج وما سببها.

التوهان المتعمد هذه المرة

أقول ما سبق لأني حين كتبت في الأسبوع الماضي عن ضرورة أن نتتبع من أين وكيف جاءتنا الأطعمة الفاسدة مع أنه من المحرم دوليًّا ومحليًّا تداولها، واقترحت أن يقوم شبان صحفيون بمغامرة يتتبعون فيها الخيط، ويعرفون من أين كان يستورد موردو السموم سمومهم الطعامية أو أن تقوم بذلك أجهزة الدولة المختصة وعلى رأسها جهاز مباحث أمن الدولة، أفليس من المضحك أن نُسمي مؤسسات الأطعمة الفاسدة مؤسسات الأمن الغذائي، بينما ثبت أن كثيرًا منها كان مؤسسات لتوزيع السموم الغذائية، ثم أليس أمن الشعب أهم من أمن الدولة، أو ليس «أمن الشعب» الغذائي الحقيقي أهم من أي أمن آخر، وأن تاجر المخدرات وتجارة المخدرات التي أقمنا لها أجهزة هي في غاية الكفاءة

تقاومها ربما أخف ضررًا من تجارة الأغذية المسمومة واستيرادها، وفوق هذا فليس أن نعهد للقطاع العام باستيراد الأغذية واللحوم هو كل الحل، فما حدث من القطاع الخاص ممكن أن يقع فيه موظفو القطاع العام إذا تسلمتهم مصيدة تجار الأغذية المسمومة العالميين الذين يقفون لبلاد مثل بلادنا بالمرصاد.

مرة ثانية أطالب بضرورة أن نتتبع ونبحث وبشكل جدي خطير من أين جاءتنا الأطعمة المسمومة، وكيف كانت تأتي، ومن أية دول أو شركات حتى نطالبها بالتعويض أو نقاطعها تمامًا.

فالموضوع ليس هيِّنًا بالمرة.

إنه موضوع مئات الملايين من الجنيهات أُنفقت على شراء لحوم وأغذية مسمومة عن عمد وسبق إصرار وترصد وترتيب وعصابات دولية أو دول عصابات خطيرة ولا يمكن السكوت عليها، ولا يمكن أيضًا مقابلتها بحالة «التوهان» فإنها حينئذٍ لا تكون حالة خاصة ولكنها حالة ذهول متعمد أو تطنيش لا بد وراءها من سبب مرضي أو إجرامي.

ولم نعد بعد تحتمل أن يتلاعب المرضى أو المجرمون بمصائرنا.

خطاب لرئيس الوزراء

الزميل الكبير الدكتور فؤاد محيي الدين رئيس الوزراء:

كان ممكنًا أن أطلب لقاءك وتلبِّي طلبي كما تعودت أن تفعل لأعرض عليك هذه القضية، ولكني — أيها الزميل الكبير — وجدت أنها ليست قضية خصوصية أعرضها عليك بين جدران أربعة وإنما هي قضية عامة لا بد أن يشترك في الاهتمام بها الرأي العام كله.

القضية هي قضية الشعر والشعراء في مصرنا العزيزة. وقد تبدو إثارة موضوع كهذا في خضم مشاغلك الرهيبة من سياسة خارجية وداخلية من اقتصاد إلى إسكان إلى دعم إلى ارتفاع أجور، قد تبدو إثارة قضية كهذه في نظر البعض نكتة يقولون على أثرها: وهل انتهينا من حل المشاكل كلها حتى نفرغ لقضية الشعر والشعراء؟ ولو كنت أعرف أن لك هذا الرأي لراعيت شعورك ولم أعرضه عليك. ولكني — أيها الزميل الكبير — أعرف لك جوانب كثيرة لا يعرفها عنك الناس، فلقد تزاملنا في كلية طب قصر العيني أيام كانت تقود الكفاح الوطني، وكنت أنت زعيمها، وكنا نحن من ورائك، وبعدك نقوم بنفس المهمة، وجمعنا السجن، أتذكر يا دكتور تلك الزنزانة في حبس قسم السيدة زينب والأربعين طالبًا المحشورين داخل ٣ × ٣ متر والصعيدي المُرحَّل من معتقل الخطرين في الطور إلى أسيوط وحقيبته الحديدية الضخمة التي أبى أن يقربها أو يقرب مجلسه أحد منا؟ ولأن ضغط أجسامنا البشرية كان أكبر بكثير من أن يخضع لمنطقه فقد حاولنا ونحن الكثرة أن نجلس فوق الحقيبة الحديدية ولكنه مدَّ ذراعه صانعًا بها خطًّا يصل ما بين حائط الزنزانة وجسده واستهنا بالذراع فقد كانت رفيعة كعود قصب معتلٍّ وحاولنا دفعها، باستهتار أول الأمر، ثم حين وجدناها أصلب من الاستهتار استجمعنا كل قوانا

لنزحزح ذراعه وإذا بنا أمام — ليس ذراعًا — وإنما سيخ حديدي مهما تكتلنا لم نملك له دفعًا حتى سلمنا له هو وحده بثلث الزنزانة وانحشرنا نحن الأربعين في الثلثين الباقيين.

لأني أعرفك يا دكتور فؤاد أنك تدرك تمامًا أن مصر أمة ودولة متحضرة، ليس بمعنى أنها راقية، ولكن بمعنى أنها لا بد أن تدرك قيمة الفن والشعر والقصة والمسرح والأدب حتى وهي تعاني من «الاختناقات» وليذهب أي إنسان إلى مساكن شعبية أو عشش أو نجوع مصر ليجد «إيريالات» التليفزيون. أحيانًا بالألوان، تطل من بيوت من المؤكد أن أهلها يعيشون على الرمق. متحضرون لأن الفن أساسي في حياتنا مثله مثل الطعام تمامًا بل أحيانًا قبله، فنحن أيضًا بالسليقة ندرك أن لا قيمة لحياة قوامها الأكل والشراب فقط، وأن الروح تظمأ أحيان أكثر مما يظمأ الجسد، وأن الفن غذاء الروح، والأرواح الشبعانة فنًّا هي وحدها القادرة على حل المشاكل، وبلا فن حقيقي وبلا مثقفين ومفكرين فإن حلولنا لكل مشاكلنا الحيوية تصبح حلولًا منقوصة إن لم يكن مغلوطة إذ هي تصبح حلولًا غير بشرية.

فوطننا مشاكل وناس، والناس هي التي تحل المشاكل، ولكن لأن أرواح الناس هي القبس الحي الذي يُضيء لهم السبيل ويهيِّئ لهم الحلول ويُشعل فيهم الطاقة القادرة على الحل والحياة، فلا بد ونحن نحضر لمصر الغد، ومنشغلون تمامًا في حل مشاكل مصر اليوم ألا نستغرب إذا اهتممنا بقضية روح الفن الشعر والشعراء.

وليس هذا بموقف غريب على مصر؛ فمصر كانت دائمًا بلد الشعر والشعراء، ترعاهم وترحب بهم وتحتضنهم ويجدون في ربوعها كل تكريم وإعزاز. فماذا حدث لنا؟

في مصر شاعر، واحد من أعظم الشعراء الذين أنجبتهم مصر في كل تاريخها، شاعر شاب أنبغ ما أفرزته حقبة الستينات من شعراء.

وإذا لم يكن لأمل دنقل شهرة شوقي وحافظ أو صلاح عبد الصبور فذلك لأنه نشأ وكتب في عصور اضطهاد كانت تدفع شعراءنا الشبان إلى نشر معظم إنتاجهم خارج مصر. بينما كان الشعر أيام شوقي وحافظ ينشر في الصفحة الأولى من الأهرام، وتظل القصيدة حديث الناس لا ينقطع الحديث عنها إلا بظهور قصيدة جديدة، ولم نكن أيامها أبدًا بلا مشاكل فقد كنا نخوض مشكلة حياتنا الكبرى الصراع المرير مع الاستعمار الإنجليزي والقصر والكفاح في سبيل الدستور، ولكن هذا لم يشغل الناس عن الشعر، وهذا الجيل من الشعراء الذي بدأ بصلاح عبد الصبور ثم ما لبث أن تألَّق بجيل الستينات شعره ثورة في عالم الشعر، شعر لا يقل عمقًا — إن لم يزد كثيرًا — عن شعر السابقين، ولكن حظه السيئ أنه نشأ في ظل حركة ثقافية مشتتة ومسطحة، بل لا يهمها الشعر

بالمرة، ما دامت حلقات التليفزيون السخيفة موجودة وما دامت مذيعات التليفزيون يستطعن النطق بإنجليزية وفرنسية بإتقان مبالغ فيه بينما عربيتهن يتندر عليها رجل الشارع.

ولقد أردت لمن يريد أن يقرأ لأمل دنقل شعرًا أن أنشر أحدث قصيدة كتبها أمل دنقل. زرته أول أمس في معهد الأورام وأنت تعرف يا دكتور فؤاد ما هو معهد الأورام وأنت أستاذ الأشعة تعرف معنى مرض الـ «سيمينوما» حين تتسرب خلاياه إلى الدم، زرته فوجدته يعاني من آثار العلاج بالأشعة والكيمياويات، ولكنه عظيم صامد، وأحببت أن أُغيِّر الموضوع فطلبت منه أن يكتب قصيدة، وفي اليوم التالي أرسل لي هذه القصيدة المرفقة. اقرأها يا سيدي رئيس الوزراء لتعرف عظمة هذا الشاعر الشاب، ومدى رؤاه، وعمقه، ولننظر جميعًا كيف لخَّص عالمه الحالي في اللونين، وصنع من اللونين فقط ملحمة فنية لم أقرأ لها مثيلًا في تاريخ الشعر العربي كله.

وبعد.

كانت الدولة كريمة وأمرت بعلاج أمل دنقل على حسابها، ولكني رأيت القرار يا دكتور وهو قطعًا غير صادر عن مجلس الوزراء، أظنه صادرًا عن وكيل وزارة الثقافة أو الصحة. لا أعرف، وهو ينص على علاج «المواطن أمل دنقل» على نفقة الدولة في الدرجة الثانية بمعهد الأورام.

وأنت تعلم يا سيدي أن مرضًا كمرضه وعلاجًا مكثفًا كعلاجه يحتاج مرافقًا فكيف يكون المرافق — زوجته الكاتبة الصحفية عبلة الرويني — معه في حجرة يشاركهما فيها مريض آخر ربما له مرافق آخر هو الآخر.

وكانت النتيجة أن أمل دنقل رفض القرار وعنده كل الحق وأقام في حجرة تكاليفها ثلاثون جنيها في اليوم الواحد وقد تجمَّع عليه الآن مالًا يقل عن الثلاثة آلاف جنيه، وقد حاولت أنا وأصدقاؤه أن ندفعها فأبى بعنف؛ فهو إنسان صعيدي عظيم حتى وهو في مثل حالته له أنفة وصلابة تلك الذراع الفولاذية التي حالت بين أربعين طالبًا منا — كنت أحدهم يا دكتور — وبين أن نقترب مجرد أن نقترب، من حقيبته الصفيح المتواضعة.

ولقد التقيت مرة بالأستاذ محمد عبد الحميد رضوان وزير الثقافة وشرحت له القصة وطلبت منه حتى أن يرسل له بباقة زهور كرمز لاهتمام وزارة الثقافة بمرض شاعرنا العظيم، ولكن لا زهرة ولا وردة وصلت، ولا شيء للآن اتخذ، ولهذا فأنا ألجأ إليك يا دكتور فؤاد، لا أطلب له قرار شفقة وإنما أطلب له حقًّا أصيلًا على هذه الأمة الأصيلة،

فما هكذا تعودنا أن نعالج الشعراء، وما هكذا تعودنا العقوق، ولو كان الوضع في إنجلترا أو فرنسا، لا نعقد مجلس الوزراء القادم في غرفة الشاعر المريض ليلمس جميعه حال العلاج وحال الشاعر وليهدهد على روح الأمة الرهيفة شاعرها.

أما من طريقة يا دكتور نرد لهذا الشاعر العظيم بعض ما عاناه ويعانيه من أجلنا؟ فكل شعره عنا وعن مصرنا وعن قضيتنا وكل حياته كانت كذلك.

بالله يا أمل، لا تمت فكلنا فداؤك.

هذه القصيدة كتبها أمل دنقل خصيصًا من أجل أن تنشر مع المقال ضد مَن؟

في غرف العمليات
كان نقاب الأطباء أبيض،
لون المعاطف أبيض،
تاج الحكيمات أبيض،
أردية الراهبات،
الملاءات،
لون الأسرَّة،
أربطة الشاش والقطن،
قرص المنوِّم،
أنبوبة المصل،
كوب اللبن.
كل هذا يشيع بقلبي الوهن.
كل هذا البياض يذكرني بالكفن!
فلماذا إذا مت
يأتي المعزُّون متشحين
بشارات لون الحداد؟
هل لأن السواد
هو لون النجاة من الموت،
لون التميمة ضد الزمن؟
ضد مَن؟

ومتى القلب — في الخفقان — أطمأن؟!
بين لونين استقبل الأصدقاء
الذين يرون سريري قبرًا،
وحياتي دهرًا،
وأرى في العيون العميقة
لون الحقيقة،
لون تراب الوطن!

أمل دنقل

إلى نزار قباني!

عفوك يا نزار؛ فأنا لا أريد بكتابتي أن أؤلمك، ولكن ماذا أفعل حين تصبح المواساة نفسها مؤلمة، ماذا يفعل الصديق إذا ألَّمت بصديقه كارثة ما كان يتوقعها له أشد أعدائه خبثًا وخِسة؟ ماذا أفعل يا نزار وأنا حتى لا أعرف عنوانك في بيروت لأرسل لك، وإذا عرفته فأنا لا أعرف إن كان لا يزال قائمًا أو أن كل صناديق البريد في بيروت قد انفجرت هي الأخرى وتلاشت؟ لي شهران يا نزار وأنا حائر غاضب مفجوع لا أدري ماذا أفعل. نفس جلستك يا نزار أمام السفارة العراقية المدمَّرة تنتظر بمعجزة تعيد لك الأسطورة التي سحقها الأشرار، جلستك العاجزة الغاضبة ذلك الغضب الجنوني الذي لا بد يجتاح المرء حين يرى الشر بكل قيمه رأي العين، يراه حرًّا طليقًا بينما أنت الحرُّ مقيد مرغم عاجز حتى أن تفتح فمك. نفس جلستك كانت نفس حبستي مع شعوري تجاهك، العجز الغاضب المجنون، ويدي مكبلة وفمي مكبل، وطائرتي مكبلة، وأنا لا أعرف أيهما أشد وطأة، حزني على بلقيسك أم حزني عليك، أم حزني على حياتك كلها التي اشتبكت مع مأساتنا العربية ومأساتنا حتى صرنا جميعًا نغوص في طينها ونغوص حتى غطَّى الطين طاقات الأنوف ولم نعد نستطيع؟

كان لك «توفيق» فأخذه القدر غدرًا، وغدرًا حاول أن يغتالك من قلبك وكانت المعجزة في رأيي أنك بقيت حيًّا.

وعرفت السر حين تعارفنا أسريًّا أكثر، وعرفت بلقيس، وعرفت أنك لم تمت فوق رحمة الله التي سبغها على عبيده في لحظات القضاء المدلهمة تلك لأنها كانت بجوارك.

قبل أن يأخذ الله منك «توفيق» كانت مشيئته كي يبقى لهذه الأمة شاعرًا من خيرة شعرائها على مر الزمان، أن يعطيك بلقيس، إذ قدمت أنت عضويًّا، ولكنها روحيًّا حفظتك حيًّا.

بل وأكثر من هذا، عوضتك عن «توفيق» بابنك الرائع تمامًا «عمرو» الثاني، وقبله كانت قد أعطتك «زينب» وأعطتك النبع والإلهام والحياة المزغردة بالفرحة التي كنت تحياها وسط أو رغم بلادنا التي كانت بالنكبات المولولة تتساقط.

وفي بناء ينهار فيه كل يوم ركن. ويتهاوى حائط، لا بد أن يكون للشاعر فردوسه المفقود أو بالأصح اللاموجود، وإلا لجن، أو اكتأب إلى حد الموت أو مات اكتئابًا. لم تتبادلا أمامنا — نحن أصدقاؤكما اللصقاء — قبلة، ولا مدحتها أو مدحتك بكلمة. لم تنشر علينا وعليها أمامنا كلمات عشقك، ولا زاولت أبدًا معها اللعب، وأنت الأستاذ بالكلمة، ولكنا، جميعًا قُراءك وسامعيك الذين لا يعرفونك كنا نحس أن مؤامرة حب رهيبة تدور بينكما. ذلك الحب الذي لا يقال ولا ينطق أو يستنطق القدسية في جريانه صامتًا ودون أي ملامح خارجية أو تفكير، إنه كالكهرباء السارية في السلك أمامك، والسلك أمامك يحمل الشحنة الصاعقة ولكنك لا تراها ولا حتى يشعر الناس بها.

حب أروع ما فيه أنك لا تقوله أو تعبر عنه، وإنما هكذا، في صمت، تحياه وتتنفسه ولا تفلت أي لحظة من لحظاته.

لقد رأيتها في شعرك كثيرًا، وكثيرًا ما ذكرتها في شعرك، وكثيرًا ما تحدثت عن «حبك» هذا في قصائدك، ولكنك أبدًا لم تصل إلى تصوير عُشر معشار ما كنت أحسُّ أنا أو غيري، وكأنك تتحدث عن بلقيس أخرى، تتعمد أن تخفي نورها ودورها عن أعين الناس؛ فأعين الناس دائمًا حسادة، وإلا ففسِّر لي بربك، أو أنت يا غير المؤمن فسِّر لي، بأي قانون علمي تعتنقه أن يحدث لك هذا؟ اكذب حتى وحاول أن تفسر فأنا قابل، حتى الكذب الواضح أقبله. أن تموت منك بلقيس هكذا.

ميتة كالحالة التي لا تحدث إلا مرة في كل مليون مرة، كحالة ابنك الحبيب «توفيق»، بل ربما هذه أندر.

أن تكون موظفة في سفارة والسفارات مفروض أنها أشد الأمكنة أمانًا وأمنًا، هكذا منذ أن عرفت الدنيا سفارات، بل وأقصى شيء حدث لها أو فيها من ابتكارات الإرهاب أن هوجمت بمسلحين أو أُخذ موظفوها رهائن، أما أن تدك السفارة دكًا بقنابل المدافع وفي وضح النهار، لا ديناميت مخبأ أو طائرة برقت في السماء وألقت حملها واختفت قبل أن تلمحها أو تدركها عين، لا، هذه المرة قنابل مدافع حتمًا استغرقت لتعمل عملها وقتًا كان كفيلًا في أي مكان على سطح الأرض أن يوقف هجومًا فورًا، أو على أقل القليل يعرف مصدرها، أو أن ينجو من جحيمها أحد.

أي تفسير، أي شيء هذا الذي يحدث لنا وفينا وبنا؟

اللهم إن بشريَّتنا لم ترَ شيئًا يماثله أبدًا، وربما بعدنا لن ترى له مثيلًا بالمرة.

اللهم إن هذا ليس موتًا حتى لو كان الميت حبيبًا ونادرًا ندرة بلقيس، ليس موتًا حتى يجد الإنسان لنفسه سلوكًا تجاهه، يعزى أو يواسى أو يذرف الدمع عجزًا، أبدًا ليس موتًا. وإن تكن ضحيته واحدة من غلاة ضحاياه، بلقيس بالذات، ملهمتك، أنت الشاعر المرهف الذي تبكيه فعلًا ميتة نحلة.

لكي يجسد القبح بأشد ما يكون التجسيد قبحًا.

والغدر بأشد ما يكون الغدر خساسة.

والفجيعة بأبشع ما تكون الفواجع عُهرًا.

ليس موتًا وإنما هو إشارة إلهية، ضحيتها صحيح بلقيسك، وإنما كان لا بد أن تكون الضحية في مثل براءتها وطهرها وعفتها، كعروس النيل.

كلحظة الصلاة، كأول بسمة لطفل، علامة قادرة من عند الله سبحانه.

لقد أراد أن يرينا أين وصلنا، وكيف أصبحنا وكم أصبحت وحشيتنا كما ذكرت في قصيدتك وحشية ترتعد لها وحشية الوحوش ويصيبها الذعر وتتوب عن وحشيتها وترتعب وتهرب. إنها أبدًا ليست صدفة.

فلا شيء في الكون يحدث صدفة، إنها الألم الحقيقي الذي يوجع ولا يرحم. لم يعد سوى الألم الموجع، الألم الجلدي والنخزي المدبب وسيلة ينبِّهنا بها الله سبحانه إلى أننا كلنا قد صرنا غلاظًا شدادًا، بحيث لم يعد يكفي أن يتوعدنا الله بجهنم وإنما لا بد يُقيم في حياتنا الأرضية نفسها جحيمًا أكبر، جحيمًا لا يمكن أن يفلت من الإحساس به أبجة الوحوش حتى لو كانت مثلنا بشرًا.

لقد أوقعتني، بقصيدتك عن بلقيس يا نزار، في حيرة كبرى.

فهي قصيدة لا يمكن أن يكتبها سواك، ولا يمكن لك أن تكتبها إلا إذا اختطفت منك بلقيسك وعلى تلك الصورة المخيفة الشوهاء، فلقد أفزعتني وأنت تصور لنا حقيقة ما أدت إليه خلافاتنا، حقيقة صورتنا في مرآة أي مفجوع منا، وكم من فواجع دارت وتدور لنا، ولكنَّ أحدًا لا يمسها أو يدرك وجودها.

عبَّرت بفجيعتك عن أغلبية مفجوعة صامتة لا تجد من يعبِّرون عنها.

فأغلب المصريين يحبون حياة المرتاحين البعيدين تمامًا عن الخطر.

وأنت وحدك اخترت ليطعنك الخطر فتصرخ، وويل لأمة يستحيل شعراؤها إلى صرخات ولعنات تنصبُّ عليها، ويا له من جحيم ذلك الذي يعاديك فيه أعداؤك ويطعنك فيه أصدقاؤك!

صرخت يا نزار: هكذا صرنا لا نبالي أين المسير!

إن ما يبقينا أحياء هو فقط بعض الأمل في مستقبلنا، ولقد أرعبتني قصيدتك، أرعبتني الظروف التي خلقت مولدها، وأرعبني كل ما قيل فيها، وأرعبني أكثر رؤيتي للمستقبل، مستقبل أمتنا من خلالها.

اللهم اجعل ما نراه وما نحياه كابوسًا حتمًا سنفيق منه ونكتشف أنه كان مجرد كابوس، واجعل ما عشناه وقرأناه قصيدة شاعر طُعن في أحصن مكان للحب وللحياة فيه وليس واقعًا ظللنا نتجاهله حتى جسدته لنا قصيدة شاعر.

أما أنت يا نزار، فأي كلام لك أو معك يكشف تمامًا عبث أي كلام أصبحنا نقوله.

إن لك أن تزأر مجروحًا على مدى مائتين وخمسين بيتًا من حزن فولاذي إذا به لهيب الغضب و«تدلقه» على أمة حجر قلبها التكرار المتعمد للفجيعة والفواجع حتى أصبحت لا تستنكر أن يحدث السفارة العراقية ولبلقيسك، ولكل بلقيس ولأي بريء أو طفل أو عجوز، ما حدث ويحدث.

أن لا تتحرك أمة يحدث لها كل يوم ما يحدث لنا كل لحظة لدليل إما على أنها ماتت فعلًا، أو تحجرت قلوبها، أفلح الأعداء في تحجير قلوبها على أنفسها حتى أصبح وجودها وعدمها سواء.

ولأني أعرف، وأنت أيضًا أيها الطفل الحبيب الكبير تعرف أنها ليست هكذا أبدًا وإنما هكذا أرادوا لنا أن نصير، وهكذا أرادوا لنا أن نرى أنفسنا أو تهولنا الرؤية عاجزين مكبَّلين لا نملك لحركتنا حرية أو قدرة على التعبير، نتعذب ونتعذب صامتين لدرجة أننا في النهاية نتحجر، والإنسان إذا تحجر توحَّش وأصبح أغلظ الوحوش جميعها، وبعقلية المتوحش هذا لا يعود يهمه أن يؤلم أو يتألم.

نجح الدهاة أن يشوِّهوا وجه أمة، حتى، وأخيرًا، في عين شاعرها. وويل لأمة لا يعود شاعرها يحس إلا بمدى بشاعتها وقبحها.

ولكن، اغفر لي يا نزار، فما يبقيني ويبقيك ويبقينا جميعًا أحياءً إلا شعاع أمل ضئيل تمامًا وكل يوم يضؤل، ولكن أكاد أقسم لك أنه موجود لا يزال.

وإن بلقيس لا يمكن أن تكون قد تركتك إلى الخواء الأكبر، وإلى أمة رحمها من شوك وديناميت وغلظ.

إنها فقط إرادة الله الأكبر.

إن يضغط على قلبك أنت يا نزار، فالكل يُفجع ويبكي ولكن الشعر وحده هو القادر على أن يُفجع ويزأر، فالزئير هو بكاء القادر مثلما الدموع وسيلة العاجز.

وأنت في وسط ألمك النبيل العظيم، القادر، أن بنا، وبكل ما نملك من قدرة بكل ما لاقاه ويلاقيه كل منا من ألم، تزأر:

لا.

لن تمر المهزلة.

لا يمكن، بعد كل ما فعلوه بنا أن يكفِّرونا بأنفسنا.

فالإيمان هو آخر ما تبقَّى لنا. إن في دنيانا العربية عشرات الملايين من بلقيس تحيا فوق ألغام، بتوقيت دقيق تنفجر.

فازأر؛ كي نبطل مفعولها نزار.

لا.

لن تمر المهزلة.

لن يحولوا جمال كل بلقيس إلى أجساد وأيدٍ وأوجه ممزقة وعِبر.

فبلقيس قد تركتك للقلم.

لا خلاص يا نزار إلا بأن تستحيل الفاجعة على لسانك إلى زئير عودة للبشرية وللإنسانية وللأرض وللإحساس والحب.

أم أنها، كلها كلمات، تجعلني مثلما عبرت تمامًا، الكلمات الفضيحة، وعزائي.

إن كلماتك أبدًا لم تكن فضيحة؛ فالكلمات حين تصبح زئير أسود مجروحة، مخيفة شرط أن تكون زئير أسود حتى لو كانت مجروحة، بل حبذا لو كانت مجروحة.

جرح عرضه الأرض والسما.

جرحك يا نزار، جرحنا.

يا كل نزار ازأر.

فما دام الموت قد أصبح قدرنا الذي لا نهرب منه، فلنمت ونحن نزأر.

إذ ما أخيب أن نموت ونحن نعوي!

غطاء فانوس النور

كثيرًا ما تُطمس أصالة المصريين، تطمسها الأحداث المهولة التي لم تتركنا، منذ ربع قرن أو أكثر، يومًا تطمسها الأحداث اليومية الصغيرة التي تطنُّ طوال ساعات الليل والنهار كالذباب المقلق، تعمي الآذان والإدراك والعيون. كثيرًا ما يتوه الواحد منا في شعب ويتوه الشعب منه ويُحس بنفسه غريبًا وسط غرباء، لا يعرف، ولا يعرفون عنه شيئًا. بل كثيرًا ما يبلغ السيل الزُّبى ويضيق الإنسان بنفسه وبالمصريين وبمصر وحظه العاثر الذي أحياه في هذا العصر، لماذا لم يوجد أيام كان تعداد الشعب عشرة ملايين، أيام كانت الأسعار تتدغدغ ولا تكوي بالنار، أيام لم يكن في مصر نفير ولا زعيق أو ضجيج. أنا شخصيًّا كنت أفضل لو وجدت في عصر رمسيس الثاني، فما دام جلالته قد عاش وحكم إلى سن السابعة والتسعين فمعنى هذا أنه كان خالي البال والمزاج ولا يمكن لملك أن يكون خالي البال والمزاج إلا إذا كان شعبه هو الآخر خالي البال والمزاج.

كثيرًا ما تتوه منا حقيقة شعبنا وكثير من صفاته التي جعلته على هذه الدرجة من الرقي وطول البال والإقبال على الحياة رغم أن كل ما فيها يدفعك دفعًا لمغادرتها.

إلى أن يحدث مرةً حادث صغير جدًّا، وكأنه القشة التي تكشف عن ظهر البعير، مثل ذلك الحادث الذي جرى لسيارتي على يد مبتدئ في القيادة وأستاذ في فرق القانون وارتكاب المخالفات، وجعله يخبط «رفرفه» في رفرف سيارتي، ويخلع غطاء فانوس النور.

وفي العادة، وحين كانت العربة جديدة، كنت لا يكاد يحدث هذا حتى أسارع، وفي الحال، بتركيب غطاء فانوس جديد، ليس للوجاهة ولكن إدراكًا مني لأهمية صيانة السيارة، بحيث إن إهمالًا لقطعة منها تفسد ممكن أن يتراكم الفساد بحيث تجد سيارتك بعد بضعة أسابيع، «كُهْنة».

أما وقد قَدِمت السيارة وناهزت الاثني عشر عامًا، وأنا الآخر قد كبرت اثني عشر عامًا، وفقدت هي جدتها، وفقدت حماسي، فلم أجد في نفسي رغبة عاجلة في إصلاح غطاء الفانوس المذكور.

وهكذا وجدت نفسي أمرُّ بالتجربة الغريبة.

الغطاء لم ينتزع تمامًا من مكانه وإن بقي معلقًا بمسمار بينما إطاره قد تدلَّى أمام الزجاج الأمامي.

وبدأت المسألة بالعربة التي توقفت بجواري في الإشارة، وأشار سائقها الذي كان واضحًا أنه مالكها إلى ناحية الفانوس، ولم أفهمه، ففتح زجاجه وفتحت تأدبًا زجاجي وقال: غطا الفانوس ح يقع. وتنبَّهت. وهززت رأسي شاكرًا مقدِّرًا، ومضى بعربته، ومضيت، وفي أول ملف، أشار لي سائق عربة نقل هائلة الضخامة، أشار لي من «عليائه» على الفانوس، وفهمت، وهززت رأسي شاكرًا، فعاد يشير ويلحُّ، بل أوقف من دورانه، فاضطررت لإيقاف دوراني، وشرح لي بيديه، وصوته الذي لم يصلني أبدًا من ضجة موتوره ما يريد، واضطررت أن أتبادل معه التمثيل الصامت، وأشرح له أني أعرف المشكلة، وأن الغطاء لم يعد يصلح لإعادة التثبيت، ولا بد من تغييره، وشكرني هو هذه المرة، ومضى، ومضيت بعد أن أفرجت عربته الطويلة عن عربتي. وطوال الطريق من بيتي إلى الأهرام كنت لا أكاد ألمح السائق الذي بجواري أو الذي سبقني يشير حتى أسرع وأُفهمه أني عارف وفاهم، فإذا ألحَّ أُفهمه بالإشارة أيضًا، أن الغطاء حالة ميئوس منها. وفكرت بعد اليوم الأول أن أذهب لصديقي الدكتور الذي ورث محل قطع غيار السيارات عن الرجل الطيب المرحوم والده؛ فترك الطب وتفرغ للمحل، فكرت أن أذهب، ولكن كنت متعبًا، فقلت: إلى اليوم التالي.

واليوم التالي كانت مشغولياتي أكثر، ومشاويري معظمها في وسط البلد، حيث المرور بطيء بطيء، وحيث لا أقل من عشرين مرة لُفت نظري لغطاء الفانوس المخلوع، ومائة مرة هززت رأسي أني أعرف وأن لا فائدة منه. وكل مرة، والابتسامة الحلوة تطل من وجه السائق أو الراكب وهو يحاول لفت نظري، أتساءل:

أليس هؤلاء هم السائقين الذين كانوا يغيظونني تمامًا بمخالفاتهم لكل قواعد الذوق والمرور، أليس بعض هؤلاء هم من كنت ألعنهم سرًّا وأحيانًا علنًا؟ ما لهم هكذا قد تحولوا بقدرة قادر وأصبحوا على مثل هذا الظرف والحرص على لفت نظري إلى شيء يخص سيارتي، ولن يضيرهم هم شيء بالمرة لو سقط الغطاء أو حتى تدشدش الفانوس.

وأشياء غريبة جدًّا حدثت لي. وأنا مسرع فوق كوبري أكتوبر، تسرع العربة التي بجواري، بمغامرة، حتى تسبقني، ليتمكن صاحبها أو سائقها من لفت نظري. عربات السوزوكي النقل الصغيرة التي تجعل عيني طوال قيادتي وسط رأسي من كثرة مروقها بين العربات، وتعرضها وتعريض غيرها للحوادث، مستغلة صغر حجمها ورخص ثمنها لتنتشر كفئران الطريق، مئات من فئران الطريق لا تعرف إن كانت ستعبرك من يمينك أو يسارك أو ستدخل وتصبح على المقعد الذي بجوارك، سائقوها كانوا أكثر الجميع إيجابيةً وشهامة؛ فقد استغل كثيرون منهم صغر حجم العربات، ويمرقون، معرِّضين سيارتي نفسها لحادثة، فقط من أجل أن يسبقوني، ويلتفت سائقها ناحيتي كلية لينبِّهني لغطاء الفانوس المعلق، غير منتبه أنه وهو يفعل هذا قد كفَّ عن النظر أمامه تمامًا، وهو المسرع، وعرَّض نفسه لتصادم.

مرة سبقتني عربة وتوقفت فجأة أمامي، ونزل سائقها وأشار إلى الفانوس بعدما توقفت فجأة مُجبَرًا أنا الآخر، وحين حاولت إفهامه استحالة إصلاحه، لم يقتنع إلا بعد أن حاول أكثر من مرة تثبيته، واستعمال جزء من علبة سجائره، كتخشينة، دون فائدة، حتى السيدات، واحدة من شدة حرصها جعلت السيدة الراكبة بجوارها هي التي تلفت نظري، والأخرى همَّت بلفت نظري وحين لمحتني غلبها الارتباك وصرفت النظر عن المحاولة. شرطي المرور، صبيان عربات النقل، ركَّاب الأوتوبيسات المتشعبطون المتزاحمون عند الباب يتركون الوضع الرهيب الذي هم فيه وينزع أحدهم يده القابضة على حديد العربة، مغامرًا، ليلفت نظري.

بربكم.

في أي بلد من بلاد العالم يحدث هذا؟ واختر ما شئت من أرقى وأنبل شعوب الأرض وقارن ما فعله كل هؤلاء بما كان يمكن أن يحدث لو كنت في ألمانيا أو روسيا أو أمريكا أو اليابان أو أي مكان.

في مبدأ الأمر كنت أُحرج وأضيق بتلك الشهامة الزائدة عن حدها، ولكن، بدأت أنفض عن نفسي عصبية السائق، وأتأمل الأمر في هدوء، وأبدأ أرى ما يحدث على ضوءٍ آخر تمامًا. إن هذه الأيدي الملوِّحة، والعيون التي ألمح فيها الرغبة في لفت نظري إلى ضرر ممكن أن يلحق بي، تجعلني لأول مرة، ومنذ زمن بعيد، منذ لم يكن هناك هذا الازدحام الهائل، والكثرة الضاغطة على الأعصاب، تجعلني أحس أن هؤلاء الناس يفعلون هذا بإحساس أننا عائلة واحدة كبيرة، إحدى وظائفها أن تمنع الأذى عن أي فرد من أفرادها.

رحت أتلقى الأيدي الملوِّحة، والأصوات اللافتة لنظري على أنها مناديل حبايب بيض تلوِّح لي بالتحية، وتُشعرني أني بين أهلي، وتُشعرهم أني واحد منهم.

لفت نظري كل مرة، مستغرق لحظة، ولدى كل لحظة أحس أن تيارًا من الأخوة المصرية يعبر، كالفرحة المكهربة، قلبي.

أبدًا لا يمكن أن يفعل هذا أي شعب من شعوب الأرض وقد جُبتُها كلها أو كدت.

فقط هذا الشعب الجميل الرائع المدفونة إنسانيته تحت تلال المشاكل الكبيرة والصغيرة الدائخ بانشغال البال وتراكم الهموم هو وحده القادر على هذا العطاء.

عطاء استمتعت به تمامًا حتى فقدت الرغبة في تصليح الفانوس، فكأنه قد أصبح يدي الممدودة بالسلام، وكأن كل لفت نظر من مواطن يده تطبق على يدي بشوق وحرارة وتُسلم عليَّ.

والله أوحشنا حبك كثيرًا يا شعب. عبرت الفكرة بخاطري ودمعت عيوني. أحبكم أيها الناس، أنَّى لي بعمر آخر أسفحه رخيصًا من أجلكم؟ أنى لي؟ حتى أنت يا أمين الشرطة الذي جئت تحرر لي مخالفة انتظار، لفتَّ نظري لا عن مزاولة لوظيفة وإنما خوف من «أن يقع ويضيع خسارة».

شكرًا لك.

وأسفًا انتهزت فرصة وقوفي وهبوطي من السيارة ومجاورتي للغطاء ومددت يدي أنتزعه من مكانه وأقذفه بجوار الحائط حتى أوفر عليهم مشقة إتعاب أنفسهم ومصافحتي يدًا بفانوس.

ولكن ما جاش صدري من عواطف كان فعلًا وكأنما أزيح الغطاء عن فانوس ضوئي قوي، أراني من أكون ومن يكونون ومن جميعًا نكون أرقي شعب على سطح الأرض.

«مافيا» الأرض ومجلس الشعب

ولكن، ولكي نصبح شعبًا جديرةً حياته بما هو عليه من رُقي صنعته آلاف السنين وملايين الشدائد والهزائم والانتصارات فأمامنا مهام كثيرة لكي يحدث هذا.

ويبدو أنه كان خطأ مني.

فبينما المدينة وداخلها الصحافة بالطبع ووسائل الإعلام الأخرى مشغولة بحادث سقوط عمارة مصر الجديدة والاتهامات تنطلق كالشُّهب، لها دويٌّ وحدَّة الرصاص المتطاير هنا وهناك بين هذا حادث كتبت عن شيء خطير جدًّا يتهدد حياتنا الزراعية، ذلك

الجندي المجهول، الذي ينتج، القطاع الوحيد المنتج في مصر وإنتاجه ذو نفع فهذا الذي يُغذي المدينة يغذيها وهو جائع، وعائد الفلاح في تناقص مستمر إلى درجة أنه بدأ يهاجر؛ لأن المدينة تشتري منه المحصول بأبخس سعر، فكأنه هو الدولة الحقيقية التي تدعم طعام المدينة، فالحكومة تأخذ منه طن الأرز بخمسة وثمانين جنيهًا بينما هي تشتريه من الخارج بحوالي سبعمائة جنيه، وبما أن كليهما يذهب إلى ساكن المدينة بسعر واحد فكأن الفلاح يدعم كلَّ طن أرز بما قيمته ستمائة جنيه، دمه المسفوح ورغم هذا لا نتركه على أرضه وحاله. أزمة الإسكان في المدينة رفعت سعر الطوب الأحمر إلى أرقام خرافية؛ وهكذا تكونت عصابات من مافيا الأرض تجرِّفها وتشتري الطمي بثمن أغلى بكثير من سعر الأرض نفسها، لو باعها صاحبها، وتحرق طميها، وتتركها غير صالحة للزراعة فيما أسميته حين كتبت: الذين يأكلون أمهم. ورغم أن الكلام عن مشاكل المدينة لا يزال هو شغلنا الشاغل إلا أن ما أشرت إليه مسألة لا تقل كما ذكرت عن الاحتلال الأجنبي والغزو الاستيطاني لأرضنا.

ولقد كتب الأستاذ صلاح منتصر تعليقًا في بابه اليومي أيامها قائلًا: إن تجريف الأرض مسألة لا يمكن السكوت عليها، ولكنها لا يمكن منعها طالما أن الناس تريد أن تسكن وطالما الحاجة إلى بيوت هي الشغل الشاغل للجماهير في الريف والمدن. وقال إن الحل ليس بالإجراءات البوليسية التي تتخذ ضد المجرِّفين ولكن في التشجيع الفوري وعلى نطاق واسع لمصانع طوب الطفلة والطوب الرملي والأسمنتي وأنا معه تمامًا في هذا، بل ما كتبت الموضوع إلا من أجل أن نصحو ونتحرك لإيقاف جريمة تجريف الأرض من ناحية، ومن ناحية أخرى لرصد مبالغ سخية لإقامة المصانع البديلة من ناحية أخرى.

ولقد سعدت تمامًا وأنا أقرأ بعدها في الأهرام أن اللجنة الزراعية بمجلس الشعب سوف تناقش في اجتماعها التالي فورًا رفع العقوبة على جريمة التجريف إلى ٥٠ ألف جنيه للفدان والحبس.

وأيضًا استمعت إلى الحديث الذي أدارته السيدة فريال صالح مع الدكتور يوسف والي حول نفس الموضوع.

ثم خمد كل شيء مرة واحدة خمدًا مريبًا، ولأنه مريب فها أنا ذا أكتب مرة أخرى ولن أتوقف أو يتوقف غيري عن إثارة الموضوع لن أتوقف لأني لا أريد أن أصدق أن القانون الجديد الذي يهدف إلى رفع العقوبة على التجريف بطريقة فعالة من المشكوك أن يمر من مجلس الشعب أو من اللجنة الزراعية، وأنا لا أريد الخوض في أسباب تلكؤ القانون أو مشروع القانون إذ هي أسباب لا تمتُّ إلى أزمة المرور في مجلس الشعب؛ فقد استطاع

قانون المحاماة أن يمرق بأسرع من البرق. لا أريد الآن على الأقل أن أتحدث عن أسباب تلكؤ القانون أو غيره فالأسباب كلها يعرفها الدكتور يوسف والي وزير الزراعة والمسئول الأول عن المحافظة على طمينا وأرضنا وخصوبتها، يعرفها سيادته ويعرفها الكثيرون.

ولكن هذا موضوع قومي خطير، وقد قلت في المرة الماضية أنه لا يقل خطورة عن احتلال أرضنا بقوات أجنبية؛ إذ هو عملية استئصال أبدية لقدرة أرضنا الزراعية، موضوع عاجل خطير، التلكؤ في مقاومته جريمة وبالذات لو كان المتلكئون ممن يقومون فعلًا بتجريف الأرض الزراعية والإثراء من حرق طمينا المقدس.

فهل تكفي هذه الكلمة لكي تتحرك اللجنة ويتحرك المجلس وترتفع الأيدي التي تحاول خنق القانون الذي سينقذ روحنا ومصدر حياتنا الأرض؟

أم أن من في قلوبهم مرض — على رأي رئيس مجلس الشعب الدكتور صوفي أبو طالب — ومَن مِن مصلحتهم قتل القانون في حاجة إلى أبواق أعلى؟!

رد على الشيخ الشعراوي

سألني أصدقاء وقراء كثيرون عن حكاية المبارزة التي يدعونا إليها (أستاذينا الكبيرين توفيق الحكيم وزكي نجيب محمود وكاتب هذه السطور) فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي، والحق أني فوجئت تمامًا بهذا التحدي من فضيلة الشيخ، فأنا من أولئك الذين يؤمنون بالمدرسة الفكرية التي يُتوِّجها ذلك الحديث الشريف: ليس الشديد بالصرعة (أي القوة) إنما الشديد من يملك نفسه ساعة الغضب. تلك المدرسة التي يرى الإنسان فيها أنه برغم كل ما وصله وبرغم كل ملكاته وقدراته ليس سوى طالب معرفة مستمر، ينقضي العمر ربما وهو بعد لم يصل إلى حد الاكتفاء أو حتى مجرد الإحساس أنه أصبح أفصح من هذا أو «أكتب» من ذاك أو أن باستطاعته أن يصرع ثلاثة من «العمالقة!» «وحده» أمام الرأي التليفزيوني العام؛ لهذا فقد بدت لي مسألة «المبارزة» شيئًا جديدًا تمامًا على حياتنا الفكرية المعاصرة وحتى القديمة، مع أن العرب كانوا دائمًا مشهورين بأفعل التفضيل ومشغولين دائمًا بمن هو أشعر الشعراء، ومن هو أمير الشعراء، ومن هو أعظم الكُتَّاب، إلا أنني كنت أتصور أن المتعاركين حول من الأفضل ومن الأقوى ومن الفارس الأوحد، هم من جمهرة المستهلكين للشعر أو للكتابة، أما أن يصل الأمر إلى حدٍّ أن يعتنق شاعر أو كاتب هذه الفكرة فهو ما لم يحدث أبدًا إلا من قليل جدًّا من مراهقي الشعراء أو صغارهم حينما كانوا يفعلون مثلما كنا نفعل في ثانوي أو ابتدائي، ويزعم كل منا أنه الأطول ويتحدى الآخرين أن يكاتفوه (إن صح هذا التعبير) أو يقفوا متجاوري الأكتاف فيفحم الآخرين، ويثبت لهم أنه الأطول ولكن ذلك زمن ولَّى ومضى وفي عصرنا الحديث حل الجدل محل التبارز، والفرق بين التبارز والجدل أن المتبارز إنسان انتهى إلى الإيمان أنه على حق مطلق فيما يرى ويقول، وأن الباطل لا يمكن أن يأتيه أو يخطر له أبدًا؛ بمعنى أنه وصل إلى أعلى عليين، ولم يعد هناك مجال لأن يصبح أعلم أو أحكم

أو أفصح مما وصل إليه، ويصبح طلبه للمبارزة حينذاك طلبًا لمجرد إثبات القوة، أي أن المبارزة هدفها إثبات قوة ذاته، وكأن ذاته، قد أصبحت الحقيقة المطلقة، بينما المتجادل إنسان هدفه البحث عن الحقيقة، وما دام هدفه كذلك فليس مهمًّا عنده أن يثبت قوته بقدر ما هو مهم تمامًا أن يخرج من المجادلة وقد اكتسب معرفة جديدة أو تعلم شيئًا لم يكن يعرفه حتى لو خرج من الجدل خاسرًا وهُزمت وجهة نظره؛ فليس أحب إلى قلبه من جدل يخرج منه وقد هُزم في وجهة نظره، ولكنه كسب ما هو أعظم؛ شيئًا جديدًا عرفه وأضاف به إلى ذاته طالبة المعرفة الدائمة، أو قربًا أكثر إلى الحقيقة المطلقة التي لا سبيل إلى الوصول اليقيني إليها؛ فقد اختص بها الله سبحانه وتعالى ذاته العليا وحدها، فما دمنا نقر أننا بشر فلا بد ضمنًا أن نقرَّ أننا لا بد أن نتعلم من المهد إلى اللحد، وأننا رغم كل هذا التعليم فلن نصل أبدًا إلى المدى الذي يستطيع أحد منا أن يقف ويقول: أنا وصلت، والمعرفة كلها طوع بناني وأستطيع أن أسحق من يجرؤ على مناقشتي أو يخطر بباله أن يستجيب للتحدي إذا تحديته. لقد مس الدكتور زكي نجيب محمود بأدبه اللطيف المعروف هذه النقطة مسًّا هادئًا، ولكنه واضح تمام الوضوح في رده من ناحيته على فضيلة الشيخ الشعراوي.

وأنا هنا لا أرد على فضيلته فيما يخصني فأنا للآن لا أعرف بالضبط ماذا يأخذه الشيخ محمد متولي الشعراوي على شخصي الضعيف أو كتاباتي، فكتاباتي ليست سرًّا، إنها كلها منشورة ومعلومة وبكل كلمة أكتبها إنما أضع نفسي أمام محاكمة ليس قاضيها فضيلة الشيخ وحده ولكن قضاتها آلاف من المثقفين والعلماء والدعاة والقراء في كل أنحاء وطننا العربي والإسلامي، وحمدًا لله أن هذه المحكمة البالغة الوعي والحس والذكاء والرهافة لم توقفني يومًا موقف متهم، وإلى الآن على الأقل لم تضبطني متلبسًا بأي جُنحة فكرية، فما بالك بالجنايات، إذ لا بد أن يكون الأمر جناية حتى يحكم علينا فضيلته بأننا نحن الثلاثة مضللون (بكسر اللام) ويحكم بما هو أفدح؛ الارتداد. يا ألطاف الله! الارتداد.

هكذا مرة واحدة أيها العالم الجليل الذي تعرف عقوبة الارتداد؛ وهو تعليقنا من رقابنا نحن الثلاثة في ميدان التحرير بعد أربعة أيام من حكمك نُعطَى فيها مهلة للتوبة فإذا لم نفعل نُفذ الحكم. ألا يمكن أن أستحلفك «بالحق» سبحانه وهي الصفة التي تفضلها دائمًا لوصف الله — عز وجل — أيرتضي ضمير العالم فيك وأنت قيد منزلك، لم تحاكم أيًّا منا ولم تسأله ولم تعطه فرصة واحدة للدفاع عن نفسه أو حتى التوبة إذا أثبتَّ له أنه أخطأ أو ضل. أيرتضي ضميرك العالم أن تصدر حكمًا بالإعدام غيابيًّا على

أناس لم تُخطرهم مجرد إخطار بالمثول بين يديك أو حتى تسألهم ذلك السؤال التقليدي في أي محاكمة هل أنت مذنب؟ وهو سؤال إجباري في أي محكمة بحيث إذا لم يسأله القاضي بعد توجيه الاتهام اعتُبرت المحاكمة لاغية واعتُبر أي حكم يصدر فيها لاغيًا أيضًا.

وإذا كان ضميرك يا فضيلة الداعي الإسلامي الكبير قد سمح لك بهذا فهل تسمح لي أن أسألك كعالم وداعٍ كبير: هل الحكم بالارتداد عن ديننا الحنيف مسألة من الممكن أن يصدرها أي مسلم على أي مسلم آخر هكذا، بحيث يصبح أي أمير في جماعة إسلامية له الحق أيضًا في إصدار نفس الحكم وبنفس الطريقة ودون محاكمة أو سؤال على أي مسلم آخر، ولو كان هذا المسلم عالمًا مثل فضيلة الشيخ المرحوم الذهبي؟

إني أسألك يا فضيلة الشيخ لا لشيء إلا لأن حكاية الاتهام بالكفر أو الارتداد أصبحت «المودة» الشائعة في عصر التكفير الذي نعيش فيه هذه الأيام. وأصبح أبسط وأول رد يعنُّ لمتعصب أو متعاصب أو جاهل أن يرد به على أي مثير لقضية أو أي مناقش لأمر من أمور حياتنا أن يرد عليه بقوله أنت مرتد، أنت كافر والعياذ بالله. وهذه فوق أنها إغلاق ليس لباب الاجتهاد ولكن لباب التفكير نفسه، أي نوع من أنواع التفكير، فوق أنها كذلك ولأنها شاعت تمامًا وأصبحت سلاح إرهاب بشعًا في يد من يريدون إغلاق عقل وقلب هذه الأمة ليمكِّنوا أعداءها منها في النهاية، فوق أنها كذلك، فموقف كثير من علماء المسلمين منها وأنت على رأسهم أصبح واجبًا ملحًّا.

فلنتفق أولًا على التهمة: تهمة الكفر.

إني لا أذكر نص الحديث الشريف ولكني ما زلت أذكر أني قرأت في كتاب من كتب الأحاديث أن عربيًّا أراد أن يقتل خصمًا بدعوى أنه كافر فنهره النبي ﷺ بشدة وقال له ما معناه: وهل شققت قلبه لتعرف إن كان مؤمنًا؟

ذلك لأن الإيمان إيمان القلوب ولا يمكن الحكم على الإيمان بمجرد التصرفات الخارجية للبشر، فالفاسق قد يُغالي في إظهار أنه مؤمن لكي يُخفي على الناس شروره وآثامه، وكثيرون ممن يجرمون حقيقة في حق المؤمنين ويغتالون أموالهم ويطعنونهم في أعز ما يملكون، يحرصون في الوقت نفسه على أن يحيطوا أنفسهم يوم ذهابهم للحج مثلًا بمظاهرة كبيرة، ويعودون ممسكين بالمسابح بينما حقائبهم ممتلئة بالفيديو كاسيت والأشرطة ويبذلون كل ما يستطيعون من حيل للتهرب من دفع الجمارك.

إني أفضِّل ذلك الإيمان الخفي السامي، الإيمان الذي يدفع الفلاح الفقير بعد أن ينهي يومه الشاق أن يذهب إلى أقرب مُصلًّى ويغتسل ويصلي العصر، يا لروعة هذه

الأرواح الفقيرة المظهر، الغنية الروح! تلمحها مبعثرة كالنقط البيضاء في ريفنا الواسع إذا ما جبته عصرًا راكعة تناجي مولاها وتشكره على نعمائه بلا جعجعة ولا مظاهرة، يعبد الناس ربهم في تلقائية ودون إرهاب أو إرعاب، ونحن في المدينة هنا وعلى شاشات التليفزيون نعبد الله في جلبة وبتعقيد يحوِّل إسلامنا السمح إلى ألغاز يحار في فهمها العقل، والإسلام دين الفطرة، بسيط بساطة العلاقة بين العبد وخالقه، يكفي أن تقول الشهادة وأن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت. ومن حر وشريف مالك يكفي أن تفعل هذا علنًا لكي تكون مسلمًا لا يجرؤ كائن من كان أن يَمسَّكَ بكلمة؛ ولهذا فإن الارتداد عن الإيمان مسألة أخطر بكثير من أن يُحكم بها على قارعة الطريق. وألا ترى معي يا فضيلة الشيخ أن هذه الفوضى في إطلاق أحكام الارتداد والكفر والزندقة علامة فقر فكري واضح ذكرته في مقالات سابقة، وأنها تفكير فقراء في العلم والمنطق، بل أقول تفكير فقراء إيمان، فالمؤمن الحق، المؤمن الغني بإيمانه هو الذي يحب لدينه أن يتسع وأن يدخل الناس فيه وأن يركنوا إلى حظيرته السمحة، أما أولئك الذين يريدون غلق نوافذ وأبواب ديننا الحنيف على ذواتهم الصغيرة بحيث يصبح تفكير الناس وطردهم من دار الإسلام أحب إليهم من دخول الناس زرافاتٍ ووُحْدانًا، أناس لا أقسو في الحكم عليهم ولكني أقول عنهم فقط إنهم فقراء إيمان وفقراء أرواح وفقراء عقل وتفكير.

إني مع الأستاذ الإمام محمد عبده حين يقول: إذا جاءك إنسان بقول وكان تسعة وتسعون وجهًا من قوله ذاك ممكن أن تُحمَل على أنها كفر ووجه واحد يُحمل على أنه إيمان، فمن الواجب أن نأخذ بهذا الوجه الواحد ونعامله على أساسه.

ونحن إذ نفعل هذا لا نفعله عبثًا وإنما نفعله لأن الإسلام يأمرنا بفعله، فالحضارة الإسلامية هي التي علَّمت العالم الحديث حتمية التفكير كفريضة وما أجمل هذا القول الذي يقول به الكاتب الإسلامي العظيم خالد محمد خالد حين يلخِّص المسألة ويقول: أنا أفكر فأنا مسلم.

فما تأخَّر المسلمون إلا حين، بعد النهضة الفكرية الكبرى التي استطاع المسلمون بها أن يُترجموا كل آثار الحضارة الإغريقية ويهضموا المدارس المنطقية من فيثاغورس إلى أرسطو وأفلاطون، ومن رياضة أرشميدس وعلى يد جابر بن حيان يخترعون علم الجبر ويصبح الطب على يديهم «علمًا» فيه مراجع للأمراض وتذاكر داوود وكتب تحضير الأدوية والعقاقير؛ أي يأخذ الطب شكله العلمي بعيدًا عن السحر والشعوذة، هذه النهضة

الفكرية الكبرى لم ينعم بها المسلمون طويلًا فقد انتقلت إلى أوروبا عن طريق الأندلس، وما لبثت أوروبا أن تلقفتها وبنت عليها نهضتها الكبرى الحديثة وكما يقول جارودي: إن معركة «بواتييه» التي هزم الفرنسيون العرب فيها وأوقفوهم عن اجتياح فرنسا كانت نقمة؛ فلو احتل العرب فرنسا لوفَّروا عليها مائتي عام من التخلف.

أوروبا تلقفت الحضارة الإسلامية وطوَّرتها حتى وصلت بها إلى عصر النهضة، بمعنى أن أوروبا الحديثة هي الامتداد الحقيقي للحضارة الإسلامية الحقيقية، بينما للأسف حدث في العالم الإسلامي شيء مغاير تمامًا، إذ تكفَّل بعض ممن زعموا لأنفسهم الوصاية على الإسلام بإغلاق باب الاجتهاد، أي باب التفكير، في وجه الفكر الإسلامي، وكانت النتيجة أن توقفت العملية الحضارية، وآب المسلمون إلى التواكل وكفوا عن التقدم بانغلاق العقل عن أن يستوعب متغيرات الحياة من حوله، والنتيجة هي ما نراه الآن من وصول أوروبا — على أكتاف تفكير أجدادنا المنفتح الجريء — إلى ما وصلت إليه من تقدم مذهل ووصولنا نحن إلى أن نسمح لأنفسنا بألا نستنكف أن ندفع الذبابة إذا وقفت على كوب اللبن لتغرق في السائل الذي يتكفل بقتل كلِّ ما فيها من جراثيم ونشربه. وناهيك عن أن درجة حرارة اللبن مهما غلى ومكوناته الكيميائية لا يمكن أبدًا أن تقتل كل ما تحتويه أجنحة الذبابة من ميكروبات وفيروسات، فإن النفس البشرية هنا، أليست تجزع من شرب لبن يحتوي على ذبابة ميتة؟ أليست حاسة الذوق إحدى مكونات النفس البشرية بحيث إذا أجبرناها على استساغة ما لا يُستساغ قتلنا فيها الإحساس، بالنظافة على الأقل، والنبي ﷺ يقول: النظافة من الإيمان. ألا نكون حينذاك — ولو جزئيًّا — غير مؤمنين؟ ألا نكون حينذاك قد أوقفنا حدًّا من حدود الإسلام وهو المنطق والذوق والتفكير وقتل كل ما يمكن أن يصنع من المسلم إنسانًا جميل الروح والحواس، والله سبحانه جميل يحب الجمال.

هذا عن التهمة، إن كانت هناك تهمة.

فماذا عن هؤلاء القضاة الهواة الذين يُنصبون من أنفسهم قضاة من حقهم — هكذا — أن يحكموا على من يشاءون بما يشاءون وحتى بالكفر والردة يحكمون، لقد قرأت لواحد منهم قوله في وصف خصومه: إنهم مسلمون بالاسم، أما في قلوبهم فهم كَفرة ملحدون.

هكذا وصل الحال يا فضيلة الشيخ! أن يبلغ الحد بهؤلاء القضاة المتطوِّعين أن يعلموا ما في القلوب، أن يدَّعوا لأنفسهم قدرات الله سبحانه ولا تستطيع — حسب قانون الفوضى

الضارب — أن تمنعهم عن إصدار هذه الأحكام، فهم يُنصِّبون أنفسهم أوصياء على دين الله وقضاة على المسلمين يحكمون على من لا يعجبهم بالكفر، وبالمثل لا تستطيع أن ترد أي طالب ثانوي عن أن يُنصِّب نفسه أميرًا ومفتي إسلام أكبر على مجموعة من زملائه ويُصدر ما يشاء من أحكام الكفر أو بالإعدام.

ولقد كنت أتصور أن يتصدى داعية جليل مثلك، أن تتصدى أنت بالذات لهذه الموجة الرهيبة من المتاجرة بدين الله، واستعماله لأغراض شخصية محضة، ولشفي الغليل والطعن من الخلف والانتقام الشخصي الرخيص، كنت أتصور أن عالمًا جليلًا مثلك يقول لهؤلاء الناس: قفوا، فالإسلام العظيم الحنيف ليس لعبة في يد أمثالكم، ولا في يد غيركم، والاتهام بالكفر والإلحاد بدعة، ما لم يقم عليه برهان أكيد، لا من الشواهد فقط وإنما باعتراف المرتد نفسه أو الكافر وإصراره على ردته وعلى إعلان كفره، فإن من يوجهها افتراء هو من تجب محاكمته.

كنت أتصور هذا، إذ فيما قرأت ورأيت وسمعت، لم يحدث أبدًا أن ضُبط إنسان واحد في مصر، أعلن هو بنفسه أو حرض غيره على الكفر، وعلى كثرة القضايا التي تضبط سياسية، وجنائية، وآدابية، لم يحدث مرة واحدة أن ضُبطت قضية لإنسان، فما بالك كاتب كفر أو دعا إلى الكفر أو حرَّض عليه أو حتى ارتد، فما هو التفسير إذن لتلك المظاهرة الغريبة على صفحات الجرائد، وفي التنظيمات وفي الإذاعة والتليفزيون وكأن وباء الكفر قد اجتاح بلادنا، وكأن دين الله مهدد بالضياع في ديارنا، وكأن القيامة من كثرة عدد المرتدين والكافرين ستقوم غدًا؟

كنت أتصور أن تقف أيها العالم الجليل ضد هذه الغوغائية وضد هؤلاء الغوغاء الذين يسيئون — أول ما يسيئون — إلى الإسلام نفسه، ويجعلون منه وهو السمح الفسيح، ملكًا خاصًّا لهم يُدخلون فيه من يشاءون ويخرجون منه من لا يعجبهم، حتى ولو لم يعجبهم شكله أو شخصه.

كنت أتصور هذا، ولذلك عجبت تمامًا — كما قلت في أول هذه السطور — حين قرأت كلماتك عنا في اللواء الإسلامي وحين قرأتها مرة أخرى في مجلة «الشعب» ولم أجد مناصًا من الرد عليها في نفس المكان الذي أُثيرت فيه.

عجبت لأني أدركت أن نفس العالم الذي كنت سأستنجد به قد أصبح على رأس موكب الذين كنت سأشكوهم إليه.

ولهذا أصبح من حقي أن أتساءل، أو بالدقة أسأله، وأسأل الآخرين أيضًا، من أين لكم بالحق المطلق في إدانة أي مسلم وفي اتهامه جزافًا هكذا بالارتداد أو الكفر؟

من أين تأتيكم، أو كيف حصلت على هذه الشرعية؟ من ولَّاكم ومن أعطاها لكم وبأي حق تنصبون من أنفسكم قضاة على عباد الله من المسلمين. وإذا كان باستطاعة البعض أن يرد عن الشيخ الشعراوي ويقول إن لفضيلته الحق في أن يحاكم ويحكم على الناس بالكفر باعتباره عالمًا دينيًّا شهدت له بعلمه ندوات التليفزيون وجماهير المسلمين في كل مكان، فإني ألجأ هنا إلى قول الرسول ﷺ: «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى.» فقد يكون فضيلته — وهو فعلًا — أكثر منا علمًا بأمور ديننا، وأكثر دراسة لقرآننا وفقهنا وتشريعنا وحتى نحونا وصرفنا.

ولكن نحن هنا حيال قضية علاقة مسلم بدينه وبإلهه.

وتلك العلاقة أو هذا الإيمان شيء لا يعلمه ولا يستطيع أن يفصل فيه إلا الله سبحانه وتعالى. ولهذا فالتقوى وحدها، وليس العلم، هي مقياس تفضيل مسلم على مسلم عند الله ولأن التقوى علمها عند الله سبحانه وحده، ولا شأن لمخلوق بها، فحتى شعبية الداعي الإسلامي أو نبوغه لا تمنحه الحق في الحكم على تقوى الآخرين، فلا فضل له على أي منهم إلا بتقواه هو الشخصية، وتقواه أو تقوانا علمها جميعًا عند ربي، وللفصل فيها يوم مهول واحد اسمه يوم الحساب يوم لا ينفع مال ولا بنون إلَّا من أتى الله «بقلْبٍ» سليم.

فحتى العلم يا أستاذنا الفاضل والنبوغ فيه والشعبية الواسعة التي كان من الممكن أن تدفع صاحبها إلى مزيد من التواضع وأخذ الناس بالرأفة والقلب المفتوح والتسامح، حتى هذه كلها لا تؤهل لكي يحكم عبد على عبد آخر بأن قلبه مرتد أو كافر؛ إذ معنى هذا أنه يدَّعِي لنفسه صفات إلهية يختص الله بها نفسه.

إن للإسلام أركانه العلنية الخمسة المعروفة لأبسط الناس شأنًا، وما دام يؤديها، ولم يجاهر بعصيان أي منها فهو مسلم شأنه شأن أكبر عالم من علماء المسلمين.

وبعد هذا يقول فضيلة الشيخ في حديثه للشعب إنه لا يمنح صكوك غفران، ويستعيذ بالله من هذا. وليسمح لي فضيلته بسؤال: أليس الذي يعطي لنفسه حق تكفير الناس بمعنى أنه يستطيع أن يخرج من يشاء أو يدخل من يشاء في زمرة المسلمين، أليس هو بالضبط كمن يمنح نفسه الحق في إعطاء صكوك الغفران لمن يشتريها كي يدخل بها الجنة أو لا يشتريها فيدخل النار، أليس من «يمنع» يملك تلقائيًّا الحق في أن «يمنح».

أتساءل، وفضيلته سيد العارفين و…

وبعد؟!

كما ترون، لقد وقفت عند حدود «الشكل» في ردي على فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي، ولم أتطرق إلى «الموضوع» والسبب بسيط فلقد أجهدت نفسي في محاولة لمعرفة موضوع التهمة التي يتهمنا بها فضيلته فلم أجد أي موضوع. فعذرًا يا فضيلة الشيخ وأعدك إذا كنت مخطئًا في حكمي وكان هناك فعلًا عمل أو كتابة أو رأي لشخصي الضعيف تجده فضيلتكم موضعًا للمساءلة أو حتى لاتهام فإني احترامًا وإجلالًا مني لشخصكم ومكانتكم سوف أرد عليه بإذن الله.

وتمنياتي لكم، يا من نفخر به ونعتز، بموفور الصحة وراحة البال والضمير.

وحديث عن الشيخ شعراوي

(هذا الحديث أجرته معي جريدة «الشعب» المصرية عقب اتهام فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي لي وللأستاذ توفيق الحكيم والدكتور زكي نجيب محمود بالمروق والكفر، تلك التهمة التي نفى فضيلة الشيخ شعراوي أنه قالها رغم أنها وردت على لسانه في مقالات بعض تابعيه وسكت عنها. وقد آثرت أن أورد هذا الحديث بنصه نظرًا لأهميته في قضية الثقافة أيضًا.)

الدكتور يوسف إدريس عَلم من أعلام الفكر في مصر والعالم العربي، وأحد المدافعين عن حرية الرأي وحرية الكلمة، وهو كمفكر وأديب يسعى إلى صياغة فكره في القالب الذي يراه مناسبًا لقارئه، وهو أيضًا يرى أن العمل الأدبي عمل ابتكاري من الطراز الأول، وأن الابتكار لا يكون منصبًّا على مضمون الفكر نفسه، ولكن على الشكل الذي يصيغ فيه هذا الفكر، ولكن على أن يكون هذا الشكل أو ذلك القالب مُرضيًا لكل الناس على اختلاف ميولهم وثقافاتهم.

وفي الأسبوع الماضي أجرت «الشعب» حديثًا مع فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي الذي فجَّر قضية على جانب كبير من الأهمية؛ فقد اتهم فضيلته ثلاثة من المثقفين المصريين بأنهم يتجرءون على الدين، وأن هؤلاء الثلاثة متهمون بأن كتاباتهم فيها تضليل وإضلال، وأمام هذا الاتهام الصريح توجهت الشعب إلى أحد المثقفين الثلاثة وهو الدكتور يوسف إدريس، فكان هذا الحديث الذي استغرق أكثر من ثلاث ساعات كاملة:

قلت له: ما تعليقكم على ما ذكره فضيلة الشيخ الشعراوي؟ قال: قبل أن أتعرض لهذا، أنا لي عتاب رقيق إلى جريدة «الشعب» التي أحترمها وأقدرها كجريدة سياسية مدافعة عن الحرية والديمقراطية وأمانة الكلمة والنزاهة، حيث كان المفروض ألا تتبَّنى الجريدة وجهة نظر الشيخ الشعراوي وكأن ما قاله هذا هو وجهة نظر الجريدة.

قلت مدافعًا: لا، الجريدة لم تتبنَّ وجهة نظر الشيخ الشعراوي، ولكن هذا هو نصُّ ما قاله فعلًا … فقاطعني قائلًا: كان المفروض أن يكون «المانشيت» أن الشيخ الشعراوي يتحدى الكُتاب الذين قال عنهم إنهم يتجرءون على الدين، وهناك فارق كبير بين المعنى الذي كتبته الجريدة وبين إضافة كلمة «الذين قال عنهم» فهذه الكلمة تُبرئ ساحة الجريدة، وعلى أي حال فهذا غير مقصود.

حملة سياسية ضارية!

قلت: وما هو تعقيبكم على ما قاله الشيخ الشعراوي؟ قال بلهجة حادة: في الحقيقة إن هناك في الفترة الأخيرة حملة ضارية على عدد من الكُتاب، هذه الحملة توزِّع الاتهامات على هؤلاء الكُتاب، تتَّهم بعضهم بالشيوعية، والبعض الآخر بالإلحاد، وهذه التهم ليست دينية كما تبدو ولكنها تُهم سياسية المقصود بها استئصال أصحاب الفكر الحر من المجتمع وإبعادهم عن المعارضة أو حتى إبداء الرأي، فجريدة «الشعب» مثلًا جريدة معارضة، وهي متهمة أيضًا بالمروق والتضليل مع أنها لا تعارض ضد المجتمع، ولكن لصالحه، وهذا هو دور الكُتاب والمفكرين المقصودين من هذه الحملة المدبَّرة من بعض صغار الكُتاب والصحفيين.

ثم صمت برهة، وعاد مستطردًا: مثلًا هناك ثور أبيض هائج في «الأهرام» يتهم الناس بالشيوعية صباح مساء، ويتهم الشيوعيين بالإلحاد، هكذا على صفحات جريدة «الأهرام» المحترمة، لقد حوَّل بابه غير السياسي إلى منبر لمكافحة الشيوعية العالمية والمحلية، وبجهل شديد، وهذا في حد ذاته ظاهرة كانت لا بدَّ أن تستوقفنا وتجعلنا ندرك أن المسألة حملة سياسية موجهة من بعض الجهات وليست أي شيء آخر.

«فقاطعته قائلًا: ومن هو هذا الثور؟»

فأجاب قائلًا: يكفي أن أقول لك إنه ثور سمين أبيض، له جسد ثور وخوار بقرة غير حلوب.

«وما علاقة هذا الثور بما قاله الشيخ الشعراوي؟»

فأجاب: دعنا من كلام هذا الثور البقرة فهو لا يستحق التعليق، فتعليقي سيكون على ما قاله الشيخ الشعراوي من وجهة نظر سياسية؛ ذلك لأن كلام الشيخ الشعراوي لو كان قد جاء دون أن تكون هناك حملة غريبة متجانسة من صغار القامة لكان يمكن أن يكون كلام الشيخ الشعراوي كلامًا دينيًّا، ولكن ما قاله في خلال هذه الحملة يُدخله في

الإطار السياسي للحملة، ومن هذا المنطلق فإن ردي عليه سيكون ذا شقين، ردًّا سياسيًّا ثم ردًّا فكريًّا، وبدايةً أقرر أنني من عشاق الشيخ الشعراوي وأعتبره «فلتة» مصرية عربية إسلامية، وكثيرًا جدًّا ما أصغي إلى حديثه وأسعد جدًّا بما تجود به قريحته، وهو ما يمكن أن أُسمِّيه أنا فهمًا جديدًا للقرآن الكريم وللغة العربية بشكل عام، وأعتبره مثلما قال الدكتور زكي نجيب محمود عالم لغة، وقارئًا جيدًا جدًّا للعلوم الحديثة.

حكم بالإعدام!

واستطرد يقول: إنني في غاية الدهشة كيف أن عالمًا فاضلًا جليلًا مثل الشيخ الشعراوي مرة واحدة يقف ويقول لا، هذا ضلال وتضليل، وهذا كفر، ففي حديثه لـ «الشعب» نسب للأستاذ توفيق الحكيم أنه كافر، وقال عني قبل ذلك وعن الدكتور زكي نجيب محمود إننا مضللان بالإرادة؛ أي كَفَرة ومرتدون عن الدين بالإرادة، كيف أن عالمًا جليلًا في هذه المكانة يسمح لنفسه أن يتهم الآخرين بالكفر؟! وإذا كان هو غيورًا فعلًا على الإسلام، فالإسلام ينصُّ على أنه قبل الحكم على إنسان لا بد أن يُحاكم أولًا، ونعطي له فرصة للدفاع عن نفسه، ولكن ليس هكذا وبشكل غيابي يصدر حكمًا بالردة أو بالارتداد عن الدين، وهي التهمة التي يعلم جيدًا الشيخ الشعراوي أن عقوبتها هي الإعدام في مكان عام، فكيف يُصدر الشيخ الشعراوي حكمًا بالإعدام، وغيابيًّا؟

وإعدام مَن! إعدام رءوس كبيرة جدًّا في هذا البلد، تتلمذ على أيديهم أجيال وأجيال، وأصبحت من عُمد الوجود المصري، يعدمهم هكذا ببساطة! شيء لم أكن أتصور أن يحدث.

الغريب في الموضوع أنه يبدو أن الشيخ الشعراوي يعتبر أن الكُتاب أو المفكرين منافسون للفكر الإسلامي أو لفكره الشخصي، وهذا غير طبيعي؛ فأنا معجب جدًّا بكلمة قالها الأستاذ خالد محمد خالد وهي: «أنا أفكر إذن أنا مسلم.» لأن الإسلام أمرنا بإعمال الفكر، وبالتفكير وبالعلم، وأمرنا بأن نتعلم وأن نصل إلى أرقى مراحل العلم لننفع به الناس، حتى إن القرآن يتوجَّه بحديثه إلى أولي الألباب.

ثم إن هناك نقطة أخرى وهي أن الشيخ الشعراوي ليس أول مفكر في الإسلام أو أول مفسر للقرآن؛ لقد جاء بعد ١٤ قرنًا من الزمان، خرج فيه أئمة كبار جدًّا كالإمام أحمد بن حنبل والإمام الشافعي، وابن تيمية … الشيخ جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده وغيرهم كثيرون. هؤلاء جميعًا قاموا بتفسير القرآن وأعطوا وجهة نظرهم،

ولكن بطريقة لم يكفِّروا بها أحدًا، فلم يحدث أن الإمام أبا حنيفة مثلًا كفَّر أحد الناس المعاصرين له لأنه يفكر، لقد كانوا يختلفون، ولكن لم تصل إلى درجة التكفير.

طبعًا ليس معنى أن هناك عالمًا دينيًّا كبيرًا، أو داعية مثل الشيخ الشعراوي، أننا ككُتاب نكفُّ عن الكتابة ونبحث لنا عن حرفة أخرى غير الكتابة؛ لأن الكتابة تتناسب مع التفكير الذي أمرنا به الإسلام؛ ولذلك نحن نكتب فيما يخص الناس في أمور حياتهم، فالكاتب منا عندما يكتب قصة أو مسرحية فهو يعالج مشاكل الناس ويجد لها حلولًا، ولكن كونه يعالجها بطريقة لا تعجب الشيخ الشعراوي فهذه يمكن أن نناقشه فيها، ولكن ليس على أساسها يُصدر حكمًا بالإعدام؛ لأنه من الذي أعطاه هذه السلطة لكي يكفِّر مسلمًا أو يرد مسلمًا؟

والسؤال الآن، من أين استمد الشيخ الشعراوي الشرعية ليردَّ مسلمًا أو يكفِّر مسلمًا؟ لأنه إذا كانت المسألة هكذا فإن من حق أي شخص آخر أن يرد الشيخ الشعراوي نفسه ويقول إن تفسيراته هذه ليست صحيحة، فكلنا مسلمون، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، والتقوى محلها القلب والشيخ الشعراوي لم يشقَّ قلوبنا حتى يعرف أننا أتقياء من عدمه، وربما أن هناك من هم أكثر تقوى ممن يسمون أنفسهم علماء المسلمين، ولا يعرف هذا إلا الحق سبحانه وتعالى.

والسؤال الذي يطرح نفسه: ما هي الشروط الواجب توافرها عند الحكم على ارتداد مسلم؟ هل يجلس كل واحد هكذا يرد الآخر، أم لها محاكمة ومحكمة وحق المتهم في شرح وجهة نظره؟ هذا سؤال موجه للشيخ الشعراوي.

وهنا قام الدكتور يوسف إدريس من فوق مقعده وأحضر ورقة وقرأ منها جزءًا حول رأي الإمام محمد عبده في عملية التكفير حيث يقول الإمام محمد عبده بضرورة البُعد عن التكفير؛ فإذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حُمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر، هذه هي سماحة الإسلام.

كان المفروض أن يقوم الشيخ الشعراوي بقراءة ما نكتبه قبل أن يقول مضللين، وهذه هي أعمالي ٣٤ كتابًا يأخذ أي واحد منها ويوضح ما فيه من ضلال أو تضليل، وها هي مقالاتي بالأهرام، لو أن بها فقرة فيها ضلال كان يقول وأنا أشرح له وجهة نظري، وهو يعتب وله بعد ذلك أن يطالب بعقد محكمة إسلامية لمحاكمتي.

مقاومة الطغيان!

قلت: في بداية حديثنا قلت لي إنك ستتحدث في خطين متوازيين، خط سياسي وخط فكري، فماذا عن الجانب السياسي في كلام الشيخ الشعراوي؟

فقال بلهجة جادة: تمام، في الحقيقة إننا نقاوم الطغيان وهذا من مبادئي الرئيسية، وأعتقد أن هذا أيضًا من مبادئ الإسلام، والطغيان معناه التفرد بالحكم، ولا يوجد في الإسلام طاغية فكري يقول أنا الذي أنفرد بالتفكير وباقي الناس لا تفكر، إنها أمة عقيمة تلك التي بها شخص واحد فقط هو الذي يفكر وغيره لا يفكرون، أنا أريد أن يكون هناك آلاف بل ملايين من الشيخ متولي الشعراوي، أنا ليس هدفي قصر الفكر على فضيلته ولا علينا وحدنا، ولكن الأمة كلها تفكر، تجادل، تناقش، ولكن كون فضيلته يعتقد أن الأمة الإسلامية تتحول إلى جمهور له لا يناقشه، ولا يختلف معه، فهذا هو ما سنقاومه بكل ما نملك من تفكير.

أقبل التحدي ولكن!

قلت: فضيلة الشيخ الشعراوي طرح فكرة إقامة مبارزة على أن يكون هو طرفًا بينما تكون سيادتكم والأستاذان توفيق الحكيم ود. زكي نجيب محمود طرفًا ثانيًا فهل تقبل؟ فابتسم ابتسامة عريضة وقال: نعم، أنا أقبل مثل هذا التحدي، ولكن على أساس أن هناك عددًا من الموضوعات نضعها كجدول لأعمال هذه المبارزة، وأرجو أن تبلغ الشيخ الشعراوي بها، وإذا قبلها فأنا مستعد للحوار معه فيها وهي:

أولًا: أن يفسر فضيلته لماذا أخذ موقفًا مؤيدًا تمامًا لمبادرة القدس التي كانت بداية الكوارث على الأمة العربية والإسلامية، بل عمل وقتها وزيرًا للأوقاف وبعيني رأيته مع الرئيس السابق السادات يحيي الذين وفدوا للتهنئة بمبادرة القدس.

ثانيًا: أريد أن أناقشه في موقفه المشهور في مجلس الشعب الذي قال فيه ما معناه أن على السادات ألا يسأل (بضم الياء) فصاح به الشيخ صلاح أبو إسماعيل عضو مجلس الشعب قائلًا: «يا راجل، هذا معناه إنك ترفع السادات إلى مراتب الألوهية!»

فقط أريد إجابة على هذا السؤال، يعني الرئيس السادات لا يسأل (بضم الياء) ونحن يتم تكفيرنا دون أن نُسأل، أم لأن السادات رئيس؟!

ثالثًا: كيف تقوم حرب لبنان ولا يجند فضيلة الشيخ الشعراوي نفسه لإثارة المسلمين ضد هذه الحرب وضد المذابح، أنا لم أقرأ أو أسمع له كلمة واحدة هجومًا على إسرائيل ولا على المذابح، إنه يقيم ندوة كل يوم جمعة بالتليفزيون، ومع ذلك لم يقل شيئًا عنها، كان المفروض أن يخصص ولو ندوة واحدة، ولكن كون أن الشيخ الشعراوي يترك المسلمين يُذبَحون ويتكلم في إعراب القرآن، إنه لا بد من مساءلة فضيلته عن هذا وهو رجل مسئول بقدر عدد من يؤمنون به، وأنا لا أُدينه ولكن أنا فقط أضع هذه النقاط ونتكلم حولها، هذا هو الموضوع المشترك بيننا وبينه، أما كون أن له طريقة في فهم الإسلام ونحن لنا طريقة أخرى فليس هذا مجالًا للمناقشة، أنا أكثر شيء أتمناه أن أكون أنا المخطئ وأن يكون هو الذي على حق، المسألة ليست «فتونة» كل منا يبرز «عضلاته» للآخر، بالعكس نحن نبحث عن الحقيقة، وكل الذي يهمنا المعرفة وبالتالي لا مجال للتمسك بالرأي وأن أقوم بفرض هذا الرأي على الآخرين أبارزهم لفرضه عليهم، أنا تلميذ حقيقة، ولست مصدر حقيقة.

قلت: ما رأيكم فيما ذهب إليه الشيخ الشعراوي أن الجماعات الإسلامية جاءت وليدة للتطرف في الانحلال؟!

– فأجاب بهدوء: نعم، أؤيده فيما ذهب إليه، الحقيقة أن هناك انفلاتًا في ناحية، فلا بد أن يحدث انغلاق على الجانب الآخر.

ثم عاد إلى اللهجة الحادة وقال: ولكن الشيء الخطير الذي لا بد أن يتنبه إليه الشيخ الشعراوي أن هذه الجماعات قامت على فكرة أن أي أمير يمكن أن يصدر حكمًا بالإعدام على أي شخص، أي على نفس الأسس التي يُكفر بها الشيخ الشعراوي!

فقلت: وما هو رأيك، هل الشيخ الشعراوي يؤيد هذا أم لا؟!

فأجاب مبتسمًا: فضيلته يفكر بنفس أسلوب الجماعات الإرهابية رغم أنه معترف أنهم متطرفون، كل الفرق أنهم جماعات وهو جماعة من فرد واحد!

بهذه الطريقة لا يمكن أن نتقدم، أو يرتقي هذا الشعب بدون حوار خصب بين كافة الاتجاهات، وأنا لا أخاف أبدًا من الحوار مع الشيخ الشعراوي، بل لن أتحاور معه في الأمور التي أجهلها عن الدين الإسلامي وإنما سأسأله كواحد من الكثيرين الذين يسألون، ولكني لن أفرض عليه موضوعًا للمناقشة كأن أقول له هيا نتناقش في الطب الذي درسته أو في الأدب الذي أكتبه.

عودة إلى صكوك الغفران

واستطرد قائلًا: الشيخ الشعراوي ينفي نقطة أن الدين الإسلامي فيه من يعطون صكوك الغفران، وينفي عن نفسه نقطة أنه يعطي صك غفران لأحد، ولكن إن الذي يعطي لنفسه الحرية أن يكفِّر الناس لا بد أن يكون عنده الحرية أيضًا لمنح صكوك الغفران.

سبب اتهام الشعراوي

قلت: وماذا تعتقد أن يكون سببًا في اتهام الشيخ الشعراوي لك بالتجرؤ على الدين؟!

فقال: إنني أعتقد أن السبب أني قلت ذات مرة في مقال إنني عاصرت حرب لبنان فترة منها في مصر، وسافرت مع ابني إلى أمريكا للعلاج، وحدثت فيها المذابح والأهوال، ووجدت الصحافة الأمريكية والأوروبية تندد بهذا العدوان وذهبت وعدت وفضيلة الشيخ الشعراوي ما زال يفسر جزءًا معينًا من «سورة البقرة» متجاهلًا كل ما حدث وكأنه لا يحدث، في حين أن الفكر الإسلامي الحقيقي لا بد أن تتلخص رسالته في مقاومة الصهيونية وخططها في المنطقة، كونه يقاوم الشيوعية، هو حر ولكن العدو الذي أمامنا ليس ألف أو ألفَيْ شيوعي في مصر، ولكن الأعداء هم هذا السرطان الخبيث المزروع في قلب الأمة العربية، ولكن كون أن الشيخ الشعراوي يقصر في أن يضع فكره لمحاربة الصهيونية بل يهب حياته كلها، هذه هي البطولة الحقيقية، ولكن ليست في تكفير كاتب أخطأ في شكل من مقال أو في محاربة شيوعية وهمية، ولكن القضية التي يجب على مفكر مثل الشيخ الشعراوي هي محاربة تلك الغزوة الصهيونية الفكرية والبدنية التي تستهدف استئصال جزء من الأمة العربية والإسلامية وإخضاع الباقي لها، هذه هي القضية وليست القضية هي تكفير الآخرين أو حتى إعراب القرآن بعد ١٤ قرنًا من الزمان!

أريد أن أعرف رأي «مولانا» في الحرب الدائرة الآن بين العراق وإيران، ولماذا لا يتبنى دعوة لإيقافها؟ هذه هي الأعمال الجديرة بالمفكر الإسلامي، الإسلام حاليًّا يطلب من دعاته الآن أن يهبوا لنجدته؛ لأنه يُضرَب الآن من أعداء الإسلام الخارجيين من الصهيونية — يا مولانا — التي لم تبدِ في إسرائيلها للآن رأيًا وباركت زيارتها!

مناقشة الدين لمن

قلت: الشيخ الشعراوي طلب أن تكون مناقشة الدين مقصورة على العلماء المتخصصين؛ لأن الدين ليس بأقل من حرفة السباكة، فما هو رأيكم في هذا؟!

فقال: ما معنى علماء المسلمين؟ أنا أفهم أن هناك فقهًا إسلاميًّا فيكون هناك علماء فقه إسلامي، إنما ليس هناك ما يسمى بعلماء المسلمين، ما معنى أن يحتكر عالم إسلامي مناقشة الدين؟ وهل من الممكن أن نترك الدنيا وننتظر حتى يجتمع علماء المسلمين ويتناقشوا ويقولوا الحقيقة؟ هذا غير معقول، كل مسلم منا من حقه أن يعرف دينه، ويجتهد في معرفته وأن له الحق في مناقشة أكبر علماء المسلمين.

هناك نوعان من المعرفة، المعرفة العقلية والمعرفة الحدسية، وأحيانًا تكون الحدسية أقوى، وهنا أقول إن من حق أي شخص أن يناقش أي عالم من علماء المسلمين في الدين، ولكن أن يحتكر هو أو مَن سمَّاهم بعلماء المسلمين ذلك، فهذا هو «الكهنوت» ونكون قد وصلنا إلى «الكردينالية»!

قلت: كون أن المفكر يناقش في الدين شيء، وأن ينشر ما يفكر فيه على الناس شيء آخر.

فقال: هذه واقعة خاصة بالأستاذ توفيق الحكيم فقط، وأنا أرى أن الشيخ الشعراوي كان عليه أن يُرسل له رسالة يصحح له هذا الخطأ الذي يراه، ولو كان هذا قد حدث لكان الأستاذ توفيق الحكيم قد قام بنشر الرسالة، وربما أحس بالخطأ ولكن أن أقوم بتكفيره هكذا، أمر غريب حقًّا!

قلت: وفي أي شكل ترى دور الشيخ الشعراوي وعلماء المسلمين؟!

فأجاب بسرعة وكأنه كان يتوقع السؤال: أراه سياسيًّا لأن العالم الإسلامي لا بد أن يكون له دوره السياسي؛ فكل رجال الدين كانوا من أصحاب المواقف السياسية وكانوا كلهم مع الشعب ضد الطغيان، وكان دورهم ليس الارتكان بظهورهم إلى الحكام والحكومات والحكم على الناس بالإعدام، ولكنهم مع الشعب في الحارة والمسجد والسوق وفي كل مكان، معه في قضاياه وضد أعدائه ولو كانوا من السلاطين.

المشكلة أن الشيخ الشعراوي لم تكن له آراء، لا في الموقف السياسي الداخلي أو الخارجي، لا نعرف موقفه من مشكلة الإسكان أو كامب ديفيد أو إسرائيل، مع أن العالم الديني وظيفته أن يقود الشعب، ربما أن السادات وجد له شعبية فقال ندخله الوزارة، وهو قبِل رغم ما كان يسمعه عن عصمت السادات وقضايا الفساد، وكان يمكنه كوزير أن يصحح كثيرًا؛ فالوزارة ليست «عملًا سكرتاريًّا» ولكنه عمل سياسي في حل مشاكل الناس، لكن الوزارة في مصر فقدت معناها، فالآن أصبحت وظيفة، المفروض أن الشيخ الشعراوي يمثِّل رأي الإسلام الحقيقي، ويبديه للحاكم، فهل فعل هذا؟ أبدًا لم يحدث.

ولتأذن لي جريدة الجمهورية أن أنقل عنها هذا الحديث الذي أجراه فضيلة الشيخ مع الأستاذ أبو الحجاج حافظ بعد نشر مقالتي ردًّا عليه.

الشيخ متولي الشعراوي يرد على د. يوسف إدريس:

لم أتهم أحدًا بالضلال أو الإضلال

(صباح يوم الإثنين الماضي كنت عند فضيلة الشيخ متولي الشعراوي، كان الدكتور يوسف إدريس قد نشر في نفس اليوم مقالة بعنوان «عفوًا يا مولانا» ردًّا على تحدي الشيخ له ولزميليه الأستاذ توفيق الحكيم والدكتور زكي نجيب محمود، للدخول معه في حوار علني.

وقرأ فضيلة الشيخ الرد، ووجدتها فرصة لإجراء حوار معه، يضع الأمور في نصابها. وتدفق حديث الشيخ كعادته سلسًا سهلًا ووجدتني وأنا أكتبه أحذف أسئلتي ومقاطعاتي لأترك كلماته كما سجلتها.)

أبو الحجاج حافظ

بدأ الدكتور يوسف إدريس بأفعل التفضيل عندما قال: «مع أن العرب كانوا دائمًا مشهورين بأفعل التفضيل ومشغولين دائمًا بمن هو أشعر الشعراء … إلخ.»

لقد نقل أفعل التفضيل المراد ممَّن يريد أن يثبت أنه أشعر الناس أو أعلم الناس إلى غير صاحبه؛ لأن الذي يحكم بالأشعرية والأفضلية ليس هو الشاعر وإنما هم الذين يستمعون إلى الشاعر.

ثم مَن قال إن طلب الحوار يلزم منه أنني أفضل؟!

ولماذا يستبعدون أن يكون هو أو أحدكم؟!

شيء أحدده

إن الشيء الذي أحب أن أحدده ولا أدري كيف غاب عمن يتصيد ما يأخذه على شخصي أنني لم أرمِ أحدًا بالضلال أو الإضلال ولا بالارتداد ولا بالكفر.

ولهذا لا أدري ما الذي يجعلهم يجذبون هذه الألفاظ إلى جهتهم، إن الشيء الذي قلته — وهو مكتوب يُرجَع إليه — إنني قلت فيما قاله توفيق الحكيم منسوبًا إليَّ: إن الله

قال ... ما يقوله توفيق الحكيم ضلال وإضلال، وبالرجوع إلى العبارة يُفهَم أن القول في ذاته هو الموصوف.

وكان من الممكن للقائل أن يعتذر عنه بأن العبارة لم تسعفه أو أن الفهم قد أخطأه وهو مسلم، وبذلك يكون القول ضلالًا في ذاته وأن القائل ذاته بحسن الاستبراء منه بعيد عن هذا الوصف.

وهبْ أن هذا الوصف يتعلق بالحكيم، فما الذي يجعل غيره يتهافت ليُدخِل نفسه تحت هذا الوصف، اللهم إلا أن يكون بدلالة الالتزام موافقًا على ما قال.

لقد أدخلتَ نفسك في جناية لم يُدخِلك فيها أحد، فنحن لم نكن نريد أن نتجاوز الحوار الذي تنشأ بعده مخالفة أو جنحة أو جناية، وأدخلت نفسك أنت في الحكم في الضلال والإضلال والارتداد.

وأنا لم أقل ذلك.

إن كل كلامك دوران في فَلك لا وجود له، وإن دلَّ على شيء فإنما يدل على نقل الحوار من موضوعه إلى غير موضوع.

وفي ذلك ما فيه.

اطمئِن من هذه الهُوَّة التي تريد أن تحفرها بدبوسك؛ فالكل يعلم أنني لست أميرًا لتشكيل ولا رئيسًا لجماعة، وإنما أنا رجل عامٌّ أقولها جهارًا نهارًا.

فأرِحْ نفسك جدًّا من هذه الناحية «يا يوسف» ولا تحرِّض بي أحدًا فهم أعلم بأمور الأمن النفسي منك، وليسوا من الغفلة بحيث تنبههم أنت إلى خطر يُدهِم الحكمَ ممَّن يعرفه الحكم.

الإيمان الخفي

أما عن الإيمان الخفي السامي فلا يوجد إيمان خفي سامٍ؛ لأن الإيمان أن تشهد ... وأن تعلن، وأن تنفذ مطلوب الإيمان.

وإذا كان إيمانك خفيًّا مستورًا، فلماذا تهاج إذا شممت من رائحة كلام تفهم أنه يخرجك منه؟ اقرأ في كتاب الله إن شئت ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

وها أنت تقول: أشهد أن لا إله إلا الله، أخرجها عن الخفاء السامي.

ونظرًا لأنها سهلة لا تكلف شيئًا فقد اكتفى بها قوم لتحمل عنهم أوزار ترك العمل الذي هو حق هذه الشهادة.

الإمام محمد عبده

أما ما قاله الإمام محمد عبده وأورده المقال من أنه إذا جاءك إنسان يقول وكان له ٩٩ وجهًا وكان هناك وجه واحد يُحمَل على أنه إيمان، فمن الواجب أن يُؤخَذ بهذا الوجه. فقد أخذنا والله بهذا الوجه كثيرًا في مقابلة كثير من المفكرين، وربما كان هذا الأخذ مدعاة لهم أن يوغلوا فيدخلوا الفكر البشري في غير مجاله مما أحكم الله نصه ولم يدع فيه رأيًا لمجتهد.

الدين والتديُّن

وأحب أن أبيِّن للناس جميعًا في مناسبة التعقيب أنه يجب أن يفرق بين تدين ودين؛ فالتدين رتابة عمل إيماني يُطلَب مِن كل مَن آمن.

وعلم الدين شيء آخر فوق هذا، فمطلوب من صاحبه أن يتدين أولًا كما يتدين الناس، ويطلب منه ثانيًا وقد انحاز إلى هذا العمل أن يعلم من دين الله ما يرجع إليه الناس في أمورهم إن عرضت لهم أمور قد لا تعرض لكثير طوال حياتهم، فما كان الله ليكلف كل مؤمن به أن يعلم كل منهجه، عليه أن يعلم ما يتطلبه دينه من عمل رتيب في الحياة، فإن جدَّت له قضية فعليه أن يسأل فيها أهل الذكر.

تأخُّر المسلمين

وأما قضية الحضارة الإسلامية وتأخر المسلمين، وما قامت به أوروبا من تلقُّف للحضارة الإسلامية وطوَّرتها حتى وصلت بها إلى عصر النهضة، فما تأخُّر المسلمين لما يقولون، وإنما تأخَّر المسلمون لأنهم لم يكونوا على مستوى الإسلام، فاكتفوا به أسماء وجغرافيا.

والدليل على ذلك أن المسلمين حين كانوا مسلمين بحق قادوا الدنيا، حضارة متزنة، ومدنية وَرِعة، وتقدُّمًا خاشعًا.

فَلْنفكر لمَ إذن؟!

باب الاجتهاد

أما الاجتهاد فلم يحدث يا أخي إغلاق لباب الاجتهاد، وإن كان قد أُغلِق فلأنه لم يوجد أناس سَمَوا إلى مرتبة الاجتهاد. ثم ما هو الاجتهاد الذي أُغلِق، أهو الاجتهاد في العمل، أو

في مادية الكون، أو في الاستنباط من ظواهر الطبيعة، أم هو الاجتهاد الذي كان يحب كثير من الناس أن يحرِّرهم من حكم الله ليبيح الاختلاط ويبيح التبرُّج ويبيح الربا بدعوى أن العصر يستلزم ذلك، فيجب على المجتهد أن ينزل إلى مستويات العصر، كأن العصر هو المُشرِّع؛ إذن فكلما حتَّم العصر شيئًا من التحلُّل أنزلنا حكم الله بواسطة اجتهادكم لندلِّل على أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان كما يتشدَّق بذلك السطحيون.

لذا يجب ألَّا تدخلوا من باب أن الإسلام منَعَ حضارة؛ فالذي منع الحضارة هو أنه لا إسلام.

لقد كان من الواجب أن يسأل نفسه عن التقدُّم المذهل الذي وصلت إليه أوروبا، وهل عفاها هذا التقدُّم مما تعاني؟! إنني مستأمنك على الجواب.

الأحاديث النبوية

أما مسألة الذبابة التي يعيدون فيها ويزيدون، فحَسْب كل مسلم منكم أن يفهم أن الحديث ورد في أصحِّ كتابٍ بعد كتاب الله، وموقفكم من هذا لأنكم لم تعقلوا عن الله وسيلةً لإضعاف الثقة في حديث رسول الله، وتلك هي القضية الشاملة لأعداء الإسلام الآن.

أمَّا التصدِّي للمتطرفين فلم ننتظرك لتقول، لقد قلنا ولكن يبدو أنكم تكرهون أن تسمعوا، ولقد كنت أتمنى أن أسأل د. يوسف إدريس إذا كان المتطرفون في الدين قد عُقِدت لهم ندوات لتصحيح مفهوم الدين، أَمَا كان الأولى أن يجد المتطرفون ضد الدين مثلَ هذه الندوات حتى نكون قد عدلنا في الأمة الواحدة بميزان واحد؟!

أمَّا قول الدكتور يوسف إدريس من أنني أصبحت على رأسِ مَن يشكو منهم، فأقول له: إن أحدًا لن يستمع إليك، ولست من الحمق الإيماني بهذه المناسبة، ولكنني بعون الله سأظل لله وحده وَلْيكره مَن يكره.

لقد حاولت أن تجد موضعًا للتهمة كما تقول، فما دامت التهمة غير موجودة فكيف تجد لها موضوعًا، إنها تهمة ارتميتَ أنت في أحضانها فلا تسأل مَن لم يقصد، وإنما سَلْ مَن قصد!

وأخيرًا وليس آخرًا يا أخ يوسف، أَمَا أنك تَقِي، فالحمد لله، وأستغفر الله أن علمي لم يصل إلى هذا المستوى، فقد أفرحتني وأسعدتني؛ لأن مَن أحبُّ لهم الخير قد زادوا عندي واحدًا.

عن الزمن والزمان

إذا لم يأتِ التغيير في أوانه

يقولون إن لكل شيء أوانه، ولكل فاكهة موسمها، ولكل حال مقتضى أو الوقت المناسب الذي حين يحدث الشيء خلاله يأخذ كل أبعاده ويتحقق له المعنى والهدف.

والمسائل في الكون لا تأتي صدفة؛ البطيخ يُؤكل في الصيف إذ هو فاكهة صيف، ولو أُكِل في الشتاء لما أحسسنا له بذلك الطعم الخاص به، والذي يعطي للبطيخ نكهته الخاصة، تلك النكهة التي تبلغ نهايتها العظمى وفاعليتها الكبرى فقط في عز الصيف؛ ولهذا لا ينضج البطيخ إلا في الصيف، نفس درجة الحرارة التي تنمو فيها بذوره. ودرجة الحرارة وكم الرطوبة التي بدونها لا ينضج، هي نفسها العوامل التي تخلق عند الإنسان «ملتهمة» الرغبة والشوق لالتهامه.

وليس الأمر مقصورًا على الفاكهة والخُضر وحدها، بحيث يئين أوان بعضها شتاءً ولا يثمر البعض الآخر وتشتاق له إلا صيفًا، وإنما كل ما يحدث في الكون له أوان، ثمة ساعة كونية منضبطة تمسك بأحداث الكون وتغير الفصول في موعد محدد تمامًا لا يتغير أبدًا، وتعطي للأشياء والأحداث موسمها الذي إذا تزحزح عن موعده فقدت معناها، بل هو مستحيل أن يتزحزح عن موعده إلا إذا تدخَّلنا نحن بإرادتنا وغيَّرنا من طبيعة الجو وقوى الطبيعة لنجعله يثمر في غير الأوان، ولكننا حتى إذا فعلنا هذا لا نستطيع أن نغيِّر من طبيعتنا نحن بحيث نتقبَّل الشيء في غير أوانه.

بل إن رغبات الإنسان وحنينه إلى التغيير له أيضًا أوان، فالشوق إلى الأشياء والأحداث له أيضًا أوان، بحيث إذا لم يحدث التغيير في أوانه، فمن المؤكد أنه يفقد طعمه وفاعليته. وربما من أجل هذا جعلوا تغيير الحكم وإجراء الانتخابات في النظم الديمقراطية بأوان، أو

أنه لم يأتِ عبثًا، وإنما ظلَّت تلك النظم تُجرِّب وتخطئ وتختار حتى وجدت أن الشعوب في حاجة لإعادة النظر في حياتها وممثِّليها وحكوماتها كلَّ أربع سنوات أو خمس؛ إذ ربما لو جعلوها كلَّ سبع سنوات لَفقدت فاعليتها وفائدتها، أو لو قصروا المدة إلى عامين أو عام لَجاء التغيير بغير أن تكون الرغبة في التغيير قد تكوَّنت؛ ولهذا لا يأبه الناس له.

أقول هذا بمناسبة الحديث الكثير عن ضرورة التغيير ونوع التغيير، وأي تغيير يكون، فمهما كانت نوايانا أن نغير، فالأهم من التغيير أن يجيء في موسمه تمامًا، وفي لحظةِ حاجةِ الناس له وشوقهم إليه بحيث لا نقدِّم لهم البطيخ في الشتاء، أو شربةَ العدس في الصيف، وحينذاك يكون التغيير قد فقدَ أهمَّ ركن من أركانه؛ فاعليتَه التي لا تتأتَّى إلا والناس متحمِّسون له ومشتاقون إليه، لا قبل الأوان ولا بعد فواته.

عن الزمن والزمان

يا له من شعب عجوز حكيم ذلك الشعب، شعبنا!

كنت أتأمل تلك الحكمة الإلهية التي قضت أن يخلق الله سبحانه الدنيا في ستة أيام، إننا نعرف تمامًا أنه القادر وحده على أن يقول للشيء كن فيكون، بمعنى أنه كان قادرًا سبحانه أن يقول للدنيا كوني فتكون، وأن يحدث ذلك في ومضة، فما هي الحكمة أن يخلق الله الدنيا في ستة أيام؟!

أيكون لأنه سبحانه أراد أن يُعلِّمنا درسًا وأن يرينا أن عنصر الزمن يُشكِّل أهم عنصر في الوجود؛ بحيث إنه أدخله في صميم عملية الخلق ذاتها، فما بالك بالإنسان؟

فما بالك بنا — نحن المصريين — وعنصر الزمن عندنا يلعب أتفه الأدوار في حياتنا؛ إذ هو عندنا لا قيمة له بالمرة، مع أن العُمر زمن، والتحضُّر زمن، والنجاح زمن، والثروة زمن، والفشل أيضًا هو ذلك الزمن الممتد الأجوف الذي لا يحدث له أو فيه أيُّ تغيير.

بل إننا إما يأسًا أن يدخل الزمن في تركيب عقلنا وتصرُّفاتنا، أو ربما إهمالًا تامًّا لشأنه، قد صغنا نحن المكَّارين لنتخلَّص من عبء الزمن ومروره السيفي القاطع معجزة لغوية لا يقدر عليها إلا شعب مثلنا حكيم جدًّا وعجوز جدًّا وشديد الذكاء؛ فنحن لا نقول الزمن ولكننا نقول الزمان، وكأنما نستخفُّ به أو نُدلِّله، بل إننا لَنفعل أكثر من هذا بكثير، فبواسطة حرف واحد «الألف»، الذي أدخلناه على كلمة الزمن، فجعلنا له ثلاثة معانٍ أو ثلاثة أبعاد، فنحن حين نقول الزمان، إنما نعني به الزمن الذي يُقاس بالدقيقة والثانية، ونعني به وبنفس الكلمة عتبًا على الزمن الذي صنع بنا ما صنع، والذي يكبر به

الناس ويرتقون ونحن به قد ضعفنا وانحططنا خلال عشرة آلاف عام كان من الممكن أن تخلق منا أرقى وأغنى وأقوى شعوب الأرض، ولم نكتفِ بمعنيين أو بُعْدين أخذتهما الكلمة، وإنما بذلك الحرف أيضًا صنعنا معنًى ثالثًا له وبُعدًا آخر، إن الزمان أيضًا هو المقدر والمكتوب علينا. بحرف واحد جعلنا للكلمة الواحدة ثلاثة معانٍ: الزمن، ورأينا فيه وعتبنا عليه، ثم غيظنا منه باعتباره مُقدَّرنا ومكتوبنا. مَن يدري، ربما لو قصرنا الزمن على الوقت لَأدركنا قيمته وخطره مثلما أدركت باقي الأمم فسبقتنا، ولكن لأننا، كعادتنا، لعبنا بالزمن مثلما نلعب بالكلمات وأضفنا له ذلك الحرف، ربما لهذا لعب بنا الزمن هو الآخر وشبع لعبًا، فكما أن ذكاء المرء محسوب عليه، ففصاحته أيضًا قد تضيِّعه مثلما ضيَّعتنا.

لا ننبش الماضي ولكن ...

الزمن إذن ليس سوى لعبة في يد الزمان، هكذا تصوَّرناه — نحن المصريين — وانكببنا على فكرة الزمان إلى درجةٍ أن نسينا تمامًا عنصر الزمن في الزمان، نسينا البُعد الأساسي والرئيسي لأي شيء وكل شيء، عنصر الزمن، والزمن مستمر أبدًا لا يتوقف، المستقبل يتحوَّل إلى حاضر، يتحوَّل بدوره إلى ماضٍ، وهكذا الدنيا.

والإنسان هو الكائن الحي الوحيد المُدرك أو الذي أدرك ووعى بفكره الزمن ومروره وخطورته الكبرى، ووعي الإنسان بهذا هو المسئول في رأيي إلى حد كبير عن هذا التطور الهائل الذي قطعته وتقطعه البشرية، بل هو المسئول عن فكرة التسارع المهولة في رأيي؛ لأنها في بضعة أجيال قليلة نقلت الإنسان فجأةً من سرعة الحصان إلى سرعة الكونكورد الأسرع من سرعة الصوت، وسنتطوَّر إلى أسرع وأسرع بطريقة ندوخ حتمًا لو فكرنا فيها، والكارثة أننا شئنا أم أبينا لا بد أن نفكر فيها بمعنًى آخر؛ إذ يتسارع أيضًا كمُّ ما نعانيه من قلق ورعب كالراقصين المضطرين أن يغيِّروا سرعة الحركة كلما تزايَد الرتم أو الإيقاع، وكما يحدث لبعض الناس في حلقات الذِّكر، ونتيجة لانطلاق حركة داخلية عنيفة عُنف حركات الذِّكر، يبدأ بعض الذاكرين يتكلَّمون بالسرياني، ونعتبرها هلوسة أو تخاريف في حين أنها ليست سوى تسارُع في تعبير المخ عما يدور داخله بحيث لا يعود مهمًّا أن يفهمنا الآخرون أو نفهمهم نحن أنفسنا؛ فينفلت منا العيار وتنطلق الأفكار تلو الأفكار.

الزمن والزمان، لا بد أن نتذكر دائمًا عنصر الزمن؛ فنحن نعيش في عالم تتسارع فيه خطوات شعوبه إلى الأمام بطريقة تُذهل، إن القفزات الهائلة التي قفزتها بلاد كاليابان

والهند وكوريا وحتى سنغافورة من شرق آسيا إلى غربها، آسيا بالذات، قارة القرن الحادي والعشرين مرحبًا بذراعنا الآسيوية، سيناء تعود، فربما انتشلتنا من حظ قارة أفريقيا السيئة الحظ الغارقة وحدها في عالم كل ما فيه طافٍ. أذكر هذا كله وأتحدث عن فكرة الزمن والزمان بالذات؛ لأننا نعيش قضية غريبة هي قضية علاقتنا بالماضي، وهل ننبشه أم نُهيل عليه التراب ونمضي نتطلع إلى المستقبل فقط. كل ما أخشاه أن يسيء البعض فهم قضية، أن ننسى الماضي تمامًا وأن نتطلَّع إلى المستقبل، صحيح أن مَن يَتُبْ يَتُبِ الله عليه، ولكن لا بد حتى لكي يتوب الإنسان عن شيء أو من شيء أن يعرف ويدرك أنه كان على خطأ، وأنه يريد صادقًا أن يعود للطريق القويم، حسن تمامًا، ولكن المشكلة أن بعض الناس لا يريدون أن يدركوا أنهم أخطئوا وأنهم يحيَوْن خطأ الماضي بزعم أنه أصبح حاضرًا وانتهينا. لا أيها السادة، إن فكرة عدم نبش الماضي مقصودٌ بها بالتأكيد استنكار أن يحاول البعض نبش الماضي لمجرد التشهير بالماضي أو استغلاله كوسيلة لعقاب الناس. مَن تاب تاب الله عليه، ولكن لا بد أن يدرك أنه تاب حتى لكي نعرف نحن أحياء الحاضر إن كنا على خطأ أو صواب؛ إذ لا يمكن إقامة حاضر متين ونتطلَّع لبناء أدوار عُليا في المستقبل إلا على أساس، والأساس هو الماضي؛ ولهذا فنحن مضطرون — شئنا أم أبينا — أن نعرف، ونحفر من أجل أن نعرف، لكي نضع أساس البناء؛ ولهذا فهناك فارق كبير بين السكوت تمامًا عمَّا حدث في الماضي، وبين نسيانه تمامًا وكأنه لم يكن، لقد كان، لقد حدث، ولكن مشاكل الحاضر ليست إلا امتدادات لأحداث وعوامل حدثت في الماضي، ولكي نحلها لا بد أن نعرف لماذا حدثت ومَن أحدثها، وكي لا نقع في نفس الخطأ مرةً أخرى نحن مضطرون إذن أن نضع الماضي نُصبَ أعيننا دائمًا حتى لا نفقد الطريق إلى المستقبل الأحسن. وحين أقول الماضي لا أعني به فترة عشر أو عشرين أو ثلاثين سنة مضت؛ حين أقول الماضي أعني به التاريخ كله، تاريخ كل شخص وكل حدث وكل واقعة، وعلى رأي الصديق الكبير أحمد بهاء الدين: كل أيام لها تاريخ، وكل إنسان له تاريخ، بل إن الإنسان يتطور؛ لأنه الكائن الوحيد الذي يعي تاريخه ولا ينساه بحيث بتراكُم خبراته تحدث التغيرات. لا ننبش الماضي لمجرد النبش والإذلال. كلام نحن موافقون تمامًا عليه. لا ننبش ولكن أيضًا لا ننسى؛ إذ لو فعلنا هذا لَارتكبنا جريمة في حق أنفسنا نحن الحاضرين، وفي حق أجيالنا القادمة أيضًا؛ لأننا نكون كالشاب السعودي الذي يُفقِد نفْسَه ذاكرتَه باعتبار أنها معوِّق لنظرته إلى المستقبل. إن أي مستقبل لا يمكن أن يأتي من فراغ، إن المستقبل إفراز الحاضر، والحاضر إفراز الماضي، ولكي يكون هناك مستقبل؛

فلا بد أن يكون ثمة حاضر وثمة ماضٍ، نراها جميعًا بكل وضوح ودون أي تعامٍ أو تناسٍ، ولتصبح القاهرة مكة بعد الفتح الإسلامي العظيم يومَ قال رسول الله ﷺ لكل الكفار: اذهبوا فأنتم الطلقاء. اذهبوا إذن أيها السادة فأنتم الطلقاء، ولكن الطلقاء إلى أين؟ تلك هي المشكلة، إلى العودة للعبث بالذِّمم والقِيم والضحك على الناس الطيبين، لا وألف مرة لا. أنتم الطلقاء وإن كان كل كافر منكم في حاجة لفتح ملفه الخاص ليقول له الشعب: من أين لك هذا؟ وكيف أصبح لك ذاك؟ وكيف وصلت إلى النفوذ أو النقود؟ لنغلق الملفات؛ فالآن ليس وقت الحساب ولكن فَلْنحفظْها ونَعِها جيدًا ونعلِّم أبناءنا محتواها ونَقِهم ونَقِ أنفسنا من الوقوع مرة أخرى في خية أي ثعلب أو مسعور أو أفعى سامة رقطاء.

أجل لا بد أن ندخل في سباق مع الزمن؛ فلقد تأخرنا وبشدة ومطلوب أن نُسرع ونتسارع وننطلق، فَلْننطلق، ولكي نندفع بأقصى قوتنا لا بد أن نقف على أرض ثابتة وقِيَم ثابتة، وإلا نكون كمَن يخدع نفسه. وليس كمثل الإنسان قدرة على خداع نفسه وفي ظنه أنه بهذه الطريقة سينجح أيضًا في خداع الآخرين. أنه لجدٌّ واهمٍ؛ إذ هو لا يخدعن سوى نفسه، فكل العيون شاخصة كاشفة ساخرة، إذ العيون هي الأخرى لها ذاكرة.


هنداوي